تلازم الشريعة والطريقة

تأليف

الشَّيخ المحدِّث العلّامة محمَّد زكريَّا الكاندهلوي رحمه الله

نقله إلى العربيّة

الشَّيخ المحدِّث عبد الحفيظ بن ملك عبد الحق المكّي رحمهما الله

www.islaminsight.org

تأليف

الإمام الرباني شيخ الحديث العارف بالله العلامة

محمد زكريا الكاندهلوي المدني الصديقي رحمه الله

الناشر

مكتبة الحرمين

للنشر والتوزيع (ش. ذ. م. م)

ديرة دبي - الامارات العربية المتحدة

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد : فقد قمت بتوفيق الله وفضله بترجمة كتاب شيخنا شيخ الحديث وإمام المحدثين في عصره الإمام الرباني العلامة محمد زكريا الكاندهلوي الصديقي رحمه الله «تلازم الشريعة والطريقة» في عام ١٣٩٩هـ ، ونشرته دار الرشيد بالقاهرة في عام ١٤٠٠هـ .

ثم توفي في غرة شعبان ١٤٠٢هـ شيخنا زكريا رحمه الله تعالى ، وانشغلنا بعدها في أمور متنوعة منها : تدريس الحديث الشريف بالمدرسة الصولتية العامرة المباركة بمكة المكرمة ، والتشرف بخدمة والدي ومراعاة أحواله حتى توفي هو الآخر في الحادي عشر من ذي الحجة عام ١٤٠٧هـ بمكة المكرمة حيث صلي عليه بالمسجد الحرام بعد فجر الثاني عشر من ذي الحجة ، ودفن بمقابر المعلاة بجوار الإمام الحافظ الفضيل بن عياض رحمه الله ، فرحمه الله رحمة الأبرار الصالحين ونور مضجعه بفضله وكرمه .

ثم انتقلت إلى المدينة المنورة على منورها ألف ألف صلاة وسلام وتحية لبعض الظروف ، أهمها : كون فضيلة العلامة المحدث الفقيه الشيخ محمد عاشق إلهي البرني وفضيلة الشيخ المحدث حبيب الله قربان علي هناك فيسهل الإستفادة منهما في جمع وترتيب وإعداد شرح صحيح البخاري : «الكنز المتواري في معادن لامع الدراري وصحيح البخاري» . وقد انشغلت فيه منذ محرم عام ١٤٠٨هـ ، وحيث كانت مراجعة الأصول وقراءة التجارب المطبوعة «مراجعة البروفة» الأخيرتان من مسئولية هذا العاجز الفقير ، وكان يتطلب اعتناء بالغاً لأهميته ، فيأخذ من وقتي الكثير بل جل أوقاتي ، والحمد لله على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، وقد انتهينا بفضل الله وكرمه وإحسانه المحض من هذا

العمل المبارك قبل مدة وجيزة ، وكمل هذا الشرح المبارك في (٢٤) أربع وعشرين مجلداً .

نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يرزقه بمنه وفضله القبول بين عباده ، وينفع بـه طلبة العلم ومحيي السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام .

وأن يرزقنا وجميع من أعان فيه بأي صورة لديه القبول بكرمه ، ويجعلـه ذخـراً كريماً ليوم المعاد ، وذريعة مباركة للقرب لديه سبحانه وتعالى إنه جواد كريم ، آمين .

وكنا قد نسينا هذا الكتاب المبارك : «تلازم الشريعة والطريقة» ، إلا أنه قبل سنتين ذكّرنا به بعض أفاضل الصالحين المثقفين من مصر وذكر أنه استفاد من هذا الكتاب كثيراً في تصحيح مفاهيم خاطئة عن كثير من الأمور الدينية ، وأن النـسخ المطبوعـة قـد انتهـت من الأسواق ، وكثير من الأصدقاء يطلبون منه وقد صورت من النسخة الموجـودة لـدي كـثيراً لطلبهم وإصرارهم ، وحرضني على إعادة نشره للحاجة الشديدة إليه .

وحيث أني كنت مشغولاً كما ذكرت في تكميل «الكنز المتواري» فلـم أتمكـن من تلبية طلبه فوراً ، لأني كنت حريصاً على أن ننشره هذه المرة بعد إعادة النظر عليه .

وحينما انتهينا بفضل الله في الأيام الماضية من «الكنز المتواري» : أعدت النظر وقمنا بصف جديد للكتاب ونسعد بنشره من جديد . فأردت أن أحرر هذه المقدمة للطبعة الثانية لتوضيح بعض الأمور الهامة المتعلقة بهذا الكتاب : ــ

أولاً : تسمية الكتاب بـ«تلازم الشريعة والطريقة» ، وهـذا اصـطلاح عنـد الـسادة الصوفية مذكور كثيراً في كتبهم ، وأصله مستنبط من حديث جبريل المعروف وهو : ــ

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : حدثني أبي عمر بن الخطـاب رضي الله عنه قال : «بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد ! أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسـلام أن تـشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليـه وسـلم وتقـيم الـصلاة وتـؤتي الزكـاة

وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أمارتها . قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت مليا . ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» . رواه مسلم ورواه بنحوه عن أبي هريرة البخاري في صحيحه وغيره أيضاً في كتبهم .

ففي هذا الحديث بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السلام أتى «ليعلمهم دينهم» فالحديث يشمل الدين كله .

وقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» بذيل هذا الحديث : «قال القرطبي : هذا الحديث يصلح أن يقال له : أم السنة ، لما تضمنه من جمل علم السنة . وقال الطيبي : لهذه النكتة استفتح به البغوي كتابيه «المصابيح» و«شرح السنة» اقتداء بالقرآن في افتتاحه بالفاتحة ، لأنها تضمنت علوم القرآن إجمالاً . وقال القاضي عياض : اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداءً وحالاً ومآلاً ومن أعمال الجوارح ومن إخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه» ، انتهى .

وفي الحديث قسّم الدين إلى شعب ثلاثة هامة : «الإسلام والإيمان والإحسان» .

فالإسلام : المراد به : الأعمال الظاهرة سواء قولية أو بدنية أو مالية أو المتروكة . والتي يقال لها اصطلاحاً : «علم الفقه» ويقال للمهتمين به والمتخصصين فيه : «الفقهاء» . والإيمان : المراد به جميع أنواع العقائد ويقال له اصطلاحاً : «علم الكلام» أو «علم العقائد» ويقال للمهتمين به والمتخصصين فيه : «المتكلمين» .

والإحسان : المراد به الأحوال القلبية والكيفيات الباطنية ، ويقال لها : اصطلاحاً : «علم التصوف» أو «الطريقة» أو «علم الأخلاق» ، ويقال للمهتمين به والمتخصصين فيه : «الصوفية» .

وحيث أنه لا خلاف في العقائد الأساسية بين الفقهاء والصوفية حيث أنهم جميعاً ينتسبون إلى «أهل السنة والجماعة» كما هو مقرر ومعلوم ، لذلك : عموماً يطلق لفظ «الشريعة» : على الفقه ، ولفظ «الطريقة» : على التصوف .

وكثير من العلماء يقسمون الدين على هاتين الطبقتين : الفقهاء والصوفية . يقول شيخ الإسلام في «الفتاوى» جـ ١١ : «وإذا عرف منشأ التصوف كان من البصرة وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد ، كما كان في الكوفة من يسلك طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد .

وهؤلاء «الصوفية» نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف ، فقيل في أحدهم : «صوفي» ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال .

ثم التصوف عندهم : له حقائق وأحوال معروفة تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه ، كقول بعضهم : الصوفي : من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واستوى عنده الذهب والحجر .

والتصوف : كتمان المعاني وترك الدعاوي ، وأشباه ذلك . وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق ، وأفضل الخلق بعد الأنبياء : الصديقون . فهذا أصل التصوف» ، انتهى .
ويقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب النجدي الحنبلي رحمه الله في القسم الثالث من مجموع مؤلفاته صـ ٣١ : «اعلم أرشدك الله أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى الذي هو العلم النافع ودين الحق الذي هو العمل الصالح ، إذا كان من ينتسب إلى الدين منهم من يتعانى بالعلم والفقه ويقول به : كالفقهاء ، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة : كالصوفية ، فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين» ، انتهى . والمراد بالنوعين

المذكورين كما لا يخفى : «الفقه والتصوف» وهو الذي يطلق عليه «الشريعة والطريقة» في اصطلاح السادة الصوفية . ولا مشاحة في الإصطلاح كما هو مقرر ومعلوم .

ثانياً : إن هذه الشعب الثلاثة «العقائد ، والأعمال ، والأحول القلبية» أي «العقائد والفقه التصوف» بما أن كلا منها جزء لا يتجزأ من الدين ، فإن أحكام كل شعبة منها تستنبط من المراجع الأربعة المعروفة عند جمهور أهل السنة والجماعة وهي : «القرآن والسنة الإجماع والقياس» . وقد صرح بذلك أئمة التصوف أيضاً في محله . فآلات الإستنباط لجميع مسائل التصوف وأحكامه أصلا : هي هذه الأربعة المذكور .

ثالثاً : إن شيخنا كان قد حرر هذا الكتاب باللغة الأردوية ، والناطقون بهذه اللغة – وهم أهل «الهند وباكستان وبنغلاديش» حيث أنها لغة المسلمين الثقافية بهذه البلدان – وهم غالبهم بل عامتهم يتبعون المذهب الحنفي في الأمور الفقهية .

وحيث أن بعض غلاة اللامذهبيين قد طعنوا في تقليد أي أحد من الأئمة الأربعة المتبوعين واتهموهم بالشرك في الرسالة لذلك وبدّعوهم وضللوهم عموماً .

إلا أنهم اتهموا الإمام أبا حنيفة خاصةً باتهامات واهية ، لذلك رداً عليهم ودفعاً لاعتراضاتهم الباطلة خص الإمام أبا حنيفة بالذكر وبيان بعض المميزات التي امتاز بها رحمه الله .

وإلا فشيخنا رحمه الله من المعظمين والمبجلين لجميع الأئمة الأربعة المتبوعين على حد سواء ، فكلهم أئمة هدى ويجب إكرامهم واحترامهم ، بل ويجب إكرام وتبجيل جميع أئمة الفقه والحديث والتصوف ، وكان يحث تلامذته والمنتسبين إليه دائماً إلى هذا الأمر الهام . كما سيلاحظ القارئ ذلك في مواضع عديدة من نفس هذا الكتاب أيضاً .

هذا أهم ما أردت توضيحه ، وأرجو من الباري الكريم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ومقبولاً لديه وأن ينفع به عباده المؤمنين ويجعله سبب الهداية والرشد لنا جميعاً بفضله وكرمه ، آمين .

وصلى الله تعالى على خير خلقه وسيد رسله وخاتم أنبيائه سيدنا وحبيبنا وشفيعنا ونبينا ومولانا محمد النبي الكريم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأتباعه أجمعين وبارك وسلم تسليماً كثيراً .

كتبه الفقير إلى رحمة ربه الكريم

عبدالحفيظ ملك عبدالحق المكي

تحريراً في يوم الأربعاء ١٤/١٠/١٤٢٦هـ

بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يـدي الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هـادي لـه ، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمـداً عبـده ورسـوله صـلى الله تعالى عليـه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعـد :

فقد أخرج الشيخان عن عبد الله بـن عمـر رضـي الله عنهمـا قـال : قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلـم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علـم فـضلوا وأضلّوا » .

وقال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه « طريق الهجـرتين وبـاب الـسعادتين » حين بين مراتب الناس في الدار الآخـرة وطبقـاتهم وجعلـهم ثمانيـة عـشر طبقـة ، فجعـل في الطبقة الأولى : المصطفين من الرسل ، وفي الثانية : من عداهم من رسـل الله ، وفي الثالثـة : عامة الأنبياء عليهم السلام ، ثم قال ما نصّه :

الطبقة الرابعة : ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم ، وهم القائمون بما بُعثـوا بـه علمـاً وعملاً ودعوةً للخلقِ إلى الله علـى طـريقِهم ومنهـاجهم ، وهـذه أفـضل مراتـب الخلـق بعـد الرسالة والنبوةِ ، وهي مرتبة الـصديقيةِ ، ولهـذا قـرنهم الله في كتابـه بالأنبيـاءِ فقـال تعـالى :

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

والصلحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ ، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم الربانيون وهم الراسخون في العلم وهم الوسائط بين الرسول وأمته فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينهِ ، وهم المضمون لهم : أنهم لا يزالونَ على الحقِ لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك .. وهؤلاء هم العدول حقاً بتعديل رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لهم ، إذ يقول فيما يُروى عنه من وجوهٍ شدَّ بعضها بعضاً : «يحمِلُ هذا العلم من كلِ خَلَفٍ عدوله ، ينفون عنه تحريفَ الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» ، وما أحسن ما قالَ فيهم الإمام أحمد في خطبةِ كتابه في الرد على الجهمية : «الحمد للهِ الذي جعلَ في كلِ زمانِ فترةٍ من الرسلِ بقايا من أهلِ العلم يدعون من ضلَ إلى الهُدى ، ويصبرونَ منهم على الأذى ، ويُبصرون بنورِ الله أهلَ العَمىَ ، فكم من قتيلٍ لإبليسَ قد أحيوه، ومِن ضالٍ تائهٍ قد هدوه ، فما أحسنُ أثرهم على الناسِ وأقبح أثر الناسِ عليهم ، ينفونَ عن كتابِ اللهِ تأويلَ الجاهلين وتحريفَ الغالينَ وانتحالَ المبطلين» . وذكر ابن وضاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، انتهى .

وشيخنا العلامة الكبير والمحدث الجليل شيخ الحديث والمحدثين الإمام العارف الجامع لعلوم الشريعة الغراء وحقائقِ الطريقةِ الشهباءِ الشيخ محمد زكرياً الكاندهلوي ثم المدني الصديقي حفظه الله ونفعنا والمسلمينَ به أحدُ هذه البقيةِ الباقية من العلماءِ العاملينَ المتقينَ : عندما رأى الفتنَ كقطع الليل المظلمِ على هذه الأمةِ التي ما تركَ الباطلُ شرقِيَّه وغربِيَّه ثانيةً إلا وهو يكيدُ لها بالفساد والإنحرافِ في عقائدِها وأصولِها وفروعِها ، بل وإن تمعنَ المؤمنُ في ذلك تبينَ له : أن شياطينَ الباطلِ لم يدَعوا شيئاً إلا وكادوا للمسلمين فيه كيداً . خفياً أو جلياً ، ولكن الله الذي أرادَ لهذا الدينِ الحنيفِ البقاءَ والإزدهارَ ، والإنتشارَ في أنحاء المعمورةِ : أوجدَ سبحانه وتعالى له رجالاً تفانوا في حفظِ كل صغيرةٍ وكبيرةٍ منه ، وضحّوا بالغالي والنفيسِ من أجلِ أصغرِ شعيرةٍ من شعائره .

فالفتنُ كثيرةٌ وحَمَلاَتْ الباطلِ متنوعةَ ولكن من أعظمها أثراً في المتدينينَ خاصةً اثنتان :

إحداهَا : نزعُ الحبِ والولاءِ الفكري عن السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين وذلك في الدرجةِ الأولى : عن صحابةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الدرجةِ الثانية : عن أئمةِ الهدى الأئمةِ الفقهاءِ المجتهدينَ المتبوعينَ الذين بذلوا الجهود العظيمةَ لتنقيحِ الأحكامِ الشرعيةِ وحفظِها للأمةِ التي أجمعتْ دائماً على مختلِفِ عصورها سلفاً وخلفاً على ثقاهَتِهم وإخلاصِهم وعلوِ باعِهم وكمالِهم العلميِ والتحقيقي في هذا الشأن .

وثانيها : إيجادُ البلبلةِ الفكريةِ عن الناحيةِ الروحانيةِ والسلوكِ وتزكيةِ الباطن في الإسلامِ ، واتهامِ الكاملينَ العارفينَ المتقينَ فيه بأنهم : طبقةٌ لا علاقَةَ لها بالإسلام وإن كانت لها علاقةٌ : فالإسلامُ لا علاقةَ له بهذه الروحانياتِ والأخلاقِ والصفاتِ الباطنةِ الشريفةِ .

وللحصول على مقاصِدهم الخسيسةِ لَجَاوُا إلى شعاراتٍ ظاهرُ ألفاظِها يدلُّ على أنهم مخلصونَ للإسلامِ وأهله ، فانخدعتْ بهم أقوام لا رسوخَ لهم في العلمِ والإيمانِ ، وعمَّ المنكرُ حتى ابتُليَ به رجالٌ لهم مكاناتٌ مرموقة في المجتمعاتِ الإسلاميةِ وبعضهم له يد طُولَى في الكتابةِ والتحريرِ فخدَعَ بتحريرِه وكتاباتِه : السُّذجَ أصحابَ العقولِ الضيقةِ والمتأثرينَ بالثقافةِ الشرقيةِ أو الغربيةِ الكافرةِ ، فتارةً رفعوا شعارَ نزاهةِ الإسلامِ وعدلِهِ وكمالِهِ وهجموا على صحابةِ سيدِ الخلقِ صلواتُ اللهِ وسلاَمه عليهِ ، وتراهُم يطعنونَ في هذا ويجرحونَ ذاك ، يتهمونَ هذا بالخيانةِ في بيت مالِ المسلمينَ وذاك بأنه كانَ يتعصبُ لقومِهِ وقبيلتِهِ دونَ أمرِ ربِهِ ، ويتقولونَ على آخرَ أنه انغمسَ في الشهواتِ وقلع الإسلامِ من أصلِهِ ، إلى غيرِ ذلكَ من الوقاحةِ والبجاحةِ التي لا يرتضيها رجلٌ عامي على نفسهِ ، وتناسَوْا «أخزاهم اللهُ» أن الشارع الكريمَ صلى الله عليه وسلم قد نهى عن ذلك أشدَ النهيِ ، وقد علم السلفُ رحمهم اللهُ بخطر هذه الفتنةِ الدهماءِ التي تهدمُ الإسلامَ من أصوله فأنكروهَا بعباراتٍ شديدةٍ بُسِطَت في مواقعِها .

وقد قال الحافظُ الذهبيْ رحمه الله في الكبائرِ بعدَ نقلِ بعضَ ذلك : «فمن طعنَ فيهم [أي الصحابةِ] أو سبهّم فقدْ خرجَ من الدينِ ومرق من ملةِ المسلمينَ ، لأن الطعنَ لا يكونُ إلا عن اعتقادِ مساويهم وإضمارِ الحقدِ فيهم ، وإنكارِ ما ذكرَه اللهُ تعالى في كتابهِ من ثنائـه

عليهم ، وما لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم من ثنائِه عليهم وفضائِلهم ومناقِبهم وحبهم ، ولأنهم أرضى الوسائلِ من المأثورِ والوسائطِ من المنقولِ ، والطعنُ في الوسائطِ طعنٌ في الأصلِ ، والإزدراء بالناقلِ ازدراء بالمنقولِ ، هذا ظاهر لمن تدبره وسَلِمَ من النفاقِ ومن الزندقةِ والإلحادِ في عقيدتهِ ، وحسبك ما جاءَ في الأخبارِ والآثارِ من ذلك» انتهى .

فَعافَانا اللهُ يا أخي وحفظنا من الفتنِ ما ظهر منها وما بطن بفضلهِ وكرمهِ ، ثُمَّ تجدُ من هؤلاءِ المغترينَ أناساً رفعوا شعارَ الولاءِ للرسالةِ المحمديةِ على صاحبها أفضلُ الصلاةِ والتحية وادَّعُواْ محبتَها ، ثم حملُوا معولَ «الشركِ في الرسالةِ» وأخذوا يكسرونَ به رؤوسَ أئمةِ الإسلامِ الفقهاءِ المجتهدينَ الذينَ أطبقتِ الأمةُ على إكرامهم وحسنِ الظنِ بهم ، وعلى أنهم ما جاءوا أبداً بشيءٍ في الأحكامِ من عندِهم وإنما التزمُوا في جميعِ أمورِهم بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه صلى الله عليه وسلم ولم يختلفِ اثنانِ يوماً في نزاهةِ هؤلاءِ السادةِ الأتقياءِ ، وما زالتْ جماعاتُ العلماءِ الأعلامِ من المحدثينَ والمفسرينَ والفقهاءِ والمؤرخينَ والعارفينَ تَعتز بالإنتسابِ إليهم والإستفادةِ من اجتهاداتِهم واستنباطاتِهم البديعةِ من ذاك الحين إلى يومِنا هذا ، معتقدينَ : أن ما جاءوا به ما هو : إلا توضيحٌ وشرحٌ وتبسيطٌ وتنقيحٌ لما جاءَ عن اللهِ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا يجوزُ الإجتهادُ أبداً لمن لم تتوفرْ فيه الشروط التي حددَها العلماءُ الراسخونَ له .

وهكذا تجدُ هؤلاءِ السفهاءَ في الميدانِ الآخرِ رَمَوْا الكاملينَ من العارفينَ باللهِ بما هم منه بُرآءُ ، فبحجةِ التمسكِ بالسنةِ أحياناً وبحجةِ تنقيةِ الإسلامِ من الشوائبِ أحياناً وبحججٍ أخرى كثيرةٍ هجموا على السلوكِ والإحسانِ بل وعلى كل جزءٍ من أجزائِه وعلى كلِ رجلٍ من رجالِه بل وحتى على مصطلحاتِهم ، فطعنوا في كلِ صغيرةٍ وكبيرةٍ مدعينَ أنه لا علاقةَ لها بالإسلام إلخ .

ويعجب المسلمُ من هذا وكيفَ أن هذه الدعايةَ انتشرتْ وراجتْ مع أننا لا نعلم عظيماً من عظماءِ الإسلام من السلفِ إلى يومِنا إلا ونرى أنه كان يُقِرُ السلوكَ الإسلاميَّ

المعروفَ بالتصوفِ في مصطلحِ القومِ ، ولم نرَ عالماً رفيعاً أقرت له الرجالُ بالفضلِ إلا وهو يعتزُّ بالإنتسابِ إلى طريقٍ من هذه الطرقِ ولاءً أو محبةً ، إلا النادرَ والنادرُ كالمعدومِ .

لقدْ لا حظَ شيخُنا كلَّ هذا بعينِ العالمِ الفذِ المتألمِ لحالِ الأمةِ وما آلت إليه ، فاستخارَ ربَّه واستعانَ به وبدأ على ما يلهِمُه الباري العليمِ الخبيرُ في رده على هذه الفتنِ الظلماءِ باللغةِ الأردويةِ ، فبيَّنَ بالأدلةِ القاطعة : عدالةَ الصحابةِ وثقاهتهُم و وجوبَ محبتهم وإكرامهِم والاجتنابِ والحذر من الطعنِ فيهم أو إساءةِ الأدبِ معهم رضي الله عنهم أجمعينَ ، وأن تقليدَ الأئمةِ الفقهاءِ المتبوعين حقٌ ولا حرجَ فيه ، بل إنه واجبٌ في حق من لم تتوفرْ فيه شروطُ الإجتهادِ ، وهو ما كان عليهِ السلفُ والخلف ، وليس فيه أيُ دخلٍ قطعاً للشركِ في الرسالةِ، وإنما هو لتحقيقِ الإنقيادِ التامِ والولاءِ الكاملِ لصاحبِ الرسالةِ صلى الله عليه وسلم ، وبدون التقليدِ لأئمةِ الهُدى يصعُبُ ذلك حتى على الخاصة ، وأما العامةُ الجهلةُ فمستحيلُ في حقهم ذلك ، كما بينه أئمة العلم والهدى في كل عصر ومكان .

كما بيّنَ بالحجج القطعيةِ : أن التصّوفَ جزءٌ لا يتجزأ من الدين المتينِ كبقيةِ أجزائه من العقائدِ والعباداتِ والمعاملاتِ وغيرها ، وأن أصولَه ومبادئهَ أيضاً تستنبطُ من «القرآنِ والسنةِ والإجماعِ والقياس» كبقيةِ شُعبِ الدين ، وأنه ما هو إلا «الإحسان» الثابتُ في الأحاديثِ الشريفةِ «والتزكيةُ» الواردةُ في كتابِ الله عزوجلَّ في الآياتِ الكثيرةِ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن هناكَ تلازماً لا بدياً وحتمياً بين الشريعةِ والطريقةِ ولا منافاةَ أبداً بينهما ، وأنهما كغصنينِ لشجرةٍ واحدةٍ، إلا أن الطريقةَ خادمةٌ للشريعةِ ، والشريعةُ حاكمةٌ عليها، فقدْ أمرنا بوضعِ الأشياءِ مواضعها ، إلى آخرِ ذلكَ من الأبحاثِ البديعةِ النفيسةِ التي سيتمتعُ بها القارئ في هذا المؤلفِ القيمِ إن شاء الله .

ونشرتْ هذه الرسالةُ في بلادِ الهندْ وباكستانَ وبنغلاديش باللغة الأردويةِ (وهي لغةُ المسلمينَ الثقافيةُ فيها) ورزقَ اللهُ القَبولَ لمؤلّفه هذا بتلك الديارِ ، وطبعتْ له طَبَعاتٌ عديدةٌ في زمنٍ قصيرٍ حالَ غالِبِ مؤلفاتِه حفظهُ اللهُ .

ثم رأى هذا الفقيرُ المذنبُ في ليلة من الليالي المباركةِ وكأنهُ في مجلسِ سيد السادات صلى الله عليه وسلم وقد عُرضت عليه بعضُ مؤلفاتِ شيخِنا ، فأخذَ يتصفحها وقد أعجبتهُ كلها ، ثم توجهَ صلى الله عليه وسلم إلى هذا الفقير وأشارَ إلى هذا الكتابِ بالذاتِ : «تلازم الشريعةِ والطريقةِ» وأمرَه بترجمتهِ إلى اللغة العربيةِ .

وبما أن أمرَه الكريم صلى الله عليه وسلم ما كان ولم يكن ليُردَّ ، لذلك بدأت في العملِ فوراً ، ولكنَّ انشغالَ هذا المقصرِ دائماً في أمورٍ كثيرة : حالَ دونَ إتمامِ هذه الترجمةِ إلى اليوم ، وبما أنه قد حانَ الآن وقتُ الفراغِ منها إن شاءَ اللهُ في القريبِ العاجل : أردتُ أن أحُرِّرَ هذهِ المقدمةَ ، وقد يَسر اللهُ ليَ المولى الكريمُ جلّ شأنه أن يكونَ تحريرُها بالروضةِ الشريفةِ في المسجدِ النبوي المباركِ ليلةَ الأربعاءِ الموافقِ ١٣٩٩/٦/٢٧هـ .

وقد أضفتُ بالهامشِ باختصارٍ تراجمَ كبارِ علماءِ الهندِ حينَ ورودِ ذكرِهم في كلام المؤلفِ حفظه الله .

و أرجو منه سبحانَه وتعالى أن يجعلَ هذه الترجمةَ مفيدةً ومباركةَ للمترجمِ والقارئ ، وأن ينفعَ بها جميعَ المسلمينَ كما نفعَ بأصلِها ، واللهُ يقولُ الحَق وهو يهدي السبيل .

اللهم أرِنَا الحقَ حقاً وارزقنا اتباعَه وأرنا الباطلَ باطلاً وارزقنا اجتنابه . وصلى الله تعالى على خير خلقه وصفوةِ رسلهِ سيدنا وحبيبنا ومولانا محمدٍ وعلى آله وصحبه وبارك وسلمَ تسليما ، والحمد لله أولاً وآخرًا ..

المترجم

عبد الحفيظ بن ملك عبد الحق المكي

٢٧ / ٦ / ١٣٩٩هـ

المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

حامداً ومصلياً ومسلماً ..

بعد الحمدِ للهِ والصلاةِ والسلامِ على رسولِه صلى الله عليه وسلم : فإنَّ وِلَادةَ هذا المقصرِ كانت : في الحادي عشرَ من رمضانَ عامَ خمسةَ عَشَرَ وثلاثِمائةٍ بعدَ الألفِ في الساعةِ الحاديةِ عَشَرَ ليلاً بقريةِ كاندهله في بيتِ زوجةِ جدِ والدتي «من أمِها» وكانت تدعى بـ «أمّا مريم» وكانت امرأة عابدة زاهدة كريمةً .

فأتى إليها أكابر العائلةِ بعدَ صلاةِ التراويحِ قبلَ المَراَحِ إلى منازِلهم وهنأوها ثم طالبوا بالحلوى ، فأمرتْ بإحضارِ حلوى كثيرةٍ لسخائها وجودها وقسّمَتْهَا بينَ المهنئينَ حَسَبَ مراتِبِهم ، وحَدَثَ بذلكَ فرحٌ ومرحٌ وصياحٌ هاديٌ لطيفٌ .

وكاندهله هذه : قريةٌ كبيرةٌ تقعُ في مديريةِ «مظفر نكر» . وكانت في تلك الأيامِ «دوآبه» مأوى الشريعةِ والطريقةِ كليهِما ومخزنَهما . وكلمةُ «دوآبه» : اصطلاحٌ كانَ مشهوراً في السابقِ ومعروفٌ اليومَ أيضاً ، وقد وردتْ هذه الكلمةُ في كلامِ أكابِرنا كثيراً .

وهذه المنطقةُ تشمُلُ مديرياتِ : «دهلي وميرت ومظفر نكر وسهارنبور» ، ويقال لها «دوآبه» أي «منطقةُ الماءَينْ» : لأنَّ في الغربِ من هذه المنطقةِ يُوجدْ نهر «جَمْنَا» ، وفي الشرقِ منها نهرْ «كَنْكَا» ، وهما نهرانِ معروفانِ .

وقدِ اشتهرتْ هذه المنطقةُ بأنها مخزنٌ ومرجعُ ومأوى للشريعةِ والطريقةِ كلتيهما بصورةٍ خاصة . كان بدايةُ ذلك بأسْرَةِ الإمامِ الجليلِ الشيخِ أحمدَ بنِ عبدِالرحيم [1] وليِ اللهِ

---

(١) قال عنه العلامةُ الشريفُ عبد الحيِ بنِ فخرِ الدينِ الحسني (والدُ الشيخِ أبي الحسن الحسني الندوي) في «نزهة الخواطِرِ» في الجزء السادسِ منه ص ٣٩٨ : «الشيخُ الإمامُ الهمامُ حجةُ اللهِ بينَ الأنامِ إمام الأئمةِ قدوة الأمةِ علاّمة العلماء وارثَ الأنبياءِ آخرُ المجتهدينَ أوحد علماءِ الدينِ زعيمُ المتضلعينَ بحملِ أعباءِ الشرعِ المتينِ محيي السنة ومن عظمت به لله علينا المنةُ شيخُ الإسلامِ قطبُ الدينِ أحمد ولي اللهِ بنُ عبدِالرحيم بن وجيهِ الدينِ العمَريِ الدهلويُ» .. ثم قال : «ولد يومَ الأربعاءِ لأربعَ عشرةَ خلونَ من شوالَ سنة أربعَ عشرةَ ومائةٍ وألفٍ في أيامِ عالَمكيرَ . ثم بَسَطَ في أحوالِ طلبهِ العلمَ =

الدِهلويِ المحدثِ المشهورِ ، وأما الفيضانُ العامُ فكانَ بواسطةِ أصحابِ وخلفاءِ الشيخِ الكبيرِ

= واجتهادِه وذِكرِ أساتذتِه ومشايخِهِ ورحلتِه إلى الحرمينِ الشريفينِ وتَلَمُّذِه على الشيخِ أبي طاهرِ محمدِ بنِ إبراهيمَ الكرديِ المدنيِ بالمدينةِ المنورةِ وتلقيهِ منه أمهاتِ الكتبِ الحديثيةِ بعضَها قراءةً وبعضَها سماعاً و ورودِه بمكة المكرمةِ وأخذِه الموطأ عن الشيخِ وفدِ الله المالكي المكي وحضوره دروس الشيخ تاج الدين القلعي المكي وأخذه الإجازة عنه لسائر الكتب ، وأخذه عنه الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخ إبراهيم بن الحسن المدني وهو أول حديث سمع منه بعد عوده من زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : ثم عاد إلى الهند سنة خمس وأربعين ومائة وألف » .

ثم قال صاحب النزهة : ومن نعم الله عليه : أنه خصه بعلوم لم يشرك معه فيها غيره والتي أشرك فيها معه غيره من سائر الأئمة كثيرة لا يحصيها البيان ونحن نذكر قليلاً من ذلك الكثير ، حسبما ذكرها محسن بن يحيى الترهتي في « اليانع الجني » .

منها : ما أكرمه الله تعالى به من الفصاحة في اللغة العربية والربط الخاص بالفنون الأدبية في النظم والنثر كأنما الإعجاز أو السحر من رقة اللفظ ومعناه وصفاء المورد ومغناه .

ومنها : علوم الفقه على المذاهب الأربعة وأصحابهم والاطلاع على مأخذ المسائل ومنازع الحجج والدلائل .

ومنها علم الحديث والأثر مع حفظ المتون وضبط الأسانيد والنظر في دواوين المجاميع والمسانيد ، ولم يتفق لأحد قبله ممن كان يعتني بهذا العلم من أهل قطره ما اتفق له من رواية الأثر وإشاعته في الأكنافِ البعيدة .

ومنها : علم تفسير القرآن وتأويل كتاب الله العزيز ، فمن نظر في كتبه شهد بتوفر حظه منه .

ومنها : أصول هذه العلوم ومبادئها التي هذبها تهذيباً بليغاً وأكثر من التصرفِ فيها حتى يكاد يصحُ أن يقال : إنه باني أسها وباري قوسها ، فأما أصول التفسير فكتابه « الفوز الكبير » فيها شاهد صدق على براعته على كثير من أهلها ، والحق أنه متفرد بتحقيق هذا الفن وتدقيقه ، وأما أصول الحديث فله فيها باع رحيب وقد أشار ابنه عبد العزيز : ان له فيها تحقيقات مستطرفة لم يسبق إليها ، وأما أصول الفقه فإنه شرح أصول المذاهب المختلفة وجمعها وبين الفرق بين الأمور الجدلية والأصول الفقهية ورد وجوه الإستنباط على كثرتها إلى عشرة ، وأسس قواعد الجمع بين مختلف الأدلة وبين قوانين الترجيح .

ومنها : علم العقائد وأصول الدين ، فإنه أتى بأسرار غامضة في التطبيق بالمأثور مما لا يهتدي إليها في الأعصار إلا واحد بعد واحد ممن يجتبيه الله سبحانه ، وذلك : لأن المتكلم في هذا العلم إما أن يكون صاحب حديث يتهافت على ظواهره ، أو صاحب كلام يتعمق في الراي ، أو صاحب فقه يتوسط الفريقين ، أو صاحب ذوق يطمئن إلى ما يتجلى له ، وقد جمع الله تعالى في صدره ما شتته بين هؤلاء .

ومنها : آداب السلوك وعلم الحقائق ، فإنه أفاض من ذوارف المعارف على أهلها سجالا ، لأنه كان جامعاً بين الطرق الثلاثة من السمع والفكرة والذوق ، فلا يتجلى له شئ من السر الغامض فيقبله إلا بعد ما شهد بصحته شاهدا صدق من المعقول والمنقول – ثم ذكر خصائص عديدة له وبعض مؤلفاته القيمة – ثم قال : ومن نعم الله تعالى عليه ، أن أولاه خلعة الفاتحية وألهمه الجمع بين الفقه والحديث وأسرار السنن ومصالح الأحكام وسائر ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل حتى أثبت عقائد أهل السنة بالأدلة والحجج وطهرها من قذى أهل المعقول ، وأعطى علم الإبداع والخلق =

العارفِ الكاملِ الحاج [1] إمداد الله المهاجر المكي قدس الله روحه ، ومن أدنى آثار هذه

= والتدبير والتدلي مع طول وعرض وعلم استعداد النفوس الإنسانية بجميعها ، وأفيض عليه الحكمة العملية وتوفيق تشييدها بالكتاب والسنة وتمييز العلم المنقول من المحرف المدخول وفرق السنة السنية من البدعة غير المرضية - إلخ .. وبسط في مآثره قدس روحه بسطاً يليق بعلو مقامه وعظيم مرتبته ، وزين بترجمته العطرة المباركة ثمانية عشر صحيفة من كتابه البديع .

(١) قال عنه صاحب «نزهة الخواطر» في الجزء الثامن ص ٧٠ : «الشيخ العارف الكبير الأجل إمداد الله بن محمد أمين العمري التهانوي المهاجر إلى مكة المباركة كان من الأولياء السالكين العارفين: اتفقت الألسن على الثناء عليه والتعظيم له ، ولد يوم الاثنين لثمان بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين ومائتين بعد الألف بنانوته قرية من أعمال سهارنبور ، وقرأ الرسائل الفارسية على الوجه المرسوم ، وقرأ «الحصن الحصين» على مولانا قلندر بخش الجلال آبادي وقرأ المثنوي المعنوي عليه أيضاً وهو ممن قرأ على المفتي إلهي بخش الكاندهلوي ، ثم سافر إلى دهلي ولازم الشيخ نصير الدين الشافعي المجاهد وأخذ عنه الطريقة وبعد شهادته رجع إلى «تهانة بهون» فأقام بها زماناً ، ثم دخل «لوهاري» ولازم الشيخ نور محمد الجهنجهانوي وأخذ عنه الطريقة وفتح الله سبحانه عليه أبواب المعرفة وجعله من العلماء الراسخين في العلم فتصدر للإرشاد والتلقين بأمر شيخه ، وثار المسلمون وأهل البلاد على الحكومة الإنجليزية سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ١٢٧٤ وقامت جماعة من العلماء والصلحاء وأهل الغيرة من المسلمين في سهارنبور ومظفر نكر فأعلنوا الحرب على الإنكليز ، واختاروا الشيخ إمداد الله أميراً لهم ، واشتبك الفريقان في ميدان «شاملي» قرية من أعمال مظفر نكر فقتل حافظ محمد ضامن شهيدا ، وانقلبت الدائرة على المسلمين ورسخت أقدام الإنكليز واشتد بطشهم بكل من اتهم بالمشاركة في هذه الثورة ، وضاقت على العلماء العاملين الغيارى الأرض وضاق مجال العمل في الهند وقضى بعض الرفقة مدة في الاختفاء والإنزواء ولجأ بعضهم إلى الهجرة ومغادرة البلاد ، وآثر الشيخ إمداد الله الهجرة إلى مكة المكرمة ودخل مكة سنة ست وسبعين ومائتين وألف وألقى رحله بالبلد الأمين ، وكان أول إقامته على «الصفا» ، ثم انتقل إلى حارة الباب حيث قضى حياته ولقي ربه ، وعاش أياماً طويلة في عسر شديد وفقر وفاقة شأن الأولياء المتقدمين وهو صابر محتسب راض بما قسم الله له من الحال حتى جاء الله بالفرج وأبدل العسر باليسر وجاءته الدنيا راغمة ، واشتغل بالمجاهدات والعبادات متوجهاً إلى الله بقلبه وقالبه دائم الذكر والمراقبة فائض القلب والباطن بالعلوم والأنوار مع هضم للنفس وإطراح على عتبة العبودية وتواضع للعباد وعلو همة وشهامة نفس ، وإجلال للعلم والعلماء وتعظيم للشريعة والسنة السنية حتى غرس الله حبه في قلوب عباده وعطف قلوب العلماء الكبار والمشايخ الأجلاء إلى الرجوع إليه والإستفادة منه ، وأمه طلاب المعرفة واليقين من بلاد بعيدة وبارك الله في تربيته وطريقته فانتشرت أنوارهما في الآفاق وجدد به الطريقة الجشتية الصابرية وانتمى إليها ودخل في سلكها كبار العلماء والفضلاء ، ونفع الله به خلائق لا يحصون أجلهم : الشيخ قاسم والشيخ رشيد أحمد ومولانا يعقوب والمولوي أحمد حسن والمولوي محمد حسين والمولوي أشرف علي وكلهم صاروا شيوخاً وانتفع بهم خلق كثير .

وكان الشيخ إمداد الله مربوع القامة يميل إلى الطول نحيف الجسم أسمر اللون كبير الهامة واسع الجبين أزج الحاجبين واسع العينين حلو المنطق ودودا بشوشا ، قليل المنام مقلا من الطعام قد أضناه الحب الإلهي وأنحفته المجاهدات والرياضات ، =

المنطقة : أنك ترى مريدي قطب الإرشاد الإمام الرباني الشيخ رشيد (١) أحمد الكنكوهي نور الله مرقده : كان العامي الجاهل منهم أيضاً يواظبُ على صلاة التهجد بصورة تفوق على حالة

ـ رحب الأناة ، واسع القلب جامعاً للأشتات يلتقي على حبه والإستفادة منه المختلفون في الأذواق والمشارب ، متسامحا مع الناس ، متوسعاً في المسائل الجزئية والمذاهب الخلافية لا يتعصب فيها ولا يتشدد مولعاً « بالمثنوي المعنوي » دائم الإشتغال به تأملا وتدريساً وتذوقا وتلقينا ينصح أصحابه بقراءته والتأمل فيه ، له مصنفات لطيفة كلها في الحب الإلهي والمعرفة والتصوف ... إلخ ثم قال : توفي يوم الأربعاء ثاني عشر جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وثلاث مائة وألف بمكة المكرمة فدفن بالمعلاة عند الشيخ رحمة الله الكيرانوي .

(١) قال عنه صاحب « النزهة » في الجزء الثامن ص ١٤٨ : « الشيخ الإمام العلامة المحدث رشيد أحمد بن هداية أحمد بن پير بخش بن غلام حسن بن غلام على بن علي أكبر بن القاضي محمد أسلم الأنصاري الحنفي الرامبوري ثم الكنكوهي أحد العلماء المحققين والفضلاء المدققين ، لم يكن مثله في زمانه في الصدق والعفاف والتوكل والتفقه والشهامة والإقدام في المخاطر والصلابة في الدين والشدة في المذهب ، ولد لست خلون من ذي القعدة سنة أربع وأربعين ومائتين وألف ببلدة كنكوه في بيت جده لأمه ونشأ بين خؤولته وكان أصله من رامبور قرية جامعة من أعمال سهارنبور ، وقرأ الرسائل الفارسية على خاله محمد تقي والمختصرات في النحو والصرف على المولوي محمد بخش الرامبوري ، ثم سافر إلى دهلي وقرأ شيئاً من العربية على القاضي أحمد الدين الجهلمي ثم لازم الشيخ مملوك على النانوتوي وقرأ عليه أكثر الكتب الدرسية وبعضها على المفتي صدر الدين الدهلوي ، وقرأ الحديث والتفسير أكثر هما على الشيخ عبد الغني وبعضها على صنوه الكبير أحمد سعيد بن أبي سعيد العمري الدهلوي حتى برع وفاق أقرانه في المعقول والمنقول ورجع إلى كنكوه. وتزوج بخديجة بنت خاله محمد تقي ثم حفظ القرآن في سنة واحدة ، ثم أخذ الطريقة عن الشيخ الأجل إمداد الله بن محمد أمين العمري التهانوي ولازمه مدة ثم تصدر للتدريس بكنكوه .. وبعد ذكر بعض أحواله وأسفاره إلى الحجاز للحج والزيارة يقول : وكان قبل سفر الحجاز في المرة الثالثة يقرئ في علوم عديدة من الفقه والأصول والكلام والحديث والتفسير ، وبعد العود من الحجاز في المرة الآخرة أفرغ أوقاته لتدريس الصحاح الستة والتزم أن يدرسها في سنة واحدة وكان يقرئ جامع الترمذي أولاً ويبذل جهده فيه في تحقيق المتن والإسناد ودفع التعارض وترجيح أحد الجانبين وتشييد المذهب الحنفي ، ثم يقرئ الكتب الأخر : سنن أبي داود فصحيحي البخاري ومسلم فالنسائي فابن ماجة سردا مع بحث قليل فيما يتعلق بالكتاب ، ولم تكن له كثرة اشتغال بالتأليف ، وكانت أوقاته موزعة مضبوطة يحافظ عليها صيفاً وشتاء ، فإذا صلى الفجر اشتغل بالذكر والفكر في الخلوة حتى يتعالى النهار ثم يتطوع ويقبل على الطلبة وهم كبار العلماء والمحصلين يدرسهم في الفقه والحديث والتفسير واقتصر في آخر عمره على تدريس الصحاح الستة ، فلما كف بصره ترك التدريس وتوسع في الإرشاد والتحقيق وبعد ان ينتهي من التدريس يشتغل بكتابة الرسائل والردود يجيب المستفتين ، ولما عجز عن الكتابة لنزول الماء في عينية وكل كتابة الرسائل وتحرير الفتاوى إلى تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى بن إسماعيل الكاندهلوي وكان يحرص على ان ينتهي من كتابة الرسائل والفتاوى في يومها ، فإذا انتهى من الكتابة تغدى وانصرف يقيل ويستريح ، فإذا صلى الظهر اشتغل بتلاوة القرآن من المصحف وبعد ما كف بصره كان يتلو حفظاً ـ

بعض أكابر المشايخ ، وذلك مع الإهتمام الشديد على أداء الصلوات المفروضة مع الجماعة ،

= اشتغل بالدروس إلى العصر وكان يجلس للعامة بين العصر والمغرب ، فإذا صلى المغرب قام يتطوع ثم ينصرف إلى البيت ويكون مع عياله ويتعشى ، فإذا صلى العشاء ـ وكان يؤخره غالباً ـ انصرف إلى فراشه ينام ويستريح ، وكان هذا دأبه على مر الأيام ، وكان آية باهرة ونعمة ظاهرة في التقوى واتباع السنة النبوية والعمل بالعزيمة والإستقامة على الشريعة ، ورفض البدع ومحدثات الأمور ومحاربتها بكل طريق والحرص على نشر السنة وإعلاء شعائر الإسلام والصدع بالحق وبيان الحكم الشرعي ثم لا يبالي بما يتقاول فيه الناس ، لا يقبل تحريفاً ولا يتحمل منكراً ولا يعرف المحاباة والمداهنة في الدين ، مع ما طبعه الله عليه من التواضع والرفق واللين دائراً مع الحق حيث ما دار ، يرجع عن قوله إذا تبين له الصواب ، انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل ورئاسة تربية المريدين وتزكية النفوس والدعاء إلى الله وإحياء السنة وإماتة البدع ، وقد رزقه الله من التلاميذ والخلفاء ما يندر وجود أمثالهم في هذا العصر في الإستقامة على الدين واتباع الشريعة الغراء ونشر العلم النافع وإحياء السنن وإصلاح المسلمين ، ونفع بهم خلائق لا تحصى بحد وعد إلخ .

وقد بسط صاحب «النزهة» في ترجمته أيضاً وقال في آخرها في ذكر مصنفاته : وقد جمع تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى بن إسماعيل الكاندهلوي ما أفاد به في درسه الجامع الترمذي وطبع باسم : «الكوكب الدري» ، ودون ما أفاده في درس الجامع الصحيح ، ونشره ابنه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي مع تعليقاته وسماه : «لامع الدراري» .

كانت وفاته يوم الجمعة بعد الأذان لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة وألف .

وقال عنه العلامة المحدث الجليل والمجاهد الكبير الشيخ محمد يوسف البنوري في مقدمته على «لامع الدراري على جامع البخاري» بعد أن ذكر أحوال عدة من مشايخ الهند القدامى الذين انتشرت بهم العلوم الإسلامية في الهند وخصائصهم ، قال : وبالجملة ذلك الفهم الثاقب موهبة إلهية يخص بها من يشاء من عباده تنجلي به جهات من العلم ما لم تنجل بغرر نقول القدماء وجهابذة الأمة وأعيان العلم ، لا تجد هناك طولاً وعرضاً ولكن تجد عمقاً ، وربما يصدر من ذلك الفهم كلمة لطيفة لا توجد في مطاوي الأوراق ومطاوي المكاتب ، تنبثق من هذا النور علوم فياضة غزيرة ما لم تنبثق من كتب وأسفار ، فكان المحدث فقيه هذه العصور الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي الأنصاري رحمه الله جمع مع العلوم الرائجة علوم أرباب القلوب ووهب نوراً في القلب يلمع به ما أظلم على الناس ، فكان يأتي بتوجيهاته من مشكلات الفقه ومعضلات الحديث ما خلت عنها الأسفار الضخمة والمجلدات الكبيرة ، وكان موفقاً طيلة حياته المباركة لدرس الأمهات الست طوال النهار غير فترة قليلة في البين ، وبقي نصف قرن يدرس الحديث وكتب السنة لا يلحقه ملل ولا ضجر ولا سآمة ولا تعب ، مع اشتغاله بتربية النفوس وتصفية القلوب بالأذكار والتوجه ، فكانت نفسه الزكية تتجلى كل حين وهذا ما عدا إفتاء في النوازل والمسائل ، حيث كان مرجعاً في معضلات النوازل كما كان مرجعاً للإرشاد وتربية النفوس وتدريس الصحاح الستة في الأمهات ، انتهى .

ويقول عنه الداعية والمفكر الإسلامي الكبير الشيخ أبو الحسن الحسني الندوي في مقدمته البديعة على رسالة الشيخ محمد الثاني الحسني عن العلامة المحدث الكبير الشيخ خليل أحمد الأنصاري السهارنبوري ص ١٣ بعد أن ذكر أحوال علماء الهند العجيبة في خدمة الإسلام قال : وما هي إلا مدة قليلة إذ تولى زمام قيادة هذه الجماعة أحد العلماء الربانيين والشيوخ الكاملين وهو المحدث الجليل الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي الذي كان قد ورث من هذه الطوائف الأربع =

وأما الطريقة : فإن الحوض الكبير الكائن بجوار زاوية الشيخ الكنكوهي نور الله مرقده كان يرده حوالي خمسين أو ستين من الغسالين لغسل الملابس عليه آخر الليل ، فكانوا بدلاً من أن يتلفظوا بعبارات وجمل مهملة كعادة عامة أصحاب المهن عند التحمس : كان هؤلاء يهتفون مع كل ضربة في الغسيل باسم «الله» ويمتلئ الجو بصيحات : «الله .. الله» .

وإن هذا الفقير لم يتشرف بزيارة أحدٍ من أسرة الإمام «ولي الله الدهلوي» ، وإنما زرت الكثير من أكابر وأصاغر الطائفة الإمدادية .

لم أتمكن من زيارة سيد الطائفة الشيخ إمداد الله المهاجر المكي نور الله مرقده لأن وفاته كانت بعد ولادتي بسنتين تقريباً في ١٢ أو ١٣ جمادى الآخرة عام ١٣١٧هـ بمكة المكرمة ، وكذلك حجة الإسلام الشيخ النانوتوي [1] نور الله مرقده : فلم أتمكن أيضاً من

= (وقد ذكرها بالتفصيل فيما قبله) حظاً وافراً من العلم والدين واجتمع في شخصه أذواقهم واتجاهاتهم ، فبينما كان يجمع بين الشريعة والطريقة والفقه والحديث ونشر السنة ومحو البدعة وتدريس الحديث وشرحه ، وكان يتبوأ المنصب الأعلى في الربانية ويفوز بمكانة الإجتهاد فيها ، ويحن إلى الجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمة الله ، وكان يشرف على مدرستين كبيرتين هما دار العلوم ديوبند ، ومظاهر علوم سهارنبور ، وكان أستاذ الأساتذة وشيخ الشيوخ ، وبينما كان يتمتع بحظ وافر من التوجع للإسلام من الحب والذوق وكان يتناول الناس بالتربية الروحية الأمر الذي كان قد ورثه من مشايخ «الجشتية» الذين كان يتصل بهم بنسب روحي باطني ، إذ كان مثرياً بثروة الوقار والجدية والإستقامة على الشريعة واتباع السنة التي كان قد نالها من مشايخ النقشبندية الذين كان يتصل بهم عن طريق الإمام احمد بن عرفان الشهيد ، وبينما كان فقيها لهذا معترفاً به في الأوساط العلمية كلها ويفتي على المذهب الحنفي بوجه عام ، إذا هو محدث جليل له مكانة عالية في التحديث وشغف زائد به ، حتى أن قريته «كنكوه» كانت قد تحولت إلى مركز عظيم لطلاب علم الحديث ومتخرجي المدارس الإسلامية .. ثم قال : إن هذه الألوان المتعددة التي قد تبدو متعارضة اجتمعت في حياته جنباً إلى جنب ورغم انه كان يحب العزلة ولكنه كان شديد الإهتمام بالمسلمين وبإسلامهم وكان شديد الإتصال بالمؤسسات والمدارس الدينية التي كان قد اسسها أنصاره ومحبوه وتلاميذه للتعليم والتربية وللدعوة الإسلامية ... ثم قال : وقلما رزق عالم كبير ومرب جليل في عصره من الأتباع والخلفاء المخلصين ذوي العلم والفضل مطيعين منقادين من المعجبين به مثل ما رزق العلامة رشيد احمد الكنكوهي ، فاي تلميذ وخليفة من تلاميذه وخلفائه كان يتمتع بأحوال وفضائل بحيث يبدو انه متفرد بذلك ، فقد احيا الله تعالى بفضل جهودهم قلوب المسلمين وصقل عقولهم وزين اخلاقهم ممن لا يأتي عليهم الحصر وذلك في عصر كان الإلحاد والإنحراف ينبعث فيه مثل السحاب والفتن تمطر مثل الأمطار ، انتهى .

(١) قال الشريف الحسني في «النزهة» في ترجمته : «الشيخ الإمام العالم الكبير قاسم بن أسد علي بن غلام شاه بن محمد بخش الصديقي النانوتوي أحد العلماء الربانيين ولد بنانوته سنة ثمان واربعين ومائتين والف ، ودخل سهارنبور في صغر =

زيارته لأن وفاته كانت قبل ولادتي بما يقرب من ثمانية عشر سنة وذلك في ٤ جمادى الأولى عام ١٢٩٧هـ في ديوبند الحبيبة . وكذلك لم أتمكن من زيارة جدي الأمجد رأس الأتقياء مولانا الشيخ محمد إسماعيل (١) الجهنجهانوي ثم الكاندهلوي ثم الدهلوي لأنه قدس الله

= سنه ، وقرأ المختصرات على الشيخ محمد نواز السهارنبوري ، ثم سافر إلى دهلي واشتغل على الشيخ مملوك العلي النانوتوي وقرأ عليه سائر الكتب الدرسية ، ثم أخذ الحديث على الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي ولازمه مدة ، وأخذ الطريقة على الشيخ إمداد الله العمري التهانوي وصحبه واستفاض منه فيوضاً كثيرة ، واشتغل في المطبعة الأحمدية بدهلي للشيخ أحمد علي بن لطف الله السهارنبوري ، وكان الشيخ في ذلك الزمان مجتهداً في تصحيح «صحيح البخاري» وتحشيته ، ففوض إليه خمسة أجزاء من آخر ذلك الكتاب وكانت تلك الأجزاء عسيرة سيما في مقامات أورد فيها البخاري على أبي حنيفة ، فبذل جهده في تصحيح الكتاب وتحشيته وبالغ في تأييد المذهب حتى استوفى حقه .

وكان أزهد الناس وأعبدهم وأكثرهم ذكراً ومراقبة وأبعدهم عن زي العلماء ولبس المتفقهة من العمامة والطيلسان وغيرهما ، وكان في ذلك الزمان لا يفتي ولا يذكر ، بل يشتغل في ذكر الله ومراقبته حتى فتحت عليه أبواب الحقائق والمعارف فاستخلفه الشيخ إمداد الله المذكور ومدحه بأن مثل القاسم لا يوجد إلا في العصر السالف ، ثم تزوج بأمره الشريف وصعد المنبر بتكليف الشيخ مظفر بن محمود الكاندهلوي فذكّر أحسن تذكير . ثم قال : وله مشاهد عظيمة في المباحثة بالنصارى والآرية أشهرها المباحث التي وقعت ببلدة «شاهجهانبور» سنة ثلاث وتسعين وأربع وتسعين فناظر أحبار النصارى وعلماء الهنادك غير مرة فغلبهم وأقام الحجة وظهر فضله في المناظرة ، فصلها الشيخ فخر الحسن الكنكوهي في كتابه «أنصار الإسلام» وفي «كفتكوي مذهبي» وفي «مباحثة شاهجهان بور» وغيرها من الرسائل . ثم ذكر مصنفاته ، انتهى . وقال الإمام الشيخ أبو الحسن الندوي في حاشيته : في بحثه عن تأسيس جامعة دار العلوم بديوبند : ويستفاد من كتاب «سوانخ قاسمي» للشيخ مناظر أحسن الكيلاني رحمه الله : أن الحاج عابد حسن كان قد تفاهم مع مولانا محمد قاسم واتفق معه على تأسيس هذه المدرسة وأخبره بذلك في ميرت ، وطلب منه أن يأتي إلى «ديوبند» ويفتتح التعليم ، فاختار مولانا محمد قاسم الملا محمود الديوبندي مدرساً للمدرسة وعين له راتباً شهرياً مقدار خمس عشرة روبية فجاء إلى ديوبند وافتتح التعليم في «مسجد شتة» ، وهكذا كانت بداية مدرسة ديوبند التي أصبحت بعد مدة : كبرى المدارس الهندية ، وبعد مدة قليلة قدم مولانا محمد قاسم إلى ديوبند وتولى أمر المدرسة و وضع أساس بنايتها المستقلة» ع .

(١) هو جد شيخنا من أبيه ، ولد في جهنجهانه وهو موطن آبائه ، قال عنه الإمام الشيخ أبو الحسن الندوي :- الشيخ محمد إسماعيل من الذين اتفقت الألسنة على إخلاصه وصلاحه وزهده . وقال عنه الشيخ محمد الثاني الحسني في رسالته (العلامة المحدث الكبير خليل احمد) ص ١٠٣ : كان الشيخ إسماعيل رجلاً صالحاً تقياً وكان يدرس الأطفال في مسجد «بستي نظام الدين» ويقوم في حقل الدعوة والتبليغ بمسئولياته التي تعود إليه من قبل الدعوة ، وكان يمتاز بزهده و ورعه وتقواه وقد رزقه الله ثلاثة أبناء : أكبرهم محمد الذي كان حذو والده في التقوى والإنابة إلى الله وأوسطهم الشيخ محمد يحيى وأصغرهم الشيخ محمد إلياس الداعية إلى الله ومؤسس حركة الدعوة والتبليغ ، انتهى . وقد بسط في ترجمته الشيخ =

روحه توفي في دلهي بمسجد نواب والي في الرابع من شوال عام ١٣١٥هـ ، وذلك بعد ولادتي بما يقرب من عشرين يوماً .

وقد سمعت من الأكابر أنه حينما بلغ جدي هذا خبر ولادتي قال : «لقد جاء خلفنا فحان موعد ذهابنا» .

هؤلاء لم أتمكن من رؤيتهم المباركة ولكني سمعت من وقائعهم الكثير الذي لا يعد ولا يحصى .

وأما فخر المحدثين وشيخ مشايخ زمانه قطب الإرشاد الكنكوهي قدس روحه فقد زرته كثيراً ، لأن وفاته كانت بعد ولادتي بما يقرب من ثماني سنوات في الثامن من جمادى الآخرة عام ١٣٢٣هـ بكنكوه .

وأذكر أيضاً صورته المباركة جيداً وأذكر أيضاً أنه عندما كان الشيخ قدس الله روحه يجلس في فناء الزاوية متربعا فألف ذراعيَّ حول عنقه وأتعلق به ، وقد أكلت بمعيته كثيراً ، وأذكر جيداً ركوبي معه في هودجه الذي كان يتشرف بحمله مشايخ العصر على أكتافهم عند الذهاب إلى مصلى العيد ، وهذه الفترة تعتبر رفيعة جداً من حيث الشريعة والطريقة .

ثم بعده تشرفت بملازمة سيدي ومرشدي ومولاي الشيخ خليل أحمد [1] نور الله مرقده مسلسلاً من رجب ١٣٢٨ هـ إلى ذي القعدة ١٣٤٥هـ ما عدا السنة التي أقام فيها

= محمد الثاني الحسني في كتابه بالأوردية في ثماني صفحات ذكر فيها : علو مرتبه وشهرته بين الخلائق بالتقوى والورع واستجابة الدعاء ومواظبته خصوصاً على الأدعية والأذكار المأثورة عنه صلى الله عليه وسلم في جميع الأحوال ، وقد شهد له الإمام الكنكوهي قدس سرهما بالوصول إلى درجة الإحسان ، وذكر اهتمامه الشديد وحرصه على إصلاح وتعليم أهل الميوات امور الدين المتين وذكر جهوده المختلفة لذلك ، وقد توفي بدلهي في الرابع من شوال عام ١٣١٥هـ ودفن بجوار «مسجد بنكله والي» في نظام الدين بدلهي .

(١) قال الشريف الحسني في «النزهة» ج ٨ ص ١٣٣ : «الشيخ العالم الفقيه خليل احمد بن مجيد على بن احمد على بن قطب على بن غلام محمد الأنصاري الحنفي الانبهيتوي احد العلماء الصالحين وكبار الفقهاء والمحدثين ولد في أواخر صفر سنة تسع وستين ومائتين والف في خؤولته في قرية «نانوته» من اعمال سهارنبور ، ونشا ببلدة انبيته من اعمال سهارنبور ، ثم ذكر مفصلاً تعليمه على خاله الشيخ يعقوب النانوتوي وغيره بمدرسة ديوبند ومظاهر العلوم بسهارنبور ثم تعيينه أستاذاً مساعداً بعدما تخرج من مظاهر العلوم ، ثم بعد مراحل أستاذاً بدار العلوم بديوبند ، ثم توليه رئاسة التدريس في =

سيدي الشيخ بالمدينة المنورة وقد غادرها هذا العاجز في السادس عشر من ذي القعدة عام ١٣٤٥هـ ، وتوفي بعدها سيدي ومرشدي بالمدينة المنورة في السادس عشر من ربيع الثاني عام ١٣٤٦هـ .

= مظاهر العلوم واشتهار المدرسة به وقبولها وترقيها العظيم في عهده . كما ذكر بيعته للشيخ الإمام العلامة رشيد أحمد الكنكوهي ثم تشرفه بالحج والزيارة ولقياه بمكة المكرمة بالعارف الكبير الشيخ إمداد الله المهاجر وإجازته إياه في الطرق ، ثم إجازة الشيخ الإمام الكنكوهي أيضاً ، وأنه اختص به اختصاصاً عظيماً حتى أصبح من أخص أصحابه وأكبر خلفائه ، ومن كبار الحاملين لعلومه وبركاته والناشرين لطريقته ودعوته .

ثم قال : وعني بالحديث عناية عظيمة تدريساً وتأليفا ومطالعة وتحقيقاً وكان من أعظم أمانيه : أن يشرح سنن أبي داود فبدأ في تأليفه سنة خمس وثلاثمائة وألف يساعده في ذلك تلميذه البار الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي وانصرف إلى ذلك بكل همته وقواه وعكف على جمع المواد وتهذيبها وإملائها لا لذة له ولا هم في غيره .. ثم يقول : كان الشيخ خليل أحمد له الملكة القوية والمشاركة الجيدة في الفقه والحديث ، واليد الطولي في الجدل والخلاف ، والرسوخ التام في علوم الدين والمعرفة واليقين ، وكانت له قدم راسخة وباع طويل في إرشاد الطالبين ، والدلالة على معالم الرشد ومنازل السلوك والتبصر في غوامض الطريق وغوائل النفوس ، صاحب نسبة قوية وإفاضات قدسية وجذبة إلهية نفع الله به خلقاً كثيراً ، وخرج على يده جمعاً من العلماء والمشايخ ونبغت بتربيته جماعة من أهل التربية والإرشاد ، وأجري على يدهم الخير الكثير في الهند وغيرها : في نشر العلوم الدينية وتصحيح العقائد وتربية النفوس والدعوة والإصلاح ، من أجلهم المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس بن إسماعيل الكاندهلوي صاحب الدعوة المشهورة المنتشرة في العالم والمحدث الجليل الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي السهارنبوي صاحب «أوجز المسالك» و «لامع الدراري» والمؤلفات المقبولة الكثيرة . والشيخ عاشق إلهي الميرتي وغيرهم ، كان جميلاً وسيما مربوع القامة مائلاً إلى الطول أبيض اللون يفلت منه الحمرة .. وكان رقيق الشعور ذكي الحس صادعاً بالحق صريحاً في الكلام في غير جفاء ، شديد الإتباع للسنة نفورا عن البدعة كثير الإكرام للضيوف عظيم الرفق بأصحابه ، يحب الترتيب والنظام في كل شيء والمواظبة على الأوقات مشتغلاً بخاصة نفسه وبما ينفع في الدين متنحياً عن السياسة مع الإهتمام بأمور المسلمين والحمية والغيرة في الدين ، حج سبع مرات آخرها في شوال سنة أربع وأربعين من الهجرة (وبسط الشريف الحسني في ترجمته ، كما أفرد في ترجمته الشيخ محمد الثاني الحسني رسالة مستقلة تقع في مائة وخمس وعشرين صفحة نشرتها «دار عرفات» قلت : وشرحه لسنن أبي داود المذكور في النزهة قد تم بفضل الله وطبع أولاً بالهند بالحروف الحجرية ، ثم بالهند والقاهرة بالحروف الحديدية في عشرين مجلداً ثم نشرت منه طبعة ثالثة في بيروت والطبعة الرابعة على وشك الصدور ، فقد حظي بقبول عظيم عند الدارسين للحديث الشريف . (إلى هنا حرر حين الطبعة الأولى من هذا الكتاب وذلك عام ١٣٩٩هـ ، وقد طبعت منه بعد ذلك عشرات الطبعات من بلدان مختلفة وعن دور مختلفة ، حيث انه لم تحفظ حقوق الطبع بل جعلها شيخنا الإمام محمد زكريا المهتم به : عامة لجميع المسلمين جزاهم الله جميعاً خير الجزاء) .

وأما بالنسبة لعصر حضرة العلامة شيخ الهند [1] نور الله مرقده وأعلى مراتبه فقد لحقته ، لأن وفاته كانت في الثامن عشر من ربيع الأول من عام ١٣٣٩ هـ ثم إنه نور الله مرقده

(١) قال الشريف الحسني في «النزهة» ج ٨ ص ٤٦٥ في ترجمته : «الشيخ العالم الكبير العلامة المحدث محمود حسن بن ذو الفقار على الحنفي الديوبندي ، أعلم العلماء في العلوم النافعة وأحسن المتأخرين ملكة في الفقه وأصوله وأعرفهم بنصوصه وقواعده ، ولد سنة ثمان وستين ومائتين وألف في بريلي ونشأ بديوبند وقرأ العلم على مولانا السيد أحمد الدهلوي ومولانا يعقوب بن مملوك العلي وعلى العلامة محمد قاسم وعلى غيرهم من العلماء ، وصحب مولانا محمد قاسم المذكور مدة طويلة وانتفع به كثيراً حتى صار بارعاً في العلوم و ولي التدريس في المدرسة العربية بديوبند سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف ، ثم أخذ الطريقة عن الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي وكان يتردد إليه غير مرة في السنة وحصلت له الإجازة منه . حتى كبره موت الكبراء ، لقيته بديوبند غير مرة و وجدته ملازماً للعبادة والورع وقيام الليل والسداد في الرواية ، سريع الإدراك شديد الرغبة في المذاكرة بالعلم . ذا عناية تامة بالفقه وأصوله يحفظ متون الأحاديث ، وانتهت إليه رئاسة الفتيا والتدريس في آخر عمره.

وكان قد وضع خطة لتحرير الهند من حكم الإنجليز ، كان يريد أن يستعين فيها بالحكومية الأفغانية والخلافة العثمانية ، وهيأ لها جماعة من تلاميذه وممن يثق بهم من أصحابه ، وكان في مقدمتهم المولوي عبيد الله السندي وأرسله إلى أفغانستان ، وكان الإتصال بينه وبين تلاميذه وأصحابه في الحدود الشمالية وفي أفغانستان ، ولما تم لهم بعض ذلك ومهدوا الأرض للثورة واشتدت عليه الرقابة في الهند سافر إلى الحجاز سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مائة وألف .. ثم ذكر مقابلته للولاة والوزراء الأتراك في زيارته للمدينة المنورة وبعض أحوال إقامته بالحجاز وإحكام خطته لتحرير الهند هناك .

إلى أن قال : واكتشفت الحكومة الإنجليزية المؤامرة وعرفت قضية الرسائل الحريرية ، فصرفت عنايتها إلى القبض على زعيم هذه الحركة وقطب رحاها وكان الشريف حسين أمير مكة قد خرج عن الدولة المتبوعة العثمانية وثار عليها بتحريض الدولة الإنجليزية فأوعزت إلى الشريف بإلقاء القبض عليه وتسليمه إلى الحكومة الإنجليزية فألقي القبض عليه في صفر سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف ومعه المولوي حسين أحمد الفيض آبادي والحكيم نصرت حسين الكوروي والمولوي عزير كل والمولوي وحيد أحمد ، وسفّر هؤلاء في الثامن عشر من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف إلى مصر «ومنها إلى ما لطة» حيث وصلوا سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف ، وبسط الشريف الحسني في ترجمته أيضاً ، وذكر رجوعه من مالطة مكرماً مبجلا وكفاحه ونضاله ضد الإنجليز وكيف لقب «بشيخ الهند» ، وقال في آخره :كان مولانا محمود حسن آية باهرة في علو الهمة وبعد النظر والأخذ بالعزيمة وحب الجهاد في سبيل الله . قد انتهت إليه الإمامة في العصر الأخير في البغض لأعداء الإسلام والشدة عليهم ، مع ورع وزهادة وإقبال إلى الله بالقلب والقالب والتواضع والإيثار على النفس وترك التكلف وشدة التقشف ، والإنتصار للدين والحق وقيام في حق الله ، وكان دائم الإبتهال قوي التوكل ثابت الجاش سليم الصدر جيد التفقه جيد المشاركة في جميع العلوم العقلية والنقلية ، مطلعاً على التاريخ كثير المحفوظ للشعر والأدب ، صاحب قريحة في النظم واضح الصوت ، موجز الكلام في إفصاح وبيان ، تمتاز دروسه بالوجازة والدقة والإقتصار على اللب ، كثير الأدب مع المحدثين والأئمة المجتهدين لطيفاً في الرد والمناقشة .»

كان قد أقام عدة سنوات بجزيرة مالطا ولم أتشرف بالحضور لحضرته بديوبند قبل الأسر وبعده إلا قليلاً ، ولكن تشرفت بلقاء أحبابه وتلامذته وأكابر ديوبند كثيراً .

وأما عصر رأس الأتقياء والأصفياء العارف الكبير الشيخ عبدالرحيم (١) الرائي بوري فقد أدركت منه كثيراً لأن وفاته قدس سره كانت في الرابع والعشرين من ربيع الثاني عام ١٣٣٨هـ .

وأما ملحق الأصاغر بالأكابر حكيم الأمة ومجدد الملة التهانوي (٢) نور الله مرقده : فقد تشرفت بزيارته لمدة طويلة من الزمن ، لأن وفاته قدس سره كانت ليلة الثامن عشر من رجب ١٣٦٢هـ .

= تلوح على محياه أمارات التواضع والهم ، وتشرق أنوار العبادة والمجاهدة في وقار وهيبة ، مع بشر وانبساط مع التلاميذ والإخوان وكان قليل الإشتغال بالتأليف بالنسبة إلى غزارة علمه وكثرة درسه) ، انتهى .

(١) هو الإمام الجليل والقطب الشهير العارف بالله الشيخ عبدالرحيم بن أشرف على خان الرائي فوري – بايع على يد الإمام الرباني الكنكوهي قدس سره وكان من أجل خلفائه الذين قاموا بعده بنشر السنة السنية وقمع البدع والمنكرات وتوجيه الناس إلى ربهم والتمسك بدينه .

بسط الشيخ محمد عاشق إلهي الميرتهي في «تذكرة الخليل» بالأردوية في ترجمته وأكملها في ثلاثين صفحة ذكر فيها : «أنه قدس سره كانت سيرته أنموذجاً لسير الأوائل من السلف الصالحين فكان صورة مجسمة لشأن التفويض وغواصاً في بحر التوحيد الإلهي غارقاً في التسليم والرضا متفانياً في التوكل والاعتماد على الله ، كان عالماً متبحراً في العلوم الشرعية ولكن غلبت عليه الطريقة بحب الخلوة والإنزواء عن الخلق والإشتغال بالعبادة والإستئناس بالمحبوب الحقيقي ، كان عاشقاً للسنة النبوية في جميع أحواله ويستأنس خصوصاً بتعليم القرآن الكريم إذ هو الأصل لجميع العلوم الدينية ، فكان يحرص كثيراً على تأسيس المدارس القرآنية التي يهتم فيها بتدريس القرآن الكريم وحفظه ، ويتلألأ وجهه برؤية الصغار الذين يرتلون القرآن بالتجويد والتلفظ الصحيح ، كانت بجوار زاويته في البستان أيضاً مدرسة للقرآن الكريم ، وبسط الشيخ عن أحوال هذه المدرسة واهتمام الشيخ بها وبالوافدين إليها من طلبة العلم ، وذكر أنه كان يمتاز بالتواضع والإنكسار في جميع أحواله ذو خلق رفيع مع الجميع ولكن مع هذا كان شديد الكراهية للبدعة والأمور البدعية ، إذ كان من كبار خلفاء الإمام الكبير الكنكوهي قدس روحه كان حريصاً جداً على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولكن برفق ولين وحكمة ، كان دائم الفكر طويل الصمت ولكن إذا احتاج إلى الأمر بالمعروف أو الدعوة إلى الله تكلم فبسط وأجاد – وكان لكلامه تأثير غريب تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب – وقد استفاد منه خلق كثير جداً من أهل البنجاب وغيرهم ، عم فيضه بينهم ونفع الله به وبخلفائه وأحيى بهم السنن وأمات بهم البدع ، وتوفي قدس روحه في الرابع والعشرين من ربيع الثاني عام ١٣٣٨هـ براي فور من قرى سهارنبور ودفن بها .

(٢) قال عنه الشريف الحسني في «النزهة» ج ٨ ص ٥٦ : الشيخ العالم الفقيه أشرف على بن عبد الحق الحنفي التهانوي الواعظ المعروف بالفضل والأثر ، ولد بتهانة بهون قرية من أعمال مظفر نكر لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمانين =

وقد ذكرت مع اسمه لقب : «ملحق الأصاغر بالأكابر» : لأنه قد حصلت لسيدي حكيم الأمة نور الله مرقده البيعة والإجازة في السلوك من سيد الطائفة حضرة الشيخ الحاج إمداد الله العمري مباشرة ، لذلك فجميع مريدي ومجازي حكيم الأمة يرتبطون بسيد الطائفة بواسطة واحدة فقط ، هذا من ناحية الطريقة .

= ومائتين بعد الألف ، وقرأ المختصرات على مولانا فتح محمد التهانوي والمولوي منفعت على الديوبندي ، وقرأ أكثر كتب المنطق والحكمة وبعض كتب الفقه والأصول على مولانا محمود حسن الديوبندي المحدث ، وأكثر كتب الفقه والأصول وبعض الحديث على مولانا محمود ، والفنون الرياضية والمواريث على شيخنا السيد أحمد الدهلوي ، والحديث والتفسير على مولانا يعقوب بن مملوك العلي النانوتوي كلها في المدرسة العالية بديوبند .

ثم سافر إلى الحجاز فحج وزار وأخذ الطريقة عن الشيخ الكبير إمداد الله التهانوي المهاجر إلى مكة المكرمة وصحبه زمانا ، ثم رجع إلى الهند ودرس مدة طويلة في مدرسة جامع العلوم كانبور مع اشتغاله بالأذكار والأشغال حتى غلبت عليه الحالة فترك التدريس وسافر إلى أقطار الهند ، وراح إلى الحجاز مرة ثانية وصحب شيخه مدة ثم عاد إلى الهند ، وأقام بموطنه في آخر صفر سنة خمس عشرة وثلاثمائة وألف فلم يغادره إلا نادراً للتداوي أو الإضطرار ، وصار مرجعاً في التربية والإرشاد وإصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق يشد إليه الرحال ويقصده الراغبون في ذلك من أقاصي البلاد وأدانيها ، وانتهت إليه الرئاسة في تربية المريدين وإرشاد الطالبين والإطلاع على غوائل النفوس ومداخل الشيطان ومعالجة الأدواء الباطنة والأسقام النفسية ، وهو ملتزم لمكانه يقصد ولا يقصد ويؤتى ولا يأتي ، وللإقامة في زاويته والإستفادة من مجالسه قيود والتزامات يعقلها الطالبون ، لا يلتزم ضيافة القاصدين شأن الزوايا بل يقومون بذلك بأنفسهم ويخص بعض الفضلاء وخاصة الزائرين بالضيافة ، ومع ذلك يؤمه الطالبون من أنحاء بعيدة ويتحملون نفقاتهم ، وكانت أوقاته مضبوطة منظمة لا يخل بها ولا يستثنى فيها إلا في حالات اضطرارية ، وكان إذا انصرف من صلاة الصبح اشتغل بذات نفسه عاكفاً على الكتابة والتأليف منفرداً عن الناس لا يطمع فيه طامع إلى أن يتغدى ويقيل ، فإذا صلى الظهر جلس للناس يكتب الردود على الرسائل ويقرأ بعضها للناس ويتحدث إليهم ويؤنسهم بنكته ولطائفه وكان حديثه نزهة للأذهان وفاكهة للجلساء بحيث لا يملون ولا يضيقون ، ويكتب بعض الحجب والتعويذات ، فإذا صلى العصر انفرد عن الناس واشتغل بشئون بيته إلى أن يصلي العشاء فلا يطمع فيه طامع ، وقد كان من كبار العلماء الربانيين الذين نفع الله بمواعظهم ومؤلفاتهم ، وقد بلغ عدد مجالس وعظه التي دونت في الرسائل وجمعت في المجاميع إلى أربعمائة مجلس . وقد كان نفع كتبه ومجالس وعظه عظيماً في إصلاح العقيدة والعمل . واستفاد منها ألوف من المسلمين ورفض عدد لا يحصيه إلا الله العادات والتقاليد الجاهلية والرسوم والبدع التي دخلت في حياة المسلمين وفي بيوتهم وأفراحهم وأحزانهم لسبب الإختلاط الطويل بالكفار وأهل البدع والأهواء ، وقد كان له فضل كبير في تيسير الطريقة وتقريبها وتنقيح الغايات من الوسائل واللباب من القشور والزوائد .. وله مصنفات كثيرة ممتعة ما بين صغير وكبير وجزء لطيف ومجلدات ضخمة أحصاها بعض أصحابه فبلغت إلى نحو ثمانمائة ، منها : نحو اثني عشر كتاباً بالعربية .. وقد كان لكتابه «بهشتي زيور» الذي ألفه أصلاً لتعليم البنات وضمنه المسائل الفقهية التي تشتد إليها الحاجة رواج وذيوع قلما بلغها =

وأما من ناحية الشريعة : فإن لحكيم الأمة إجازة في الحديث الشريف من حضرة مولانا الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي أيضاً ، والشيخ الكنج مراد آبادي قد درس على سيدنا الإمام الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، إذ ذكر في رسالة «الأرواح الثلاثة بالأردوية» : إن الحكيم نعمت الله سأل الشيخ الكنج مراد آبادي نور الله مرقده : هل درس حضرتكم على يدي مولانا الشاه عبد العزيز ؟ فقال : نعم . فطلبت منه أن يسمع مني الحديث ويجيزني فأتبرك به ، فسمع مني بعض أحاديث المشكاة وقال : أجيزك ، وأكد عليه في العمل . انتهى .

= كتاب آخر من الكتب الدينية في هذا العصر وطبع مراراً كثيرة يصعب إحصاؤها . وكان مشكلاً منور الشبيه أبيض مشرب الحمرة ربعة من الرجال حسن الثياب في غير إسراف وتجمل ، حلو المنطق ، لطيف العشرة ، فيه دعابة مع مهابة و وقار وسكينة ورزانة ، كثير المحفوظ ، حسن الإستشهاد بالأبيات ، كثير الإنشاد لأشعار المثنوي لمولانا جلال الدين الرومي في المواعظ والمجالس في مجالها ، شديد العناية كثير الحسبة على أداء الحقوق إلى أصحابها وإصلاح المعاملات مع الناس ، لا يحتمل في ذلك تساهلاً وتغافلاً ، توفي إلى رحمة الله تعالى لست عشرة خلون من رجب سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وألف وقد بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة ودفن في «تهانه بهون» ، انتهى .

وقال الشيخ الجليل محمد تقي العثماني في مقدمته على «إعلاء السنن» المبسوطة وقد حرر ثمانية عشر صفحة في ترجمته : (كان رحمه الله من العلماء العباقرة الأفذاذ والدعاة البررة المخلصين الذين أناروا في الهند مصابيح التجديد باهرة الشعلة ساطعة النور وأخلصوا حياتهم لإعلاء كلمة الله وإحياء علوم الدين .. وكان حكيم الأمة الشيخ التهانوي رحمه الله أكثر الناس تأليفاً في عصره ولا يوجد في هذا القرن من يجاريه أو يدانيه في كثرة المؤلفات ، فإنه قد ترك خلفه نحو ألف كتاب مطبوع ما بين صغير وكبير ، وليس موضوع ديني يحتاج إليه المسلمون في هذا العصر إلا وله فيه كتاب أو رسالة أو موعظة مطبوعة .. ثم بسط الشيخ العثماني في تعداد كتبه ومؤلفاته المتنوعة في علوم التفسير والحديث والفقه والعقائد والتصوف والدعوة والإرشاد .

وقال العلامة المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثري في مقالاته التي تحدث فيها عن تناوب الأقطار في الإضطلاع بأعباء علوم السنة ، فبعد أن أشار إلى جهود علماء الهند وباكستان ومآثرهم في خدمة السنة المطهرة في القرون الأخيرة قال ما ملخصه : «وكذلك عني بهذا الأمر العلامة الأوحد والحبر الفرد شيخ المشايخ في البلاد الهندية المحدث الكبير والجهبذ الناقد مولانا حكيم الأمة محمد أشرف علي التهانوي صاحب المؤلفات البالغ عددها نحو خمسمائة مؤلف ما بين صغير وكبير (بل قد زادت مؤلفاته على ألف عند وفاته) فألف كتاب «جامع الآثار» في هذا الباب ويغني عن وصف هذا الكتاب ذكر اسم مؤلفه العظيم .. ثم ذكر العلامة الكوثري أمر الشيخ لابن أخته المحدث الناقد الشيخ ظفر أحمد التهانوي بتكملته بعد استيفاء أدلة أبواب الفقه مع الكلام على كل حديث وقال بعدها : والحق يقال : إني دهشت من =

وقد كان هذا العاجز يتمنى كثيراً أن يتشرف بالحصول على الإجازة (في الحديث الشريف) من حكيم الأمة التهانوي نور الله مرقده لكي أسعد بالسند العالي ، حتى أني ذهبت مرة لهذا الغرض بالذات إلى قرية تهانة بهون أيضاً ، ولكن في كل مرة كان يمنعني الحياء بأني بأي وجه أطلب منه إجازة الحديث الشريف ، وأنا ليس لدي من العلم شيء ، مع أن كثيراً ممن درسوا على يدي قد تشرفوا بالحصول على هذه الإجازة المباركة منه قدس سره ، ومن هذه الناحية يعتبر هؤلاء التلامذة النجباء أرفع سنداً مني .

ثم إني قد أدركت عصر شيخ الإسلام رأس المجاهدين سيدي الشيخ المدني [1] نور الله

= هذا الجمع وهذا الإستقصاء ومن هذا الاستيفاء البالغ في الكلام على كل حديث بما تقضي به الصناعة متنا وسنداً من غير أن يبدو عليه آثار التكلف في تأييد مذهبه ، بل الإنصاف رائده عند الكلام على آراء أهل المذاهب ، انتهى .

(١) قال عنه الشريف الحسني «في النزهة» ج ٨ ص ١١٥ : «الشيخ العالم الصالح المحدث حسين احمد بن حبيب الله الحنفي الفيض آبادي ولد في التاسع عشر من شوال سنة ست وتسعين ومائتين وألف بقرية «بانكرمنؤ» من أعمال «أناؤ» وتلقى مبادئ العلوم في «تانده» وسافر سنة تسع وثلاثمائة وألف وهو في الثالثة عشرة من عمره إلى المدرسة العربية «بديوبند» ومكث سبع سنين وقرأ فاتحة الفراغ واخذ الحديث عن العلامة محمود حسن الديوبندي وتفقه عليه ولازمه مدة طويلة ، وقصد«كنكوه» وبايع الإمام العلامة المحدث رشيد احمد الكنكوهي وهاجر والده إلى المدينة المنورة مع عياله سنة ست عشرة وثلاثمائه وألف فرافقه ، ولقي بمكة الشيخ الأجل إمداد الله التهانوي المهاجر إلى مكة المكرمة وهو شيخ شيخه ، واستفاد منه واحتظ بصحبته ، ودخل المدينة وأقام هناك على قدم صدق وإخلاص وتوكل وتقشف وطلبه شيخه العلامة رشيد أحمد إلى «كنكوه» سنة ثمان عشرة وثلاثمائة وألف ومكث سنتين وأجازه الشيخ ، ثم رجع إلى الحجاز سنة عشرين وثلاثمائة وألف وتصدر للتدريس في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم محتسباً متطوعاً ، يدرس في الحديث والتفسير والفقه يشتغل به من بعد قيام الليل إلى ما بعد العشاء ومكث إلى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف يزور في خلالها الهند ويحضر دروس شيخه العلامة محمود حسن ويعود إلى المدينة المنورة ، إلى أن سافر شيخه محمود حسن سنة ثلاث وثلاثين للحج والزيارة ودخل المدينة سنة أربع وثلاثين : فلازمه الشيخ حسين احمد وقدم مكة معه وكان ذلك في أثناء الحرب العالمية وخروج الشريف حسين وبغيه على الدولة المتبوعة العثمانية ومعه المولوي حسين احمد والمولوي عزيز كل والحكيم نصرة حسن الكوروي وغيرهم من اصحابه ، واسرهم ولاة الأمر في الحجاز وأسلموهم إلى الحكومة الإنجليزية فنقلتهم إلى «مصر» ثم إلى «ما لطة » حيث وصلوا سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين ولبثوا فيها ثلاث سنين وشهرين ومات الحكيم نصرة حسين «بمالطة» وجد الشيخ حسين احمد في خدمة أستاذه وفي العبادة والمطالعة وحفظ القرآن الكريم ، وصدر الأمر بإطلاق سراحهم لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة والف ، وعادوا إلى الهند مكرمين ، ومرض الشيخ محمود حسن مرضه الأخير فكان بجانبه يخدمه ويسهر عليه ، وأمره الشيخ بالتوجه إلى كلكته يشتغل استاذاً في المدرسة التي اسسها مولانا ابو الكلام وقد ساله أن يرسل أحد خاصته ، فآثر =

مرقده وأعلى الله مراتبه كثيراً ، لأن وفاته كانت في الثاني عشر من جمادى الأولى عام ١٣٧٧هـ بديوبند .

= الشيخ حسين أحمد رضا شيخه على هوى نفسه ، فلم يسافر إلا وفوجي بنبأ وفاته ، فعاد إلى «ديوبند» وقد دفن الشيخ ، وتوجه إلى «كلكته» واشتغل مدة في هذه المدرسة ، ثم انتقل إلى «سلهت» عاصمة ولاية «آسام» ومكث ست سنين يدرس الحديث الشريف ويربي النفوس وينفخ في الناس روح الأنفة والإباء وحب الحرية ، وانتفع به خلائق لا تحصى ، وحميت حركة التحرير والثورة السياسية في الهند فخاض فيها وأفتى بحرمة العمل في الجيش الإنجليزي وسجن في منتصف المحرم سنة أربعين وثلاثمائة وألف ، وحوكم في «كراتشي» محاكمة مشهورة وحكم عليه بسجن سنتين مع الإشتغال بالأعمال الشاقة وأطلق سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وألف .

ولما اعتزل الشيخ العلامة أنور شاه الكشميري شياخة الحديث في «ديوبند» وانتقل إلى «دابهيل» وقع الإختيار على الشيخ حسين أحمد رئيساً للمعلمين وشيخاً للحديث في دار العلوم ، فانتقل إلى ديوبند سنة ست وأربعين وثلاثمائة وألف واستقل بتدريس الحديث ورئاسة المدرسة ، فحافظت على شهرتها ومركزها وثقة الناس بها ، وشمر عن ساق الجد والإجتهاد في تدريس الحديث الشريف وفي بث روح النخوة والإباء في المسلمين ، وجمع بين التدريس والعمل في الحقل السياسي بهمة نادرة وقوة وإرادة ، وجال في الهند طولاً وعرضاً يحضر الحفلات ويلقي الخطب والمحاضرات ويتحمل مشاق السفر ويسهر الليالي وهو محافظ على أوقاته وأوراده ، يجهد نفسه ويحي ليله في المطالعة والتدريس مع بشاشة دائمة وتواضع مفرط وإكرام للوافدين وقضاء لحق الزائرين والسائلين . وبسط في ذكر جهاده وثوراته ضد الإنجليز حتى تحررت البلاد ، ثم قال : واعتزل الشيخ السياسة العملية بعد استقلال البلاد وعكف على الدرس والإفادة والدعوة إلى الله وتربية النفوس لا يتصل بالحكومة ورجالها ، حتى أنعم عليه رئيس الجمهورية في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف برتبة فخرية فرفض ذلك قائلاً : إنه لا ينسجم مع طريقة أسلافه . وبقي في «ديوبند» يدرس الحديث الشريف ويتجول في الهند يدعو المسلمين إلى التمسك بالدين واتباع الشريعة الغراء واقتفاء السنن النبوية وإصلاح الحال والإكثار من ذكر الله ، وقد عطف الله عليه القلوب والنفوس وغرس حبه في أهل الخير فأقبلوا عليه زرافات ووحدانا ، وتقاطر عليه الناس من كل صوب وانهالت عليه الدعوات وهو يتقبلها بقلب طيب ويتحمل في سبيلها المشاق .. حتى وافاه الأجل في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وألف ، وصلى عليه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في جمع حاشد لا يحصى ، ودفن بجوار أستاذه الشيخ محمود حسن الديوبندي والإمام محمد قاسم النانوتوي .

كان الشيخ حسين أحمد من نوادر العصر وأفراد الرجال صدقاً وإخلاصاً وعلو همة وقوة إرادة وشهامة نفس وصبر على المكاره ومسامحة للأعداء يشفع لهم ويسعى في قضاء حوائجهم ، وثبات على المبدأ ورحابة ذرع وسعة صدر وجمع للأشتات من الفضائل والمتناقضات من الأعمال ، له نزاهة لا ترتقي إليها شبهة ، وهمة لا تعرف الفتور والكسل واشتغال دائم لا يتطرق إليه الملل ، كانت له أوقات مشغولة منظمة ، وكان في آخر عمره غلبت عليه الحمية الدينية والغيرة للشرع والسنة النبوية فكان لا يتحمل تفريطاً فيها ، وقد تعتريه الحدة في ذلك ويعلو صوته ، ويشدد الإنكار على من خالف السنة أو استخف بشعائر الإسلام ، وكان شديد الحب لأساتذته ومشايخه شديد الغيرة فيهم ، وكان ينتقد =

وأما محسني إمام التواضع والإنكسار سيدي الشيخ مولانا الحاج الشاه [1]عبد القادر الراي بوري نور الله مرقده فقد عاصرته كثيراً جداً ، إذ أن وفاته كانت في الرابع من ربيع الأول سنة ١٣٨٢هـ بلاهور ، وقد تشرفت بالحضور في رحابه الكريمة كثيراً .

وقد أدركت من عصر العم المحترم إمام الدعوة والتبليغ سيدي الشيخ مولانا محمد إلياس [2]

= شيخ الإسلام ابن تيمية وينكر عليه فيما تفرد به من المسائل والآراء شديد الإنتصار للشيخ محيي الدين ابن عربي، وكان شديد البغض للإنجليز كشيخه محمود حسن شديد الحب والغض في الله .. إلخ ما ذكره مفصلاً في النزهة .

(١) هو الإمام الكبير والعارف الشهير الشيخ عبد القادر ابن الحافظ احمد السركودوي ثم الراي بوري ، حفظ القرآن الكريم في صباه وقرأ الكتب من مبادئ العلوم في وطنه ثم سافر وارتحل لطلب العلم فأقام لذلك بمدارس شتى منها جامعة مظاهر العلوم بسهارنبور ، ودرس الفقه والتفسير وبقية العلوم ، ثم بايع الشيخ الكبير عبد الرحيم الراي بوري ولازمه اربعة عشر سنة حتى توفاه الله سنة ١٣٣٧ هـ وفي هذه المدة خدم شيخه سفراً وحضراً ليلاً ونهاراً حتى كان من خلص خدامه وخلفائه ، وقد ناب منابه بعد وفاته في زاويته براي بور ، ووقف نفسه لإصلاح العباد وتزكية النفوس ، وكثرت رغبة الناس إليه ولم يزل يزداد أهل إرادته من العلماء والعامةحتى طار صيته واشتهر اسمه في القرى والأمصار وارتحل إليه الصغار والكبار ، وكان لمجلسه وصحبته تأثير عجيب فلا يزال يجالسه شخص مدة يسيرة إلا ويجد نفسه توافة لذكر الله ومناجاته وترغب إلى الآخرة وتزهد عن الدنيا ، وكان نور الله مرقده يمتاز بالتواضع وفناء الذات في ذكر الله ومناجاته ومحبته ، و ورث عن شيخه حبه لنشر القرآن الكريم والترغيب في تأسيس المدارس لذلك ، وكان شديد المحبة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشديد الكراهة والانكار على من يبغضهم ، وبتقسيم البلاد إلى الهند وباكستان انقسم مريدوه فاتخذ من راي بور مركزاً وكان يسافر بين الحين والحين إلى باكستان بإصرار من مريديه ومحبيه ، حتى توفاه الله تعالى في أثناء سفرة من هذه في لاهور بباكستان في وسط ربيع الأول سنة ١٣٨٢ هـ ةدفن في موطنه «دهوديان» من اعمال سركودها .

(٢) هو الإمام الجليل والداعية الشهير العارف بالله مؤسس «جماعة التبليغ» المنتشرة في آفاق العالم كلها ، ولد قدس سره سنة ١٣٠٣هـ وسمي بإلياس أختر «وهو اسمه التاريخي» ولكنه اشتهر بمحمد إلياس ودرس على أخيه الشيخ المحدث الجليل محمد يحيى الكاندهلوي فاخذ عنه التفسير والحديث والفقه وبقية العلوم باتقان تام وإمعان كامل ، وسمع صحيح البخري وسنن الترمذي من العلامة المجاهد شيخ الهند محمود حسن الديوبندي عدو الإنجليز اللدود ومحاربهم ، وقد بايعه الشيخ محمد إلياس على القتال (بيعة الجهاد) .

واقام لدى الإمام رشيد احمد الكنكوهي اكثر من عشر سنين بعد مبايعته في السلوك في صباه ، يرتشف العلم من اخيه الشيخ محمد يحيى ويعمر باطنه بأنفاس الإمام الكنكوهي وتربيته .

وبعد ارتحال الإمام الرباني الكنكوهي إلى جوار رحمة ربه العلي سنة ١٣٢٣ جدد البيعة على يد اكبر خلفائه الإمام العلامة العارف الشيخ خليل احمد المحدث السهارنبوري ، ولم يزل يستفيض من نفسه الكريمة وأنفاسه الشريفة حتى أناره الله ظاهراً وباطناً لتزين ظاهره بالشرع المتين وباطنه بالطريق القويم ، وقد قام بالتدريس في جامعة مظاهر العلوم سنين =

كثيراً كذلك ، لأن وفاة العم الكريم كانت في الحادي والعشرين من رجب عام ١٣٦٣هـ .

= عديدة ، وبعد وفاة أخيه الشيخ مولانا محمد الكاندهلوي انتقل إلى كورة حضرت نظام الدين بدلهي ليقوم بأعباء المدرسة التي كان قد أسسها والده مولانا الشيخ محمد إسماعيل ثم رقاها أخوه الشيخ محمد ، ثم ألقى الله في روعه أن يقوم بإصلاح عباد الله ودعوتهم إلى الدين وأن يبذلوا جهودهم وأموالهم ويتركوا أوطانهم لإصلاح أنفسهم ودعوة العباد إلى الله فاجتهد لذلك اجتهاداً مريراً ، يجول في الصحاري والبراري والقرى والمدن راكباً وماشياً بكل إخلاص وفراغ قلب ، يريد أن يصل إلى عامة المسلمين ويحرضهم ويوقظهم من غفلتهم ، يتملق إلى كل واحد منهم حتى وإن كان من كان ، يدعوه ليقوم معه لدين الله ويتحمل إيذاء الناس وسخريتهم وغير ذلك من المصائب والآلام التي ما زالت تأتي على الصديقين من أولياء الله الصالحين ، فلا هم له ولا مطلب من أي حركة أو علم إلا إيقاظ الناس من غفلتهم وتحريضهم على التضحية والعمل لدين الله ، هذا مع كونه نحيف الجثة ضعيف البنية قصير القامة لو رأيته وجدته أن ليس فيه إلا عدة عظام في جلد لا لحم فيه ، أقر الله عينه في آخر حياته فشاركه في عمله هذا تلاميذه وأصحابه ومريدوه وخاصة نجله العظيم الفريد في الخصال الحميدة الإمام العلامة الجليل الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ، فانتشروا كلهم في الآفاق وزادت الجماعة ولازالت في زيادة مستمرة تنشر الخير وتضيء في الظلمات لخلق الله حتى يرجعوا إلى ربهم ، وكان الشيخ قدس سره أبيض اللون يشعشع نور الولاية من جبينه الأزهر تمتلئ القلوب لرؤيته محبة لجمال باطنه ورعبا لكماله وتقواه من ربه ، وكان عابداً زاهداً قانتاً خاشعاً جواداً كريماً حليماً وقوراً صبوراً مجتهداً في الأعمال الصالحة ، يقوم الليل بمواظبة مجداً في الدعوة والتبليغ ، تظهر الهمة العلياء من هامته وتطفح العزيمة من جبينه ، شديد الإتباع لهدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حريصاً عليه في جميع الأحوال والأحيان ، قوي الرابطة به وشديد المحبة لأصحابه رضي الله عنهم كثير الحكاية عنهم ، وقد أمر ابن أخيه شيخنا الشيخ محمد زكريا أن يكتب رسالة خاصة في حكاياتهم رضي الله عنهم ليتداولها المسلمون عامة حتى يتعرفوا عليهم رضي الله عنهم ، كان كلامه حكمة ومعرفة كلها نور وبرهان ، وقد جمع الإمام الشيخ أبو الحسن الندوي بعضها في رسالة مستقلة بالأردوية .

توفي رحمه الله في سنة ١٣٦٣هـ وخلف بعده ابنا هو الإمام العلامة الجليل الشيخ محمد يوسف صاحب «حياة الصحابة» و«أماني الأخبار» . وابنة تزوجها العلامة الكبير شيخ المشايخ الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، وصدقة جارية لا مثيل لها هي جماعة منتشرة في أنحاء العلم أجمع ، تعمل ليلاً ونهاراً لإحياء دين الله على نهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقال شعراً بالأوردية ترجمته بالعربية :

١ – إن أصحاب هذه الأجساد النورانية هم الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وهؤلاء هم ورثة الأنبياء ، وهؤلاء هم ظل الرحمن جل شأنه .

٢ – هؤلاء الذين لنومهم فضيلة على العبادات ، وهم الذين يباهي بتقواهم المسلمون .

٣ – هؤلاء هم الذين تليق بشأنهم وراثة النبوة ' وهؤلاء هم الذين جل همهم الإعتناء بالشعائر الدينية .

٤ – يعيشون في الدنيا وليست لهم بها أية علاقة ، فيمشون في النهر ولا يمس أبدا الماء ثيابهم .

٥ – إن جلسوا في الخلوة تلذذوا بطعم الخلوة ، وإن جاءوا إلى جلوتهم خرص لهم المتكلمون .

وقد وضحت عصور هؤلاء الأكابر كلهم قدس الله أرواحهم : لأن ببركة شموس الهداية هؤلاء كانت كل من منطقة «دوآبه» مركزاً لكل من الشريعة والطريقة .

وكان مستحكما في بال كل شخص ببركتهم : أن كلا من الشريعة والطريقة متلازمة للأخرى . وكان كل واحد من هؤلاء الأكابر نور الله مراقدهم مصداقاً حقاً لقول الشاعر الفارسي :

بركفي جام شريعت بركفي سندان عشق
هر هوسناكى نداند جام وسندان باختن

لذلك فقد كان راسخاً في القلب منذ الطفولة وجود العلاقة الوثيقة والتلازم اللابدي للشريعة والطريقة لدرجة أنه كان لا يلتفت إلى أي شئ بخلاف ذلك . وهذه قاعدة مسلمة : أن الشيء الذي يرسخ في القلب من الصغر فإنه يكون «كالنقش في الحجر» ، فإن وجود

لدوغ الحية وافتراس الأسد يتيقن به كل شخص بحيث أنه يصعب جداً إخراج هذا اليقين من القلب . مع أن أكثر الناس لم يشاهدوا الحية وهي تلدغ ، ولا الأسد وهو يفترس .

وبعد ذلك في زمن طلبي للعلم عند دراستي لمشكاة المصابيح . (وهو عامة أول كتاب يدرس في مادة الحديث الشريف بمدارس الهند وباكستان وبنغلاديش) وفي بدايته قرأت في حديث جبريل المعروف «وكان لتعليم الأمة أمر دينها» بعد الإيمان والإسلام مباشرة قوله : «وما الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن .. إلخ» هذه هي «الطريقة» وهذا هو «التصوف» وهو «السلوك» بعينه .

ومهما سمي هذا «الفن الشريف» فإن كل ذلك داخل فيه كما سأذكر ذلك مفصلاً في ذيل (الطريقة) إن شاء الله .

وبعدها كلما درست ودرست في كتب الحديث الشريف أخذ يزداد رسوخاً وثبوتاً في القلب : الربط الوثيق والتلازم بين الشريعة والطريقة ، بحيث لو بلغني عن أحد شيء في خلاف أحد منهما ظننته جهلاً منه أو تجاهلاً ، فإن الشريعة المطهرة التي مأخذها : (القرآن الكريم ، وتفسيره : أفعال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وأقواله ، ولب لبابه : الفقه) ، ما بلغني شئ بخلافه إلا ورأيته مما لا يلتفت إليه ولا يعبأ به البتة .

وعندما كان يبلغني قول بعض الجهلة عن العلوم الدينية أن : ما تفهمه من القرآن الكريم مباشرة بفهمك هو الأصل ولا حاجة في ذلك إلى كتب التفسير وغيرها : كنت أراه هراء ونوعاً من الجنون ، لأنه لو كان الأخذ من القرآن مباشرة أمراً سهلاً ميسوراً لما كانت هناك حاجة إل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما كان علقت نسخة من المصحف الشريف في وسط الكعبة المشرفة فأخذ الناس منه مباشرة . فإن من أعظم أسرار بعثة الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام : أنهم يعرضون للخلق الأوامر الإلهية بالصورة العملية .

ومن فضل الله الكريم وله الحمد والشكر سبحانه وتعالى : أنه لم يشتبه عليَّ في هذا الشأن قط ، بل إن كثيراً من المسائل والفروع قد رسخت في الذهن بناء على ذلك بحيث

لم يبق فيها أي إشكال أو غموض .

فإن النبي صلى الله عليه وسلم جاءت ذاته الشريفة لعرض الشريعة بالصورة العملية ، لذلك فإن كل تلك الأشياء التي لم تكن منافية لشأن النبوة صدرت منه صلى الله عليه وسلم شخصياً : كعدم استيقاظه صلى الله عليه وسلم مع جماعة من الصحابة لصلاة الصبح ليلة التعريس ، مع أن بعض عبيد عبيد عبيدهم يقول : إنه من بعد أخذ البيعة على شيخه تبدأ معه من الساعة الثانية بعد نصف الليل حكحكة في جسمه بحيث لا يستطيع بسببها النوم بعدها (فلم يفته التهجد من بعد البيعة إلى الموت) .

وقد اختلف المحدثون في أن قصة نومه صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر كانت مرة واحدة فقط أم عدة مرات ؟ وقد بسطت ذلك في «الأوجز» (١) ، وفي رأيي : أن ذلك وقع له صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات .

وفي القصة شئ يتعلق بالتصوف أيضاً : فإنه لم تكن عادته الشريفة صلى الله عليه وسلم أن يسأل قبل المنام أنه من يوقظنا ؟ وقد ذكر في هذه القصة كما في البخاري : «عن عبد الله ابن أبي قتادة عن أبيه قال : سرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فقال بعض القوم : لو عرست بنا يا رسول الله ، قال : أخاف أن تناموا عن الصلاة ، قال بلال : أنا أوقظكم ، الحديث» وفي القصة مسألتان في السلوك : أولاهما : قوله صلى الله عليه وسلم : «أخاف أن .. إلخ» مع أن عامة العرب كانت تسافر أول الليل ويستريحون آخره . فلم قال في هذه الليلة بالذات : «أخاف أن .. إلخ» ؟ علمنا من ذلك أنه بعض الأحيان تنكشف لقلوب المشايخ بعض الحقائق المتعلقة بالمستقبل أو يظهر لهم شيئاً منه .

وثانيهما : قول بلال رضي الله عنه : «أنا أوقظكم» فذكر في الأوجز : قال المشايخ : هذا كان تنبيها لبلال إذ لم يفوض الأمر إلى الله إذ أظهر خوف فوت الصلاة نبيه صلى الله

(١) «أوجز المسالك إلى موطا مالك» شرح نفيس لكتاب السنة الأول (موطا مالك) طبع في خمس عشرة مجلد كبار ، يعد موسوعة حديثية كبرى من نوادر المصنفات تظهر منه مكانة شيخنا الرفيعة وباعه الطويل في هذا الفن الشريف . نشرته المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة وغيرها من دور النشر في مختلف الدول .

عليه وسلم فقال : أنا أوقظكم .

ولكن فيه إشكال : أنه عند أكثر العلماء وقعت القصة عدة مرات وهذا القول من سيدنا بلال رضي الله عنه لم يثبت إلا مرة واحدة ؟ والجواب ظاهر وهو: أن هذه المرة حصل بسبب قول بلال ، وأما في المرات الأخرى فبأسباب أخرى .

وكذلك لم تشكل عليَّ الأحاديث التي فيها أنه صلى الله عليه وسلم حصل له النسيان في الصلاة لأنه صلى الله عليه وسلم قد قال بنفسه : «إني لا أنسى ولكن أنسَّى لأسن» . وقد بسطت على هذا الحديث في «الأوجز» في «باب العمل في السهو» .

وكذلك ما صدر من المعاصي الكبيرة من بعض الصحابة رضي الله عنهم : لم يختلج في قلبي منها أي شيء أبدًا مع أن المشايخ الكبار بعيد جداً أن تصدر منهم أمثال هذه المعاصي ، هذا وإن أكبر شيخ وأعظم ولي لا يمكن أن يبلغ إلى درجة أدنى واحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولكن بفضل الله وكرمه لم تشكل علي هذه الرويات أبداً ، وببركة تعالى الأكابر وببركة الأحاديث الشريفة دائماً كان في فكري : أن هذه الأفعال صدرت منهم رضي الله عنهم تكوينيا لتكميل تعليم الدين .

قال الشاعر بالأردوية : «تو مشق نازكر خون دو عالم ميرى كردن بر» أي «تعال يا حبيبي واقتل العالم كله واجعله على رقبتي» ، فإن هذه الأنفاس القدسية والذوات الكريمة قدمت أنفسها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة بلسان حالها : هاكم كَمِّلوا شريعتكم المطهرة فإننا مستعدون بأن ترجم أجسادنا وتقطع أيدينا وتجلد أبداننا وتقام علينا حدود الله حتى يكتمل عرض الشريعة الغراء بالصورة العملية .

وعندي : أن هؤلاء السادة (الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين) هم مصداق الآية الكريمة في القرآن ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ ﴾ وهؤلاء هم مصداق تلك الأحاديث الشريفة التي ورد فيها أن بعضهم يقال له : أعطوه بدل كل سيئة حسنة .. الخ .

فقد روي عن أبي ذر رضي الله عنه كما في صحيح مسلم أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها رجل يؤتى به يوم القيامة» (ولا يكون المراد في مثل هذا المقام شخصاً معيناً وإنما يكون المراد طبقة ، كل فرد منها يجازى بمثله كما يدل على ذلك أن الرواية الأخرى فيها لفظ «الناس» بدل لفظ «رجل» وهو صريح فيما ذكرناه) فيقال : «اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملت يوم كذا كذا وكذا وعملت يوم كذا كذا وكذا ـ فيقول : نعم ـ لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه – فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا – فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه» .

وفي رواية أخرى أخرجها ابن كثير عن ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا (أي تمنوا في نفوسهم) أنهم قد استكثروا من السيئات» .

وكذا أخرج عن سلمان رضي الله عنه قال : «يعطي الرجل يوم القيامة صحيفة فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات» ، انتهى .

وهنا أمر مهم جداً وهو : أن هذا من قبل المنحات الملكية ، كأن يعفى القاتل من الشنق أحياناً بالمنحة الملكية (في الدساتير الوضعية) ولكن لا يجرؤ أحد على القتل على أمل أن ينجو من الشنق بالمنحة الملكية .

ولكن بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم فإني موقن بأن جميعهم إن شاء الله داخلون في هذا ، لأن تفصيل قصص معاصيهم الواردة في الأحاديث تدلك على أنهم يستحقون هذه المنح الملكية .

انظر سيدنا ماعزا رضي الله عنه يصدر منه الزنا ، فيأتي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويقول : يا رسول الله : طهِّرني وأقم علي كتاب الله ، والرسول صلى الله عليه وسلم

يرده ويعرض عنه ويقول له : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه ، فيذهب عنه قليلاً ثم يضطرب ويرجع ويعيد ما قاله ، فيعرض عنه صلى الله عليه وسلم كما أعرض في الأولى ، ويأمره بالرجوع والإستغفار والتوبة إلى الله ، وهكذا .. أربع مرات .. الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويأمره بالإستغفار ويعيده ، وهو يرجع في كل مرة ويقول له : طهِّرني يا رسول الله ، وبعد المرة الرابعة يأمر برجمه وعلى القواعد الشرعية .

وبعدها يأتي رجلان من الصحابة ويقول أحدهما لصاحبه : أنظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ، فسكت عنهما (أي الرسول صلى الله عليه وسلم) ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال : أين فلان وفلان ؟ فقالا : نحن ذان يا رسول الله ، قال : أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا : يا نبي الله من يأكل من هذا ؟ قال : فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشد من الأكل منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها ، وفي بعض الروايات كما في مسلم : أنه صلى الله عليه وسلم قال عنه : «لقد تاب توبة لو قسمت بين مائة لو سعتهم» .

وهكذا أنظر قصة المرأة الغامدية رضي الله عنها : تأتي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وتقول له : يا رسول الله طهِّرني ، فيقول لها : ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه ، فتقول رضي الله عنها : أراك تريد أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك ، قال : وما ذاك ؟ قالت : إنها حبلي من الزنا ، فقال لها : حتى تضعي ما في بطنك . فرجعت حينئذ وأتت بعد ولادته ، فردها صلى الله عليه وسلم حتى ترضعه وتفطمه فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز ـ ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم برجمها وحسب القواعد الشرعية ـ وعند الرجم يأتي خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال : مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، رواه مسلم وغيره . قال النووي في شرح مسلم : فيه أن المكس من أقبح المعاصي والذنوب الموبقات وذلك لكثرة مطالبات الناس وظلاماتهم وغير ذلك .

وفي بعض هذه الروايات لمسلم : أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم : تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ؟

وقد وردت في «كتاب الحدود» في كتب الحديث روايات عديدة لهذه القصص.

هل فينا أحد مهما عظم مقامه من يضطرب هذا الإضطراب على ارتكاب المعاصي ؟ يقول سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا أي بيده فذبه عنه ، (رواه البخاري ، كذا في المشكاة) .

إن الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة يعلم معاصي الجميع وأحوالهم التي يكونون عليها بعد ارتكاب المعاصي ، وترى أن الله سبحانه وتعالى مع صدور بعض المعاصي منهم يصدر في شأن الصحابة رضي الله عنهم قرارات في أماكن شتى من كتابه العزيز بالرضا عنهم منها : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

ونقل في «الدر المنثور» عن ابن زيد في تفسير قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ أنه قال : هم من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة .

لذلك فإن الطعن في الصحابة رضي الله عنهم أو المشايخ العظام أو إساءة الأدب معهم إذا صدرت منهم معصية ما : يسبب الحرمان والعياذ بالله . لأن الله تعالى راض عن هؤلاء وأنت ساخط عليهم .

وقد وردت في القرآن العزيز آيات عديدة فيها بشارات الرضوان والمغفرة للصحابة رضي الله عنهم ، وهذه المعاصي يعلمها أيضاً علام الغيوب ـ ولكن الله أعلم بأحوالهم

سبحانه فبشرهم مع وجود هذه المعاصي و وعدهم بالمغفرة ودخول الجنة والرضوان عليهم ، فالطعن في الصحابة أو إساءة الأدب معهم والحال هذا : يعتبر جرأة عظيمة وحماقة مهلكة .

وأشد منه : أن يتجرأ أحد بحجة ابتلاء هؤلاء السادة بهذه الهفوات : على ارتكاب المعاصي ، لأن العفو عنهم رضي الله عنهم قد ثبت بالآيات القطعية الصريحة فالوقوع في المعصية بحجة وقوعهم فيها مهلكة عظيمة وطامة كبرى ، يقول الباري جل شأنه عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقد فسر الفسوق : بالمعصية الكبيرة ، والعصيان بالصغيرة ، فالصحابة رضي الله عنهم قد عفي عنهم الكبائر والصغائر إن شاء الله ، فالطعن فيهم لمعاصيهم خطر عظيم ، والجرأة على المعصية بحجة ابتلائهم بها أخطر وأهلك .

قبيل فتح مكة اطلع حاطب بن بلتعة أهل مكة بغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم في رسالة أرسلها ، وعثر على هذه الرسالة ، فغضب عمر رضي الله عنه «وكان له ذلك» فقال : ائذن لي يا رسول الله فأضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : «إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله نظر إلى أهل بدر فقال : إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي الحراني رحمه الله في العقيدة الواسطية ص ١٤٢ ما لفظه : (ومن أصول أهل السنة والجماعة : سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله به في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله : «لا

تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل . ويقدمون المهاجرين على الأنصار ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بل لقد رضي الله عنهم وضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة .. ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون : إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه ، والصحيح منه : هم فيه معذورون ، إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون ، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة ، لهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر حتى أنهم يغفر لهم السيئات مالا يغفر لمن بعدهم ، لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم .. ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له سابقته أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق الناس بشفاعته ، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه ، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين : إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد . والخطأ مغفور ، ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح ، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقيناً : أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم . وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله ، انتهى .

وما ذكره شيخ الإسلام هنا حق وعدل ـ فالآيات القرآنية قد وردت بكثرة في بيان مناقب وفضائل هؤلاء السادة النجباء وفي بيان المغفرة لهم وتكفير السيئات عنهم رضي الله

عنهم اجمعين ، يقول عـز وجـل : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ويقـول أيـضاً : ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ ومثل هذه الآيات التي فيها ذكـر المغفرة لهؤلاء الكرام والتكفير عن سيئاتهم حتماً بصيغة التأكيد كثيرة ، ولكن مع الأسف نجد أن بعـض الحمقي يتبجحون في حقهم وعلى المثل الهندي : (المدعي كسلان والشاهد نشيط) ويتقولون عليهم أنهم ..وأنهم ....

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل : من عادي لـي وليـاً فقـد آذنته بالحرب ، ومن أحق من الصحابة بولاية الله عز وجل ، ويقـول صـلى الله عليـه وسـلم أيضاً : «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً (أي للطعن فيهم) من بعدي ، فمن أحـبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، من آذاهم فقد آذانـي ، ومـن آذانـي فقـد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه» .

يقول الإمام الحافظ أبو عبد الله الذهبي الشافعي رحمه الله تعالى في كتابه «الكبائر» : وإنما يعرف فضائل الصحابة رضي الله عنهم من تـدبر أحـوالهم وسـيرهم وآثـارهم في حيـاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد موته من المـسابقة إلى الإيمـان والمجاهـدة للكفـار ونـشر الدين وإظهار شعائر الإسلام وإعلاء كلمة الله ورسوله وتعليم فرائضه وسننه ولولا هـم مـا وصل إلينا من الدين أصل ولا فرع ، ولا علمنا من الفرائض والسنن سـنة ولا فرضـاً ، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئاً .

فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين ، لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم وإضمار الحقد فيهم وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم ، وما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم ، ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور والوسائط من المنقول ، والطعن في الوسائط طعن في الأصل ، والإزدراء بالناقل ازدراء بالمنقول ، وهذا ظاهر لمن تدبره وسلم من النفاق ومن الزندقة والإلحاد في عقيدته ، وحسبك ما جاء في الأخبار والآثار من ذلك كقول النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله اختارني واختار لي أصحاباً ، فجعل لي منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً ، فمن سبهم : فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً» .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نُسبُّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» .

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله اختارني واختار لي أصحابي وجعل لي أصحاباً وإخواناً وأصهاراً وسيجئ قوم بعدهم يعيبونهم وينقصونهم فلا تواكلوهم ولا تشاربوهم ولا تناكحوهم ولا تصلوا عليهم ولا تصلوا معهم» ، انتهى .

وقد ذكر الحافظ الذهبي رحمه الله روايات أخرى أيضاً في كتابه «الكبائر» ونقل عن العلماء قولهم : من ذم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وتتبع عثراتهم وذكر عيباً وأضافه إليهم كان منافقاً .

وهذه الرسالة المختصرة لا يمكن أن تحصي كل الآثار التي وردت فيمن طعن في الصحابة رضي الله عنهم أو أظهر معايبهم أو نشرها أو انتقصهم .

وكذلك والحمد لله لم يختلج في قلبي شيء من ناحية الروايات المتعلقة بقصة «فدك» وكم بلغ سمعي من الإشكالات والإعتراضات المتعلقة بها ، ولكني كنت دائماً أفكر أن : بضعة الرسول صلى الله عليه وسلم التي قضت أيامها في حياة والدها زاهدة قانتة متنزهة عن

زخارف الدنيا وشهواتها تتحمل الشدائد بنفسها حتى تأثر جسمها الشريف من حملها قرب الماء هل يعقل ويتصور من مثلها رضي الله عنها : أنها تنكب على حطام الدنيا بعد والدها حتى أنها تترك لأجله مكالمة الخليفة الصديق رضي الله عنه ؟ .. حاشا لله .

إن هذه المخاصمة بين الزهراء والصديق رضي الله عنهما وكذا بقية مشاجرات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين بقي صدري منشرحاً بالنسبة لها جميعاً : أنها كلها كانت مظهراً للقوة الإيمانية الكامنة في قلوب أصحابها .

فالسيدة فاطمة والسادة علي والعباس رضي الله عنهم ما كان يقربهم حبُ الدنيا الزائفة . وكيف يتصور مع أننا نجد أن عبيد عبيدهم تكون قلوبهم خالية منه بل ومبغضة إياها .

وإنما هذه المشاجرات كلها كانت : إيمانية إعتقادية علمية . فالمسألة هي : أنه هل يورث الأنبياء أم لا ؟

الشيخان : الصديق والفاروق رضي الله عنهما كانا يريان العموم في قوله : «ما تركنا صدقة» . وهؤلاء السادة كانوا يرون فيه : الخصوص .

فكانت هذه أبحاثاً علمية اجتهادية بحتة ..

أما أن السيدة فاطمة رضي الله تعالى عنهالم تكلم الصديق رضي الله عنه كما ورد في بعض الروايات : قالت الشراح : إن المراد به أي لم تكلمه في أمر فدك بمعنى أنها حزنت على سؤالها ، ثم لم تكلمه بعد في هذا الأمر ، وقد أيده الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» بعدة روايات .

هذا رأي شراح الحديث المكرمين ، أما هذا الفقير فكان في رأيه دائماً : أن مطالبتها رضي الله عنها المال «فدك» لم يكن قطعاً «وحاشاها رضي الله عنها» لحبٌ في المال ، وإنما كانت المطالبة أصلاً فقط لتنفيذ الأمر الشرعي في هذه المسألة ، فإنها كانت ترى شرعاً أنها مستحقة لهذا المال ، إذن فيجب أن ينفذ أمر الشرع المتين ، فلذا نرى أنه عندما رفض الصديق رضي الله عنه تنفيذ هذا الحق الشرعي «على رأيها» امتنعت أن تكلمه وغضبت لله

تعالى في ذلك ، وهذا عندي : القمة في التصلب في دين الله عز وجل وغاية الإخلاص لله . وهم جميعاً رضي الله عنهم أهل ذلك ، ولذا تجد أن السادة : العباس وعلي رضي الله عنهما عرضا هذه المسألة على سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته أيضاً لأنه كان من الممكن أن يكون رأي عمر واجتهاده موافقاً لرأيهما في هذه المسألة ، ولكن حدث أن رأي عمر رضي الله عنه أيضاً كان نفس رأي الصديق رضي الله عنه .

وهكذا مشاجرات الصحابة رضي الله عنهم بعد ذلك : فلم يكن عصر الخلفاء الثلاثة الأول رضي الله عنهم مناسباً لها لأن عصور الخلفاء الثلاثة تعرضت لأمور أخرى هامة ﴿وليس هذا موضع بيان تفصيلها﴾ وعندما كملت كل هذه الأمور بقي من الخلفاء الراشدين عصر سيدنا علي رضي الله عنه حيث كان من الضروري أن تنحل فيه مشكلة ﴿مخالفة الخليفة﴾ أيضاً ، ولتكميل هذه الناحية بالصورة العملية ﴿تتمة لما ذكرنا﴾ في عصر الخلفاء الراشدين المهديين أيضاً كان لا بد أن توجد هذه الأمور في هذا العصر المبارك ، لذا لم يشكل عليّ قط أبداً : أن هذه المشاجرات التي حدثت بين الصحابة رضي الله عنهم كانت حباً في الجاه أو السطلة أو الدنيا والمال أو العصبية القبلية .

بل الحق الذي لا مرية فيه : أن هذه المشاجرات والمقاتلات كانت في الحقيقة علامات باهرة للقوة الإيمانية والحمية الدينية الكامنة في صدورهم رضي الله عنهم أجمعين .

فالشيء الذي رأوه أنه الحق والصواب من الناحية الشرعية لم يبالوا في التمسك به وحفظه على صورته والثبات عليه ، حتى وإن أدى ذلك إلى الحروب الدامية والتضحية بالروح والنفائس العظيمة ، وكل ذلك في حب الله وإحقاقاً للحق .

وأما الأحمق الذي يظن : أن هذه الأمور صدرت منهم بسبب الضعف الطبعي أو تعصباً لقبيلته او حباً في سلطة نعوذ بالله فإني لم ألتفت إليه ، فلا يعبأ بمثل هذا القول كل من تعمق نظره في تراث الحديث الشريف .

وقد بسط هذا العاجز في رسالته «الإعتدال في مراتب [1] الرجال» في موضوع مشاجرات الصحابة هذا .

فانظر وقعة الجمل : «وكانت فيها السيدة عائشة رضي الله عنها في جهة وفي الأخرى سيدنا على كرم الله وجهه» كانت حرباً ضروساً استشهد فيها مايقرب من عشرين الف شخص . ولكن عندما بدأت المعركة وكانت الحرب على وشك الإشتعال الرهيب تقدم سيدنا علي رضي الله عنه على الجمع ، ونادى علي الزبير رضي الله عنه فجاءه وتقدم إليه ، فتعانقا وتباكيا ثم قال علي : ما الذي أتى بك لقتالنا ؟ فقال الزبير : دم عثمان . إلى آخر ما تحدثا .. هذا اللقاء العجيب تراه بين ندين وخصمين متواجهين للقتال بالسيوف في ميدان الحرب ؟ .. ثم كانت المعركة . وانتصرت جماعة سيدنا علي رضي الله عنه . وقبض على كثير من الجماعة الأخرى فأصر رجال من طائفة علي رضي الله عنه على قتل هؤلاء المقبوض عليهم ، ولكن سيدنا علياً رضي الله عنه لم يوافق بل قبل منهم البيعة وعفى عنهم .

جعل أموالهم غنيمة ولكن لم يرض بأسرهم ـ فأصرَّ الناس بأنك ما دمت جعلت أموالهم غنيمة فأسرهم ، ولكنه امتنع ، وعندما أصروا عليه وألحوا في ذلك . قال لهم : إذن من منكم يأسر أمه عائشة ؟ ويجعلها أمة مملوكة لديه ؟ فقالوا : نستغفر الله ، هذا لا يمكن . فقال كرم الله وجهه . وأنا أستغفر الله .

هل نحن أيضاً نكرم خصومنا بشيء من مثل هذا ؟ إن الخصم الذي نقاتله بالسيوف بعيد ، ولكن هل الخصم الذي نتخاصم معه في بعض الأمور البسيطة جداً هل نستطيع أن نكرمه بمثل هذا ؟

في نفس هذه المعركة عند نهايتها عند ما جرح وسقط جمل السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها «وهي زعيمة الفريق الآخر في المعركة» .

يضطرب سيدنا علي رضي الله عنه ويقول : انظروا هل أصيبت أم المؤمنين؟ ثم

---

(١) الرسالة طبعت بالأردوية وتحت الترجمة بالعربية ، وستظهر عن قريب إن شاء الله .

يتقرب من جملها وتقدم إليها وسألها : هل أصابك شيء يا أماه سامحك الله ؟ فتقول له رضي الله عنها : وأنت غفر الله لك .

هكذا كانت معاملة الخصوم عندهم ، وهكذا كان إكرام المتقاتلين لبعضهم ونحن إذا تيسر لنا التمكن من أحد خصومنا فما يكون حالنا ؟ هل تلاقي منا نفسه أو أمواله أو أعراضه أو أي شيء آخر ينتسب إليه أية رحمة أو شفقة ؟

وقعة صفين الشهيرة التي وقعت بين سيدنا علي وسيدنا معاوية رضي الله عنهما ، ذكر عدة من المؤرخين أنه كان الفريقات يتقاتلان في النهار ، وبالليل يشترك أهل الفريقين في تجهيز وتكفين الموتى من الفريقين . وكان إذا احتاج شخص من أحد الفريقين إلى تبين بعض الأحكام والمسائل أرسل رسولاً إلى بعض مَن في الفريق الآخر فيستفهم منه المسألة ، فلم يؤثر الخلاف على اعتمادهم الديني على الآخر ، في أثناء هذه الوقائع أراد قيصر الروم أن يهجم على المسلمين فكتب سيدنا معاوية رضي الله عنه إليه في رسالة : بأنك إن فعلت ذلك فإني سأتصالح مع صاحبي ثم سأكون في مقدمة جيشه الذي سيخرج لقتالك ونترك القسطنطينية كالفحمة سوداء .

وتفصيل هذه القصة أن قيصر الروم أرسل رسالة إلى سيدنا معاوية رضي الله عنه يذكر له فيها أن علياً (كرم الله وجهه) قد نكد عليه فإن ترى أرسل لمددك جيشاً لقتال علي ، فانظروا بماذا رد عليه معاوية كتب له : «أيها الكلب النصراني أتريد أن تستغل الخلاف بيني وبين علي ، والله لو تقدمت نحو علي لقتاله لتجدن معاوية أول المقاتلين في جيشه» أو كما قال ـ هكذا كانوا رضي الله عنهم لأن أمورهم كلها كانت لله جل شأنه ونقل أيضاً عن سيدنا معاوية كما في البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٩ ـ أنه رضي الله عنه قال : والله إني لأعلم أنه «أي علي كرم الله وجهه» خير مني وأفضل وأحق بالأمر مني ، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمه وأنا أطلب بدمه وأمره إليَّ فقولوا له «أي لعلي رضي الله عنه» فليسلم إليَّ قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره ..» ، انتهى .

وقد حدثت قضية في عهد معاوية رضي الله عنه في ولايته أن رجلاً رأى أحداً يزني بامرأته فلم يستطع الصبر وقتله ـ وجاءت القضية إلى سيدنا معاوية فلم يستطع الفصل فيها واشكلت عليه : إذ القاتل جزاؤه القصاص ولا شك ، ولكن هذه الحال التي حصل فيها القتل يصعب غض النظر عنها ، فكتب معاوية إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما : ان يتحقق في هذه المسألة من علي رضي الله عنه .. إلخ .

هل نحن أيضاً نعترف بالجهل والتقصير أمام مخالفينا وخصومنا السياسيين أو غيرهم ؟ هل نرجع إليهم في تحقيق مسألة ليست من المسائل المتنازع فيها ؟

إننا مع الأسف نرى أن خصمنا قوله لا يعتبر به ورأيه لا يعتمد عليه ، وهو شخصياً لا يستحق أبداً أن يرجع إليه أحد أو يستفتيه في شيء ما .

ولسيدنا معاوية رضي الله عنه قصص كثيرة وشهيرة ذكر بعضها عزيزي الكريم الشيخ محمد يوسف نور الله مرقده في «حياة الصحابة» منها :

ما أخرج ابو نعيم عن أبي صالح قال : دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية رضي الله عنه فقال له : صف لي علياً ، فقال : أو تعفيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أعفيك ، قال : «أما إذ لا بد فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، ينفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكر ة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ويجيبنا إذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المظلوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ـ وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ـ يميل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ، فكأني أسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا ـ يا ربنا ـ يتضرع إليه ، ثم يقول للدنيا : إليَّ تغررت ؟ إليَّ تشوفت ؟ هيهات هيهات غري غيري ، قد بتتك ثلاثا ، فعمرك قصير ومجلسك حقير وخطرك يسير ،

آه آه من قلة الزاد وبعد السفر و وحشة الطريق» . فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه ـ وقد اختنق القوم بالبكاء ـ فقال : كذا كان أبو الحسن رحمه الله ـ كيف وجدك عليه يا ضرار ؟ قال : وجد من ذبح واحدها في حجرها لا ترقأ دمعتها ولا يسكن حزنها ، ثم قام فخرج ، انتهى .

وبما أن «الإحسان» الذي ذكرناه بأعلاه كان جزءاً لا يتجزأ من الدين ، فكان لا بد وأن يتكمل بيانه أيضاً في هذا العصر المبارك «عصر الخلفاء الراشدين» وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أنا دار الحكمة وعلي بابها» ، فإن أكثر سلاسل وطرق التصوف والسلوك والحكمة جاءت بواسطة سيدنا علي كرم الله وجهه .

إن هؤلاء الذين يظنون أن «التصوف» كله مأخوذ عن الرهبان وأشباههم هم في الحقيقة جهلة تماماً عن الدين الحنيف وتعاليمه الشاملة الكاملة . فإن بداية التصوف وأصوله وقواعده إنما هو منه صلى الله عليه وسلم ومن عهده الكريم ، وأما تسلسله بصورة خاصة ومميزة بدأ من عصر سيدنا علي رضي الله عنه كما سنذكره في محله إن شاء الله . وهذا الموضوع يحتاج إلى بسط وتوضيح ، وليت صحتي ساعدتني لكتبت عنه بوضوح وتفصيل .

ولا يفهم مما ذكرت أن هذا المقصر لم يشكل عليه أي شيء في أي حديث وفي أي مقام أبداً ـ لا . إنما الذي حصل هو أنه عندما كان يشكل عليَّ شيء في الحديث ولا أستطيع فهمه أو حل غامضه حملت ذلك بيقين على قصور فهمي وقلة علمي .

لقد ذكرت قصة ابنتي الصغيرة في رسالة «آب بيتي» بالأردوية ، أنها عندما كانت تدرس في بداية أمرها «القاعدة البغدادية» ، ودرست في إحدى الجداول بها : ألف فتحة آ ونون فتحة نَ = آنَ ، وباء ألف فتحة با ونون فتحة نَ = بَانَ ، وهكذا تَانَ ثَانَ جَانَ ، وفي آخر الجدول عندما أقرأتها والدتها : همزة ألف فتحة آ نون فتحة نَ = آنَ ، ثارت الطفلة واعترضت : لم هذا ؟ كيف نقول «آن» ولا نقول «همزان» ـ لأنه حسب القاعدة المستمرة من أول حرف إلى هنا يجب أن يكون : همزة ألف فتحة همزا ونون فتحة نَ = همزانَ ، فقالت لها والدتها : إذا جاء أبوك فاسأليه ، وهكذا أفلتت الأم نفسها منها ، وبعد

يجبني عجزت أنا أيضاً عن إفهامها ، فقلت لها : «إن عقلك الآن صغير وعندما تكبرين ستفهمين بنفسك إن شاء الله» ، فهكذا إن ورد لي أي إشكال في حديث ما أو حال : أتذكر جوابي لبنيتي الصغيرة هذه : «بأن عقلك الآن صغير» .

العمل بالقـرآن

إن هذا الفقير قد ذكر في رسالته «الاعتدال في مراتب الرجال» و «فضائل القرآن» موضوعاً مهما وهو أن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : «من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين».

ولكن التمعن في القرآن واستنباط الأحكام والعلوم منه له شروطه وآدابه يجب التقيد والإهتمام بها ، وليس كحال زماننا أن كل من تعلم عدة كلمات من العربيـة وأتقـن كتابة موضوع أو مقالة ، وأكثر من هذا أن بعضهم لا يعرف اللغة العربية ، وإنما يـتفهم القـرآن بواسطة التراجم في لغته تجده : يُدخل رأيه في شرح معاني القرآن الكريم واستنباط الأحكام والعلوم منه ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم حذر عن ذلك أشد تحـذير وقـال : «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ وان أصاب» ولكن مدعيي التقدم اليوم يأتون لكل آيـة من القرآن الكريم بمعنى جديد ضاربين أقوال السلف الصالحين بالحائط . في عـصرنا هـذا يريـد كل شخص أن يصبح جامعاً للفـضائل والكمـالات بحيـث أنـه لـو اسـتطاع أن يحـرر عـدة عبارات باللغة العربية بل ولو استطاع أن يسطر مقالة بلغته الأردويـة أو غيرهـا في المجـلات والجرائد تجده كأنه في التصوف أصبح أسـتاذاً للجنيـد ، وفي الفقـه صـار مجتهـداً مـستقلاً ، ويأتي في تفسير القرآن بما شاء من آراء غريبة وشاذة ، لا يبالي هل قال به أحد من السلف الصالح أم لا ؟ أو أن رأيه هذا هل يخالف شيئاً من أقوال الرسول صلى الله عليـه وسـلم أم لا ؟ فإنه متنور ومفكر عظيم له الحق أن يقول ما يريد ويتبجح في شرح القرآن بما شـاء ويتقـول على الله بما يشتهي ، فمن ذا الذي يرد عليه ومن ينكر على ضلالاته ومن يتجرأ علـى بيـان هفواته وسقطاته وسفاهاته .. من ؟ وإن تجرأ أحد بتوفيق الله وقال : يا ناس إن هذا يعـارض ما جاء نا عن نبينا صلى الله عليه وسـلم ويخـالف مـا بلغنـا عـن سـلفنا الـصالح الخ . تجـدهم يحكمون عليه أنه ضيق الفكر ، ليس بمحقق ، رجعي ، لا يفهم من الدين إلا القشور قاصـر

عن التحقيقات البديعة ـ ولا يقدر الظروف وتقدم الزمان .. الخ .

و أما من يتجرأ على دين الله فيمسخه ، ويهذي بأن ما قاله السلف الصالحون إلى يومنا هذا كله خطأ ، ويأتي في الدين بكل جديد وحديث : فإنه المحقق والمفكر الإسلامي وهو فيلسوف الإسلام و.... و....

مع أن العلماء أهل هذا الفن اشترطوا للتفسير : الإتقان لخمس عشرة من العلوم سأذكرها باختصار حتى يعلم أنه لا يمكن الوصول إلى بطن القرآن الكريم والإستنباط منه لكل من هب ودب ـ وهذه العلوم :

أولها : ﴿اللغة﴾ حيث يفهم بها مفردات القرآن ـ يقول مجاهد رحمه الله : ﴿من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقول في القرآن بدون أن يعلم كلام العرب﴾ ، ولا يكفي أن يعلم بعض اللغات فقط لأنه أحياناً تكون للّفظ الواحد معاني كثيرة ، فإذا كان المرء لا يعلم منها إلا معنى أو معنيين فقط ويكون المعنى المراد سواهما فحينئذ الطامة .

ثانياً : يجب أن يكون عالماً بالنحو ، لأنه بتغيير الإعراب تتغير المعاني ، ومعرفة الإعراب موقوفة على علم النحو ، وقد بلغنا أن أحدهم فسر قوله تعالى : ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بأن ﴿يكفي الله تعالى من المؤمنين عمل واحد فقط وهو القتال﴾ .

ثالثاً : يجب أن يكون عالماً بالصرف ، لأنه باختلاف الصيغ وبناءات الأفعال تختلف المعاني ، يقول ابن فارس : من فاته علم الصرف فقد فاته شيء كثير .

وقد ذكر العلامة الزمخشري المعتزلي في عجائب التفسير : أنه فسر أحدهم قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ لعدم معرفته بعلم الصرّف : أن المراد هو : ﴿يوم ندعو الناس كلهم بأمهاتهم﴾ فظن أن لفظ ﴿إمام﴾ جمع ﴿الأم﴾ مع أنه لا يأتي جمع الأم ﴿إمام﴾ .

رابعاً : يجب أن يكون عالماً بالإشتقاق ، لأن اللفظ حينما يكون مشتقا من مادتين مختلفتين يكون معناهما مختلفين ، مثل كلمة ﴿مسيح﴾ فإن اشتقاقها يكون من ﴿المسح﴾

أيضاً وهو لمس الشيء ومسح اليد المبلولة على الشيء ، وأيضاً من «المساحة» فيكون معناه : مسح الأرض .

وخامساً : يجب أن يكون عالماً بعلم المعاني .

سادساً : يجب أن يكون عالماً بعلم البيان ، فبه يعرف ظهور الكلام وخفاؤه وتشبيهه وكنايته .

سابعاً : علم البديع ، فبه يعلم امتياز الكلام من حيث التعبير ، وهذه الثلاثة الأخيرة يقال لها : البلاغة ، وهي من العلوم المهمة في حق المفسر للقرآن الكريم ، إذ بها يعرف إعجاز القرآن الذي هو كله معجز .

ثامناً : يجب أن يكون عالماً بعلم القراءات . إذ يعلم بالقراءات المختلفة المعاني المختلفة ، ويعلم ترجيح بعض المعاني على غيرها .

تاسعاً : يجب أن يكون عالماً بالعقائد أيضاً ، إذ توجد في القرآن الكريم بعض الآيات لا يجوز إطلاق معناها الظاهر على الباري عز اسمه ، فيحتاج فيها إلى التأويل حسب العقيدة الصحيحة كقوله تعالى : ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ .

عاشراً : يجب أن يكون عالماً بأصول الفقه أيضاً ، فبه يعلم وجوه الإستدلال والإستنباط .

حادي عشر : يجب أن يكون عالماً بأسباب النزول أيضاً ، إذ به يتضح معنى الآيات ، وأحياناً لا يمكن فهم المعنى الحقيقي للآية إلا بمعرفة سبب نزولها .

ثاني عشر : يجب أن يكون عالماً بناسخ القرآن ومنسوخه حتى تتميز الأحكام المنسوخة عن المعمول بها .

ثالث عشر : يجب أن يكون عالماً بعلم الفقه ، إذ بإحاطة الجزئيات تعرف الكليات .

رابع عشر : يجب أن يكون عالماً بالأحاديث التي وردت كتفسير للآيات القرآنية المجملة .

وبعد هذه كلها : الخامس عشر : هو ذاك العلم الوهبي الذي هو عطية ربانية كريمة يكرم الله بها خواص عباده ، وإليه أشار الحديث الشريف : ﴿من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم﴾ .

وقد ذكر الأصوليون أنه يجب للعمل على الشريعة الغراء ، تعلم أصولها وهي : القرآن والحديث والإجماع والرابع القياس وهو مستنبط من الأصول الثلاثة الأولى .

ثم للعمل على القرآن الكريم يجب تعلم أربعة أمور :

أولها : النظم القرآني من حيث الصيغة واللغة وهي أربعة أقسام : الخاص والعام والمشترك والمؤول .

ثانياً : وجوه البيان . وهي أربعة : الظاهر والنص والمفسر والمحكم ومقابلها أربعة أيضاً وهي : الخفي والمشكل والمجمل والمتشابه .

ثالثا : أن يعلم استعمال نظم القرآن ـ وهي أربعة أيضاً : الحقيقة والمجاز والصريح والكناية .

رابعاً : أن يطلع على طرق معرفة مراد القرآن ـ وهي أربعة أيضاً : عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص واقتضاء النص .

وبعد هذا كله هناك أمر مستقل يشمل الجميع وفيه أربعة أمور أيضاً :

١ – أن يعلم مآخذ الإشتقاق .

٢ – أن يعلم المفاهيم الإصطلاحية .

٣ – أن يعلم ترتيبها .

٤ – أن يعلم الأحكام المرتبة عليها .

فيجب أن يعلم من الأمر مثلاً أين هو للوجوب وأين للجواز وأين للإستحباب وأين للتكرار فقط ، وفي القرآن الكريم يأتي لفظ الأداء أحياناً بمعنى القضاء وأحياناً يأتي لفظ القضاء بمعنى الأداء ، والأمر أحياناً يكون مطلقاً وأحياناً يكون مقيداً ـ والأمر المقيد له أربعة أقسام ... إلخ ، هذه الأمور مذكورة مفصلة منقحة في كتب أصول الفقه نقلناها هنا مختصراً

من «نور الأنوار» .

وقد ورد في سنن أبي داود عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : «إن من ورائكم فتنا يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والكبير والصغير والعبد والحر ، فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ، ما هم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره ، فإياكم وما ابتدع ، فإن ما ابتدع ضلالة» .

إن أولئك الذين يفتخرون أنهم نشروا القرآن ومعانيه في العالم بالنظر إلى هذه الرواية في خطر شديد ، إن ترجمة القرآن الكريم لفهم معناه والإتعاظ بالمواعظ منه والتذكر لا شك في أنه كله خير وبركة .

ولكن إستنباط الأحكام منه بدون الحصول على علوم القرآن لا يجوز قطعاً إلا بعد الحصول على هذه العلوم المذكورة بأعلاه .

ذكر الحافظ السيوطي في «الدر المنثور» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى «يؤتي الحكمة من يشاء» : إن المراد به معرفة القرآن : ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه .

الحـــديث

لقد صرح الأصوليون : إنه يجب لفهم الحديث والعمل به أن يكون المرء عالماً بجميع تلك العلوم التي ذكر وجوب تعلمها فيما سبق مفصلاً للعمل بالقرآن ، وعلاوة عليها : بما أن القرآن الكريم قطعي والأحاديث فيها أمور قطعية مثل الصلوات الخمس وركعات الصلوات وغير ذلك ، وفيها أيضاً ما هو ظني : فهذه يجب للعمل عليها تعلم عدة أمور ، ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في «نخبة الفكر» وشرحه «نزهة النظر» «وهي رسالة في أصول الحديث» بذيل أقسام الحديث : فالخبر إما أن يكون له طرق بلا عدد معين أو مع حصر بما فوق الإثنين أو بهما أو بواحد ، فالأول : المتواتر ، المفيد للعلم اليقيني بشروطه ، والثاني : المشهور ، وهو المستفيض على رأي ، والثالث : العزيز ، وهو أن لا يرويه أقل من اثنين عن اثنين ، والرابع : الغريب ، وهو ما ينفرد بروايته شخص واحد ، وكلها سوى الأول آحاد ـ وفيها المقبول والمردود لتوفق الإستدلال بها على البحث عن أحوال رواتها دون الأول ، ثم الغرابة إما أن تكون في أصل السند أو لا ، فالأول : الفرد المطلق ، والثاني : الفرد النسبي ، وخبر الآحاد بنقل عدل تام الضبط متصل السند غير معلل ولا شاذ : هو الصحيح لذاته ، والمعلل : ما فيه علة خفية قادحة ، والشاذ : ما يخالف فيه الراوي من هو أرجح منه ، وتتفاوت رتبه «أي الخبر» بتفاوت هذه الأوصاف ، ثم الصحيح : إما أن يكون صحيحاً لذاته ، أو صحيحاً لغيره إن وجد فيه قصوراً و وجد ما يجبر ذلك القصور ، فإن خف الضبط : فالحسن لذاته وبكثرة طرقه يصحح ، فإن جمعا فللتردد في الناقل حيث التفرد وإلا فباعتبار إسنادين وزيادة راويهما مقبولة ما لم تقع منافية لمن هو أوثق ، فإن خولف بأرجح : فالراجح : المحفوظ ، ومقابله : الشاذ ، ومع الضعف فالراجح : المعروف ، ومقابله : المنكر ، والفرد النسبي ، إن وافقه غيره فهو المتابع ، وإن وجد متن يشبهه فهو الشاهد ، وتتبع الطرق لذلك هو الإعتبار» ، انتهى . والمقصود : أقسام الحديث هذه يجب

العلم بها حتى يعرف درجة الحديث ، ثم قال الحافظ : «ثم المقبول إن سلم من المعارضة فهو المحكم وإن عورض بمثله : فإن أمكن الجمع فمختلف الحديث أو لا وثبت المتأخر فهو الناسخ والآخر المنسوخ» ، انتهى . ثم ذكر بالتفصيل الأمور التي يعرف فيها النسخ وأن أصرحها ما ورد في النص ومنها ما يعرف بالتاريخ وهكذا ، ثم قال : وإلا فالترجيح» ، انتهى .

وقد ذكر الحازمي في «كتاب الإعتبار» : أن وجوه الترجيح : خمسون . وقال العلامة السيوطي في تدريب الراوي : إن بعض العلماء جعلها مائة . فإن الحافظ العراقي ذكر في كتابه «النكت» : مائة وجه .

والعلامة السيوطي عددها في تدريب الراوي إلى مائة ، ثم قال : وهي أكثر من ذلك .

وسيأتي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية مفصلاً ، الذي ذكر فيه عشرة أسباباً لترك العمل بالحديث وعدم الإحتجاج به وقال بعدها :

فهذه الأسباب العشرة ظاهرة ، وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها ، فإن مدارك العلم واسعة ، ولم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء .

والعالم قد يبدي حجته وقد لا يبديها ، وإذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغنا ، وإذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه ، انتهى .

وسيأتي كلامه مفصلاً بكامله إن شاء الله .

ثم يذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله : «إنه في حالة عدم وجود أي وجه من وجوه الترجيح : التوقف عن العمل بأخذ الحديثين ، ثم المردود إما أن يكون لسقط أو طعن ، والسقط إما أن يكون من مبادئ السند من مصنف أو من آخره بعد التابعي أو غير ذلك - فالأول : المعلق ، والثاني : المرسل ، والثالث ، إن كان باثنين فصاعداً مع التوالي فهو المعضل وإلا فالمنقطع . ثم قد يكون واضحاً أو خفياً فالأول : يدرك بعدم التلاقي ، ومن ثم احتيج إلى التاريخ ، والثاني : المدلس .. ثم الطعن : ويكون بعشرة أشياء بعضها أشد في

القدح من بعض .. إلخ ما ذكره .

وللعمل بالأحاديث يجب الحصول على أصول الحديث باهتمام ، وما ذكرته من كلام الحافظ إنما هو أنموذج بسيط لبعض الأنواع .

وقد ذكر الحافظ رحمه الله بعدها أبحاثاً في الحديث المقلوب والمضطرب والمصحف والمحرف والمرفوع والمقطوع والمسند والعلو المطلق والعلو النسبي والموافقة ثم فيه البدل والمساواة والمصافحة والنزول والأقران والمديح ورواية الأكابر عن الأصاغر والسابق واللاحق والمسلسل والمتفق والمفرق والمؤتلف والمختلف والمتشابه وغيرها من الأبحاث التي يجب تعلمها على طالب علم الحديث الشريف .

ولا يكفي أن يطالع كتاباً أو كتابين من كتب الحديث ، أو يقرأ عدة مقالات في الحديث أو أصوله أو تاريخ تدوينه ، ثم يظن بذلك أنه أصبح محدثاً : فيستنبط من الأحاديث الشريفة ما شاء من الأحكام وما راق له من المسائل والعلوم .

وقد ذكر الحافظ في رسالته هذه : أنه لا يمكن إحصاء جميع الأبحاث فيها ويجب الرجوع للتفصيل إلى المطولات ، فلا يكفي مطالعة كتيبات عن الحديث أو منشورات ورسائل مبسطة عن أصوله حتى يصبح محدثا ، فإن الأمر صعب وعظيم وليس بالسهل الميسور ، كما أنه لا يمكن لمن طالع القرآن المترجم أو التفسير الميسر وتعلم شيئاً من اللغة وقرأ عدة كتيبات ومقالات مختصرة مجملة عن التفسير وعلومه أن يدعي أنه أصبح مفسراً للقرآن ، بل يجب أن يكون قد تحصل على العلوم التي ذكرناها سابقاً بالتفصيل ويخشى على من مارس هذا الفن الشريف بدون الحصول على العلوم اللازمة أن يقع في أخطاء مهلكة خطيرة .

وقد ذكر عن رجل من مدعي العمل بالحديث أنه كان دائماً إذا بال واستجمر قام فصلى الوتر ، فسأله بعضهم عن سبب ذلك ؟ فقال : لقد ورد في الحديث : «من استجمر فليوتر» مع أن المراد : أن من استجمر فليجعل عدد الحجارة المستجمر بها وتراً ، ففهم هذا أن المراد من الوتر هو «صلاة الوتر» .

وكذلك كان بعضهم يمنع جاره من أن يسقي مزرعته من بئره ويمنعه عن ذلك بشدة ويحتج بقوله صلى الله عليه وسلم : «ولا يسقي أحدكم ماءه زرع غيره» ففهم من الحديث هذا المعنى ، مع أن المراد من قوله صلى الله عليه وسلم هذا : أنه لو كانت امرأة مثلاً أمة مملوكة حاملاً من شخص فتملكها آخر فعلى هذا الأخير أن لا يجامعها . فالمراد بالماء هنا : المني ، ويعني بالزرع : فرجها .

وغيرها أمثلة كثيرة ذكر بعضها ابن الجوزي في كتابه «تلبيس ابليس» . وفي سنن أبي داود : أن شخصاً قال لعمران بن الحصين رضي الله عنه : يا أبا نجيد إنكم لتحدثوننا بأحاديث ما نجد لها أصلاً في القرآن ، فغضب عمران ، وقال للرجل : أوجدتم في كل أربعين درهماً درهماً ومن كل كذا وكذا شاة شاة ومن كذا وكذا بعيراً كذا وكذا وجدتم هذا في القرآن ؟ قال : لا . قال : فعمن أخذتم هذا ؟ أخذتموه عنا وأخذناه عن نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر أشياء نحو هذا .

فعلمنا من هذا : أنه لا بد من الحصول على علم الحديث للعمل بالقرآن ، وللحديث لابد من تعلم الأمور المذكورة بالتفصيل فيما سبق .

وفي خاتمة هذا الموضوع أحب أن أورد رباعيات الإمام محمد بن إسماعيل البخاري المعروفة التي بينها للمحدث ، وقد ذكرتها في مقدمة «أوجز المسالك إلى موطأ مالك» ومنها سأنقل هنا أيضاً إن شاء الله .

فإن المحدثين وضعوا قواعد شديدة للتوغل في علم الحديث ولحصول البصيرة في هذا الفن المبارك والكتابة والكلام فيه ، كما وضعوا قواعد وشروطاً لطالب الحديث أيضاً ، وذكروا للمحدث والمعلم شروطاً وحدوداً أشد وأصعب منها ، أرى أن الموضوع يطول وبدون قصد مني إلا أني أذكر هنا هذه الحكاية العجيبة للإمام البخاري رحمه الله للضرورة الوقتية حيث سيظهر منها : أن السلف رحمهم الله تعالى كانوا يشددون على طالب هذا العلم الشريف «الحديث» ، وكيف كانوا يوجبون عليه المجاهدة والتضحية ، فإذا كان هذا حال طالب العلم فما بالك بالمحدثين والمشيخة ، فقد ذكر جمع من المشايخ بأسانيدهم عن

أبي المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخاري يقول : لما عزل أبو العباس الوليد بن إبراهيم بن زيد الهمداني عن قضاء الري ، ورد بخارى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة لتجديد مودة كانت بينه وبين أبي الفضل البلعمي ، فنزل في جوارنا ، فحملني معلمي أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الختلي إليه فقال له : أسألك أن تحدث هذا الصبي عن مشايخك ، فقال : مالي سماع ، قال : فكيف وأنت فقيه فما هذا ؟ قال : لأني لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسي إلى معرفة الحديث ورواية الأخبار وسماعها ، فقصدت محمد بن إسماعيل البخاري ببخارى صاحب التاريخ والمنظور إليه في علم الحديث ، وأعلمته مرادي وسألته الإقبال على ذلك ، فقال لي : يا بني لا تدخل في أمر إلا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره ، فقلت : عرفني رحمك الله حدود ما قصدتك له ، ومقادير ما سألتك عنه ، فقال لي : اعلم أن الرجل لا يصير محدثاً كاملاً في حديثه إلا : بعد أن يكتب أربعاً مع أربع ، كأربع مع أربع ، مثل أربع في أربع ، عند أربع بأربع ، على أربع عن أربع لأربع ، وكل هذه الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع ، فإذا تمت له كلها هان عليه أربع ، وابتلي بأربع ، فإذا صبر على ذلك أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع وأثابه في الآخرة بأربع ، قلت له : فسر لي - رحمك الله - ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات عن قلب صاف بشرح كاف وبيان شاف طلباً للأجر الوافي .

فقال : نعم ، الأربعة التي يحتاج إلى كتبها : هي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وشرائعه ، والصحابة رضي الله عنهم ومقاديرهم ، والتابعين وأحوالهم ، وسائر العلماء وتواريخهم مع أسماء رجالهم وكناهم وأمكنتهم وأزمنتهم ، كالتحميد مع الخطب والدعاء مع التوسل والبسملة مع السورة والتكبير مع الصلوات ، مثل المسندات والمرسلات والموقوفات والمقطوعات ، في صغره وفي إدراكه وفي شبابه وفي كهولته ، عند فراغه وعند شغله وعند فقره وعند غناه ، بالجبال والبحار والبلدان والبراري ، على الأحجار والأخزاف والجلود والأكتاف ، إلى الوقت الذي يمكنه نقله إلى الأوراق ، عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه وعن كتاب أبيه يتيقن أنه بخط أبيه دون غيره ، لوجه الله تعالى طالباً لمرضاته

والعمل بما وافق كتاب الله عز وجل منها ونشرها بين طالبيها ومحبيها والتأليف في إحياء ذكره بعده .

ثم لا تتم له هذه الأشياء إلا بأربع هي من كسب العبد ، أعني : معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو ، مع أربع هي إعطاء الله تعالى ، أعني : القدرة والصحة والحرص والحفظ ، فإذا تمت له هذه الأشياء كلها هان عليه أربع : الأهل والمال والولد والوطن ، وابتلي بأربع : بشماتة الأعداء وملامة الأصدقاء وطعن الجهلاء وحسد العلماء ، فإذا صبر على هذه المحن : أكرمه الله عز وجل في الدنيا بأربع : بعز القناعة وبهيبة النفس وبلذة العلم وبحياة الأبد ، وأثابه في الآخرة بأربع : بالشفاعة لمن أراد من إخوانه وبظل العرش يوم لا ظل إلا ظله ويسقي من أراد من حوض نبيه صلى الله عليه وسلم وبمجاورة النبيين في أعلى عليين في الجنة ، فقد أعلمتك يا بني مجملاً لجميع ما سمعت من مشايخي متفرقاً في هذا الباب ، فاقبل الآن إلى ما قصدت إليه أو دع » ، انتهى .

الـفـقـه

وتعريف الفقه الذي ذكره الفقهاء الكرام عامة هو :

« العلم بالأحكام الشرعية الفرعية المكتسب من أدلتها التفصيلية » .

وقد روي عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله في تعريف الفقه بأنه :

« معرفة النفس مالها وما عليها » .

ولكن تعريف الإمام هذا شامل للعقائد والأخلاق والأعمال الظاهرة كلها . ولكن المتاخرين أطلقوا على متعلقات الإعتقاديات اسم « علم الكلام أو التوحيد » وعلى متعلقات الأخلاقيات اسم « علم الأخلاق » أو « التصوف » ، وجعلوا الفقه خاصاً بمتعلقات الأعمال الظاهرة .

وقد نقل مولانا الشيخ إعزاز علي رحمه الله في مقدمته على « كنز الدقائق » عن الحاوي القدسي أنه قال : اعلم أن معنى الفقه في اللغة : الوقوف والإطلاع ، وفي الشريعة : الوقوف الخاص ، وهو الوقوف على معنى النصوص وإشاراتها ودلالاتها ومضمراتها ومقتضياتها ، انتهى . وقال في موضع آخر : الفقه قوة لتصحيح المنقول وترجيح المعقول .

وأما مأخذ الفقه : فالكتاب والسنة والاجماع والقياس « كما نقلنا في البداية عن نور الأنوار » .

لذلك يجب للفقه أيضاً : تعلم كل ما ذكرناه بالتفصيل بدليل « القرآن » و« الحديث » .

وقال حكيم الأمة الشيخ أشرف على التهانوي في « التكشف » ما ترجمته : إن الشريعة اسم لمجموعة الأحكام التكليفية فشملت الأعمال الظاهرة والباطنة جميعها ، وفي اصطلاح المتقدمين كانوا يرون لفظة « الفقه » مرادفة لها ـ كما نقل عن الإمام أبي حنيفة في تعريف الفقه أنه قال : هو « معرفة النفس ما لها وما عليها » ، ثم في اصطلاح المتأخرين : صار الفقه يطلق على العلم المتعلق بالأعمال الظاهرة فقط ، وأما العلم المتعلق بالأعمال الباطنة فيطلق

عليه : اسم «التصوف» أو «الطريقة» ، وقد ذكر مثل هذا الكلام ، في «إمداد الفتاوى» أيضاً .

وللعلامة عبدالوهاب الشعراني كتاب أعجبت به كثيراً وهو «الميزان الكبرى» كنت أطالعه في أواخر أيام طلب العلم و أوائل أيام تدريسي باستمرار ، وموضوع الكتاب : أن الأئمة المجتهدين رحمهم الله في الحقيقة ليس بينهم أي اختلاف ، أما الإختلاف المشاهد في الظاهر : فهو باعتبار أحوال الناس ، فمثلا الإمام أبو حنيفة : ترك رفع اليدين باعتبار زمنه ، والإمام الشافعي : قال بالرفع بحسب زمانه ، فالإمام أبو حنيفة كان زمنه من القرون المشهود لها بالخير ، وبما أن حقيقة رفع اليدين هو : طرح الدنيا وراء الظهر ، ففي زمنه رحمه الله كان المرء إذا طرح الدنيا مرة واحدة في البداية برفع اليدين : كانت الدنيا ومشاغلها لا ترجع إليه بعدها إلى تمام الصلاة ، وأما في زمن الإمام الشافعي وولادته كانت في عام وفاة الإمام أبي حنيفة : كانوا إذا طرحوا الدنيا في البداية رجعت إليهم ثانياً فيطرحوها مرة بعد مرة برفع اليدين ، ففي رأيه : أن الشخص الذي يكون حاله كما كانت عليه عامة الأحوال في زمن الإمام أبي حنيفة بحيث إذا رفع يديه في البداية لم تعد إليه الدنيا حتى نهاية الصلاة فهذا له أن يعمل بقول أبي حنيفة ، والذي يكون حاله كحال زمن الإمام الشافعي فعليه أن يعمل بقوله ، وهكذا يرى أن نقض الوضوء بمس الذكر إنما هو للخاصة والأكابر ، وأما عدم نقضه فهو للعامة ، مع أن الإحتياط عند الحنفية أيضاً هو الوضوء منه وذلك للخروج عن الخلاف ، (الميزان ص ١٣٠، ١٦٠) . وله أبحاث طريفة وعجيبة في كتابه هذا ، وقد رسم في كتابه هذا أيضاً في موضع أشكالاً لقباب ، وأشكالاً مختلفة متعددة تتعلق باختلاف الأئمة بناء على مراقباته ومكاشفاته ، وضرب بهذه الأشكال أمثلة لما رآه في مكاشفاته نذكر منها هنا مثالين فقط :

١ - وهذا مثال طرق مذاهب الأئمة المجتهدين إلى أبواب الجنة وإن كل من عمل بمذهب منها خالصاً أوصله إلى باب الجنة :

طريق الإمام أبي حنيفة إلى باب الجنة	طريق الإمام مالك إلى باب الجنة	طريق الإمام الشافعي إلى باب الجنة	طريق الإمام أحمد إلى باب الجنة	طريق أتباع الإمام داود إلى باب الجنة	طريق أتباع الإمام أبي الليث إلى باب الجنة	طريق أتباع الإمام إسحاق إلى باب الجنة	طريق أتباع الإمام عبد الرحمن الأوزاعي إلى باب الجنة
باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة	باب الجنة

٢ – وهذا مثال قباب الأئمة المجتهدين على نحو نهر الحياة في الجنة الذي هو مظهر بحر الشريعة المطهرة في الدنيا ، وإنما ذكرنا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قباب الأئمة الأربعة : لأنهم ما نالوا هذا المقام إلا باتباع شريعته ، فكان من كمال نعيمهم في الجنة : شهود ذاته صلى الله عليه وسلم فتأمله تهتد إن شاء الله تعالى :
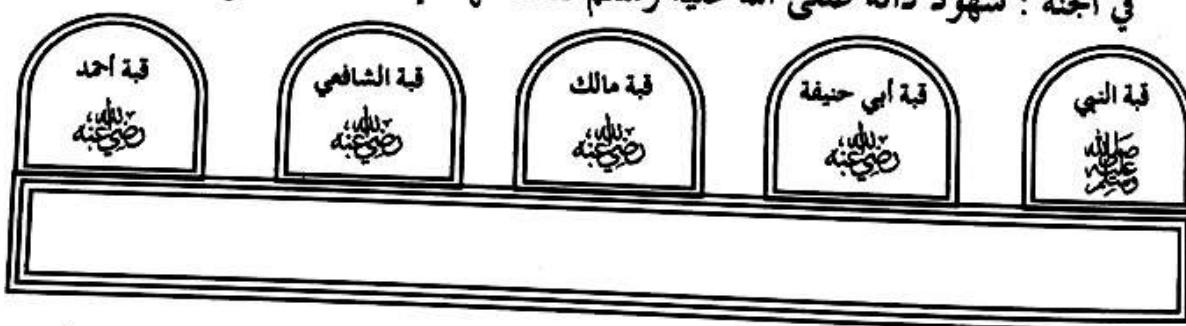
وذكر في ذيل المثال الثاني ما ملخصه : إني أتيت بالأئمة الأربعة فقط من الأئمة المجتهدين لأن لهم ميزة خاصة وهي : أن مذاهب هؤلاء الأربعة فقط دونت وحفظت ورتبت وعمل بها من أول أيامهم إلى يومنا هذا باستمرار دون بقية الأئمة المجتهدين ، فحصلت لهم نيابة خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هداية الأمة المحمدية وقيادتها إلى شرعه صلى الله عليه وسلم ولهم نسبة خاصة به صلى الله عليه وسلم بحيث يقال عنهم : بأنهم لم يفارقوه صلى الله عليه وسلم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وهذا الشكل الذي رسمت عليه القباب ليس قياساً من رأيي ، إنما هو بالضبط على الشكل الذي رأيتها عليه في الجنة في بعض أحوالي

فالحمد لله رب العالمين .

لقد ذكر الإمام الشعراني رحمه الله اسم الإمام أبي حنيفة في الجدول الأعلى وفي القبة الأولى وقال : إن ذلك على أساس الكشف الذي حصل له لأنه رحمه الله كان من أصحاب الكشوف .

وفي رأيي أنه من وجوه ذلك : أن أزمنة الأئمة الأربعة أيضاً على هذا الترتيب الذي انكشفت له القباب عليه ، فولادة الإمام أبي حنيفة رحمه الله كانت : في سنة ثمانين من الهجرة ، ووفاته : سنة خمسين ومائة ، وعاش سبعين سنة .

والإمام مالك رحمه الله : كانت ولادته : في سنة خمس وتسعين ووفاته : سنة تسع وسبعين ومائة ، وعاش أربعاً وثمانين سنة .

والإمام الشافعي رحمه الله : كانت ولادته : سنة خمسين ومائة ، وتوفي : سنة أربع ومائتين ، وعاش أربعا وخمسين سنة .

والإمام أحمد رحمه الله : كانت ولادته : سنة أربع وستين ومائة ، وتوفي : سنة واحد وأربعين ومائتين ، وعاش سبعا وسبعين سنة .

ثم إن الإمام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله من المعلوم أنه يقال له : «الأعظم» بسبب فضائله . وفي رأيي أنه من ناحية عمره أيضاً يعتبر الأعظم بالنسبة لغيره .

وتكملة للفائدة : أذكر أزمنة أئمة الحديث الستة المشهورين أيضاً :

الإمام البخاري : ولد عام ١٩٤هـ وتوفي عام ٢٥٦ هـ وعاش ٦٢ سنة .

الإمام مسلم : ولد عام ٢٠٤هـ وتوفي عام ٢٦١هـ وعاش ٥٧ سنة .

الإمام أبو داود ولد عام ٢٠٢هـ وتوفي عام ٢٧٥هـ وعاش ٧٣ سنة .

الإمام الترمذي ولد عام ٢٠٩هـ وتوفي عام ٢٧٩هـ وعاش ٧٠ سنة .

الإمام النسائي ولد عام ٢١٥هـ وتوفي عام ٣٠٣ وعاش ٨٨ سنة .

الإمام ابن ماجه ولد عام ٢٠٩هـ وتوفي عام ٢٧٣هـ وعاش ٦٤ سنة .

وأغلب هذه التواريخ والسنين مأخوذة من كتاب «الإكمال» لصاحب «المشكاة» .

الإجتـــهـــاد

وعن الإجتهاد حرر الفاضل الجليل الشيخ المفتي محمد شفيع العثماني في «جواهر الفقه» ص ١٢٢ : إن علماء السلف حددوا للعالم الذي ينبغي تقليده (أي المجتهد) معياراً ، يقول الإمام الكبير الشاه ولي الله المحدث الدهلوي قدس سره في كتابه «عقد الجيد» : حقيقة الإجتهاد على ما يفهم من كلام العلماء : استفراغ الجهد في إدراك الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية الراجعة كلياتها إلى أربعة أقسام : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ويفهم من هذا : أنه أعم من أن يكون استفراغاً في إدراك حكم ما سبق التكلم فيه من العلماء السابقين أولا ، وافقهم في ذلك أو خالف ، ومن أن يكون ذلك بإعانة البعض في التنبيه على صور المسائل والتنبيه على مآخذ الأحكام من الأدلة التفصيلية أو بغير إعانة منه ، فما يظن فيمن كان موافقاً لشيخه في أكثر المسائل ، لكنه يعرف لكل حكم دليلاً ويطمئن قلبه بذلك الدليل وهو على بصيرة من أمره : أنه ليس بمجتهد ظن فاسد ، وكذلك ما يظن من أن : المجتهد لا يوجد في هذه الأزمنة اعتماداً على الظن الأول بناء على فاسد .

وشرطه : أنه لا بد له أن يعرف من الكتاب والسنة ما يتعلق بالأحكام ، ومواقع الإجماع وشرائط القياس وكيفية النظر وعلم العربية والناسخ والمنسوخ وحال الرواة ، ولا حاجة إلى الكلام والفقه «أي الإصطلاحي» ... وهذا الذي ذكرناه من شرط الإجتهاد مبسوط في كتب الأصول ، ولا بأس أن نورد كلام البغوي في هذا الموضع ، قال البغوي : والمجتهد : من جمع خمسة أنواع من العلم : علم كتاب الله عز وجل ، وعلم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقاويل علماء السلف من إجماعهم واختلافهم ، وعلم اللغة ، وعلم القياس وهو طريق استنباط الحكم من الكتاب والسنة إذا لم يجده صريحاً في نص كتاب أو سنة أو إجماع ،فيجب أن يعلم من علم الكتاب الناسخ والمنسوخ و .. (ثم ذكر ما سبق

ذكره في ذيل «العمل بالقرآن») ثم قال : ويعرف من السنة هذه الأشياء - ويعرف منها الصحيح والسقيم و .. ثم ذكر ما سبق ذكره في ذيل «العمل بالحديث» ثم قال : وكذلك يجب أن يعرف من علم اللغة ما أتى في كتاب أو سنة في أمور الأحكام دون الإحاطة بجميع لغات العرب ، وينبغي أن يتحرج فيها بحيث يقف على مرامي كلام العرب فيما يدل على المراد من اختلاف المحال والأحوال ، لأن الخطاب ورد بلسان العرب فمن لم يعرفه لا يقف على مراد الشارع . ويعرف أقاويل الصحابة والتابعين في الأحكام ومعظم فتاوى فقهاء الأمة حتى لا يقع حكمه مخالفاً لأقوالهم فيكون فيه خرق الإجماع ، وإذا عرف من كل من هذه الأنواع معظمه ، فهو حينئذ مجتهد ، ولا يشترط معرفة جميعها بحيث لا يشذ عنه شيء منها ، وإذا لم يعرف نوعاً من هذه الأنواع فسبيله التقليد ، انتهى .

وذكر العلامة ابن قدامة الحنبلي رحمه الله في «كتاب المغني» جـ ١١ ص ٣٨٣ :

«فمن شرط الإجتهاد معرفة ستة أشياء : الكتاب والسنة والإجماع والإختلاف والقياس ولسان العرب ، أما الكتاب : فيحتاج أن يعرف منه عشرة أشياء: الخاص والعام والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والمجمل والمفسر والناسخ والمنسوخ في الآيات المتعلقة بالأحكام وذلك نحو خمسمائة ، ولا يلزمه معرفة سائر القرآن ، فأما السنة : فيحتاج إلى معرفة ما يتعلق منها بالأحكام دون سائر الأخبار من ذكر الجنة والنار والرقائق ، ويحتاج أن يعرف منها ما يعرف من الكتاب ، ويزيد معرفة المتواتر والآحاد والمرسل والمتصل والمسند والمنقطع والصحيح والضعيف ، ويحتاج إلى معرفة ما أجمع عليه وما اختلف فيه ، ومعرفة القياس وشروطه وأنواعه وكيفية استنباط الأحكام ، ومعرفة لسان العرب فيما يتعلق بما ذكرنا ليعرف به استنباط الأحكام من أصناف علوم الكتاب والسنة ، وقد نص أحمد على اشتراط ذلك للفتيا) ، انتهى .

وقال الحافظ ابن القيم في «إعلام الموقعين» ج ١ ص ٤٦ : .

قال الشافعي فيما رواه عنه الخطيب في «كتاب الفقيه والمتفقه» له : لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله بناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، وتأويله

وتنزيله ، ومكيه ومدنيه ، وما أريد به ، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناسخ والمنسوخ ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ، ويكون بصيراً باللغة ، بصيراً بالشعر ، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن . ويستعمل هذا مع الإنصاف ويكون بعد هذا مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار ، وتكون له قريحة بعد هذا ، فإذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام ، وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتي .

وقال صالح به أحمد : قلت لأبي : ما تقول في الرجل يسأل عن الشيء فيجيب بما في الحديث وليس بعالم في الفقه ؟ فقال : ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بالسنن عالماً بوجوه القرآن ، عالماً بالأسانيد الصحيحة ـ وذكر الكلام المتقدم .

وقال علي بن شقيق : قيل لابن المبارك : متى يفتي الرجل ؟ قال : إذا كان عالماً بالأثر بصيراً بالرأي .

وقيل لحيي بن أكثم : متى يجب للرجل أن يفتي ؟ فقال : إذا كان بصيراً بالرأي بصيراً بالأثر .

قلت : يريدان بالرأي : القياس الصحيح والمعاني والعلل الصحيحة التي علق الشارع بها الأحكام ، وجعلها مؤثرة فيها طرداً وعكسا ، انتهى .

ويقول الإمام الجليل ولي الله الدهلوي في «عقد الجيد» أيضاً ص ٥ : وإذا عرف من كل من هذه الأنواع معظمه فهو حينئذ مجتهد .. وقد صرح الرافعي والنووي وغيرهما ممن لا يحصى كثرة : أن المجتهد المطلق الذي مر تفسيره على قسمين : مستقل ومنتسب ، ويظهر من كلامهم : أن المستقل يمتاز عن غيره بثلاث خصال : إحداها : التصرف في الأصول التي عليها بناء مجتهداته ، وثانيتها : تتبع الآيات والأحاديث والآثار لمعرفة الأحكام التي سبق بالجواب فيها واختيار بعض الأدلة المتعارضة على بعض ، وبيان الراجح من محتملاته والتنبيه لمآخذ الأحكام من تلك الأدلة . والثالثة : الكلام في المسائل التي لم يسبق بالجواب فيها أخذاً من تلك الأدلة . والمنتسب : من سلم أصول شيخه واستعان بكلامه كثيراً في تتبع الأدلة والتنبيه للمآخذ ـ وهو مع ذلك مستيقن بالأحكام من قبل أدلتها ، قادر على استنباط

المسائل منها قل ذلك منه أو كثر ، وإنما تشترط الأمور المذكورة في المجتهد المطلق .

وأما الذي هو دونه في المرتبة : فهو مجتهد في المذهب ، وهو مقلد لإمامه فيما ظهر فيه نصه لكنه يعرف قواعد إمامه وما بني عليه مذهبه ، فإذا وقعت حادثة لم يعرف لإمامه نصا فيها : اجتهد على مذهبه ، وخرجها من أقواله وعلى منواله .

ودونه في المرتبة : مجتهد الفتيا ، وهو المتبحر في مذهب إمامه المتمكن من ترجيح قول على آخر ووجه من وجوه الأصحاب على آخر ، والله أعلم ، انتهى .

وقد ذكر العلامة الجليل ابن عابدين الشامي في رسالة «شرح عقود رسم المفتي» : إن الفقهاء سبع طبقات :-

الأولى : طبقة المجتهدين في الشرع : كالأئمة الأربعة ومن سلك مسلكهم في تأسيس قواعد الأصول واستنباط أحكام الفروع عن الأدلة الأربعة من غير تقليد لأحد لا في الفروع ولا في الأصول .

الثانية : طبقة المجتهدين في المذهب : كأبي يوسف ومحمد وسائر أصحاب أبي حنيفة القادرين على استخراج الأحكام عن الأدلة المذكورة على حسب القواعد التي قررها أستاذهم ، فإنهم وإن خالفوه في بعض أحكام الفروع لكنهم يقلدونه في قواعد الأصول .

الثالثة : طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب : كالخصاف وأبي جعفر الطحاوي وأبي الحسن الكرخي وشمس الأئمة الحلواني وشمس الأئمة السرخسي وفخر الإسلام البزدوي وفخر الدين قاضي خان وغيرهم ، فإنهم لا يقدرون على مخالفة الإمام لا في الأصول ولا في الفروع ، لكنهم يستنبطون الأحكام من المسائل التي لا نص فيها عنه على حسب أصول قررها ومقتضى قواعد بسطها .

الرابعة : طبقة أصحاب التخريج من المقلدين : كالرازي وأضرابه ، فإنهم لا يقدرون على الإجتهاد أصلا ، لكنهم لإحاطتهم بالأصول وضبطهم للمأخذ : يقدرون على

تفصيل قول مجمل ذي وجهين وحكم محتمل لأمرين منقول عن صاحب المذهب أو عن أحد من أصحابه المجتهدين برأيهم ونظرهم في الأصول والمقايسة على أمثاله ونظائره من الفروع .

الخامسة : طبقة أصحاب التخريج من المقلدين : كالقدوري وصاحب الهداية ، وشأنهم : تفضيل بعض الروايات على بعض آخر بقولهم : هذا أولى ، وهذا أصح رواية ، وهذا أوضح ، وهذا أوفق للقياس ، وهذا أرفق للناس .

السادسة : طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين الأقوى والقوي والضعف ، وظاهر الرواية وظاهر المذهب والرواية النادرة : كأصحاب المتون المعتبرة كصاحب الكنز وصاحب المختار وغيرهم .

السابعة : طبقة المقلدين الذين لا يقدرون على ما ذكر ، ولا يفرقون بين الغث والسمين ، ولا يميزون الشمال من اليمين ، انتهى .

وقال شيخ الأدب مولانا إعزاز علي رحمه الله في بحثه عن الإجتهاد :

إن الإجتهاد معناه اصطلاحا : «إستفراغ الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي» .

ثم ذكر شرائط الإجتهاد التي ذكرناها سابقاً ، ثم قال : هذه الشروط هي آلة المجتهد ، ومن ادعى الإجتهاد وهو خال عنها فمثله كمثل من يدعي أن في قوته صعود السماء بلا معراج لما علمت من الأدلة المتقدمة ، ولا بد بعد ذلك أن يحصل عنده ملكة بسبب ممارسته هذه العلوم والتأمل في الأدلة يتمكن بها من استنباط الأحكام من أدلتها . لا بد بعد هذه الملكة من تأسيسه قواعد يخرج عليها استنباطاته وتفريعاته كقواعد الشافعي وباقي الأئمة ـ وهذه القواعد هي التي أعجزت الناس عن بلوغ حقيقة مرتبة الإجتهاد . إذ لا يكفي في الإجتهاد : معرفة ما تقدم بدون حصول الملكة المذكورة وتأسيس القواعد المذكورة ، فمن جهل شيئاً مما تقدم أو علم جميعه ولم تحصل له هذه الملكة المتقدمة أو حصلت ولم يؤسس بها

قواعد وادعى الإجتهاد : فقد أخطأ وعليه البيان والإثبات .

إذ السيوطي مع إحاطته : لمّا ادعى الإجتهاد قام عليه أهل عصره ، فقد قال المناوي : وقد قامت عليه أي السيوطي بذلك القيامة ولم يُسلم له في عصره ، وطلبوا أن يناظروه فامتنع ، ثم قال المناوي بعد ذلك : وكتبوا له : حيث تدعي الإجتهاد فعليك بالإثبات ليكون الجواب على قدر الدعوى فتكون صاحب مذهب خامس .

قال العلامة الشهاب ابن حجر المكي : لما ادعى الجلال ذلك : قام عليه معاصروه ورموه عن قوس واحد ، وكتبوا له سؤالاً فيه مسائل أطلق الأصحاب فيها وجهين وطلبوا منه أنه إن كان عنده أدنى مراتب الإجتهاد وهو اجتهاد الفتوى فليتكلم على الراجح من تلك الأوجه بدليل على قواعد المجتهدين ، فرد السؤال من غير كتابة واعتذر : بأن له أشغالاً تمنعه عن النظر في ذلك .

قال الشهاب : فتأمل صعوبة هذه المرتبة ، أعني اجتهاد الفتوى الذي هو أدنى مراتب الإجتهاد ، يظهر لك ان مدعيها فضلاً عن مدعي الإجتهاد المطلق في حيرة من أمره وفساد في فكره ، وانه ممن ركب متن عمياء وخبط خبط عشواء ، قال : ومن تصور مرتبة الإجتهاد المطلق استحى من أن ينسبها لأحد من أهل هذه الأزمنة ، بل قال ابن الصلاح ومن تبعه : انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة ، ولابن الصلاح نحو الثلاثمائة فتكون انقطعت من نحو ستمائة أي إلى زمن السيوطي بل نقل ابن الصلاح عن الأصوليين : أنه لم يوجد بعد عصر الشافعي مجتهد مستقل إلى هنا ، انتهى .

ثم قال : وإذا كان بين الأئمة تراء طويل في أن إمام الحرمين وحجة الإسلام الغزالي وناهيك بهما ـ هل هما من أصحاب الوجوه الذين هم أقل من المجتهدين او لا ؟ فما ظنك بغيرهما ـ بل قال الأئمة عن البحر : إنه لم يكن من أصحاب الوجوه ، هذا مع قوله :

لو ضاعت نصوص الشافعي لأمليتها من صدري .

فإذا لم يتأهل هؤلاء الأكابر لمرتبة الإجتهاد المذهبي ، فكيف يسوغ لمن لم يفهم أكثر عباراتهم على وجهها : أن يدعي ما هو أعلى من ذلك وهو الإجتهاد المطلق ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . وفي «الأنوار» عن الإمام الرافعي : القوم كالمجمعين على ان لا مجتهد اليوم .

انتهى مختصراً ، وله كلام طويل نفيس جدير بالمطالعة .

وقد نشرت مجلة «الداعي» الصادرة من ديوبند للمحدث المحقق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي نفع الله بعلومه المسلمين كلمة جليلة جامعة ومختصرة يقول فيها ما ملخصه : إن الإجتهاد الذي يقول عنه العلماء أنه قد أغلق بابه منذ سنة كذا وكذا المراد به : الإجتهاد المطلق . وقد صرح به ابن الصلاح وابن حجر المكي . بل إن ابن الصلاح رحمه الله نقل عن بعض الأصوليين : أنه لم يوجد أي مجتهد بعد الإمام الشافعي رحمه الله ، ويقول الإمام عبد الوهاب الشعراني : إنه لم يدع الإجتهاد المطلق أحد بعد الأئمة الأربعة سوى الإمام ابن جرير الطبري ولكنه لم تقبل منه هذه الدعوى ـ هذا من الناحية التاريخية ـ وأما أنه هل من الممكن أن يوجد مجتهد مطلق مستقل بعد الأئمة الأربعة أم لا ؟ فيقول الإمام الشعراني رحمه الله : نعم يمكن ذلك ـ لأن الله قادر على كل شئ ـ ولا دليل على عدم إمكان هذا .

ويقول العلامة الشيخ عبد الحي اللكنوي رحمه الله : إن من يدعي : أنه لا يمكن وجود مجتهد بعد الأئمة الأربعة فهذا خطأ وغير صحيح ، وإنما لو ادعى أنه لم يوجد إلى الآن من بعد الأئمة الأربعة من ادعى الإجتهاد وسلم له الجمهور ذلك ، فهذا مسلم ولا شك فيه ، انتهى .

حصر الأئمة المجتهدين المتبوعين في أربعة

يقول الإمام الجليل الشاه ولي الله المحدث الدهلوي في «عقد الجيد» ص ١٤: اعلم أن في الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمة وفي الإعراض عنها كلها مفسدة كبيرة ، ونحن نبين ذلك بوجوه :

أحدها : أن الأمة اجتمعت على أن يعتمدوا على السلف في معرفة الشريعة ، فالتابعون اعتمدوا في ذلك على الصحابة ، وتبع التابعين اعتمدوا على التابعين ، وهكذا في كل طبقة اعتمد العلماء على من قبلهم ، والعقل يدل على حسن ذلك . لأن الشريعة لا تعرف إلا بالنقل والإستنباط ، والنقل لا يستقيم إلا بأن تأخذ كل طبقة عمن قبلها بالإتصال ، ولا بد في الإستنباط أن تعرف مذاهب المتقدمين لئلا يخرج عن أقوالهم فيخرق الإجماع ويبني عليها ، ويستعين في ذلك كل بمن سبقه ، لأن جميع الصناعات كالصرف والنحو والطب والشعر والحدادة والنجارة والصياغة لم تتيسر لأحد إلا بملازمة أهلها ، وغير ذلك نادر بعيد لم يقع وإن كان جائزاً في العقل ، وإذا تعين الإعتماد على أقاويل السلف فلا بد من أن تكون أقوالهم التي يعتمد عليها مروية بالإسناد الصحيح أو مدونة في كتب مشهورة ، وأن تكون مخدومة بأن يبين الراجح من محتملاتها ، ويخصص عمومها في بعض المواضع ، ويقيد مطلقها في بعض المواضع ، ويجمع المختلف منها ويبين علل أحكامها ، وإلا لم يصح الإعتماد عليها ، وليس مذهب في هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة إلا هذه المذاهب الأربعة . اللهم إلا مذهب الإمامية والزيدية وهم أهل البدعة لا يجوز الإعتماد على أقاويلهم .

وثانيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اتبعوا السواد الأعظم» ، ولما اندرست المذاهب الحقة إلا هذه الأربعة كان اتباعها : اتباعاً للسواد الأعظم ، والخروج عنها خروجاً عن السواد الأعظم .

وثالثها : أن الزمان لما طال وبعد العهد ، وضيعت الأمانات :لم يجز أن يعتمد على أقوال علماء السوء من القضاء الجورة والمفتين التابعين لأهوائهم حتى ينسبوا ما يقولون إلى بعض من اشتهر من السلف بالصدق والديانة والأمانة إما صريحاً أو دلالة وحفظ قوله ذلك ، ولا على قول من لا ندري هل جمع شروط الإجتهاد أو لا ، فإذا رأينا العلماء المحققين في مذاهب السلف عسى أن يصدقوا في تخريجاتهم على أقوالهم واستنباطهم من الكتاب والسنة ، وأما إذا لم نر منهم ذلك فهيهات ، انتهى .

ويقول العلامة الشيخ المفتي محمد شفيع الديوبندي في «جواهر الفقه» ص ١٣١ في رده على سؤال : أنه لماذا يقلد الأئمة الأربعة فقط ؟ والم يوجد في السلف إمام على درجتهم ليقلد ؟ وهل ورد حكم تقليد الأئمة الأربعة في أي نص ؟

فأجاب نور الله مرقده : إن انتهاء سلسلة التقليد على الأئمة الأربعة ليس بأمر عقلي ولا شرعي بل إنه اتفاقي محض ، حيث أنه بمشيئة الله عز وجل اندرست جميع المذاهب سوى هذه المذاهب الأربعة وأصبحت وكأنها لم تكن ، ووجود خمسين أو مائة مسألة منقولة عن أحدهم لا يمكن أن يقال عنها : إنها مذهب فلان يقلده الناس ، لأنهم لو قلدوهم في هذه الخمسين أو المائة مسألة فماذا يفعلون في الآلاف وعشرات الآلاف من المسائل والأحكام الأخرى ؟ وعندما رأينا أن جميع المذاهب سوى هذه الأربعة قد اندرست : لم يبق لدينا سبيل سوى حصر التقليد في هذه الأربعة اضطراراً ، لذا تجد ابن خلدون في مقدمة تاريخه عند الكلام على مذهب الظاهرية يقول : ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وإنكار الجمهور على منتحليه ولم يبق إلا في الكتب المجلدة .

وفيها أيضاً صرح بقوله : «ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون عن سواهم ... إلخ» ، انتهى .

واتفق الجميع على هذا ، ولم يبق فيه أي خلاف بينهم - وعندما كثرت الإصطلاحات المختلفة في العلوم وصعب الوصول إلى مرتبة الإجتهاد «لعدم وجود الشروط اللازمة له» ، وعندما خيف أن ينسب الإجتهاد إلى غير أهله وإلى الذين لا يعتمد على دينهم ولا على

رأيهم : فحينئذ صرح العلماء بالعجز عن الإجتهاد وقيدوا الناس على أن يخصصوا لهم واحداً من هؤلاء الأئمة الأربعة للتقليد ، ومنعوهم من تقليد إمامين منهم أيضاً في وقت واحد فإنه تلاعب وتلفيق ، وأما غير هؤلاء المتبوعين من الأئمة فلم يبق إلا نقول أقوالهم في الكتب ، وليست لهم كتب فقهية مستقلة دونت فيها أقوالهم وآراؤهم ، وبدأ كل مقلد بعد تصحيح الأصول واتصال السند بالعمل بمذهب إمامه ، وانحصر حصول الفقه في هذا الزمان على تقليد مذهب هذا الإمام فقط .

والآن في هذا الزمان دعوى أي مدع للإجتهاد : مردودة غير مسلمة ، وتقليده مهجور متروك . وقد اتفق أهل الإسلام في هذا الزمان على تقليد الأئمة الأربعة .

يقول الإمام ابن الهمام في «فتح القدير» : انعقد الإجماع على عدم العمل بالمذاهب المخالفة للأئمة الأربعة .

ويقول العلامة ابن حجر المكي رحمه الله في «فتح المبين شرح الأربعين» : أما في زماننا فقال أئمتنا : لا يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة : الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد ، انتهى .

فاصبحت مطالبة أحدهم الدليل على أنه لم انحصر التقليد في الأئمة الأربعة فقط في غير محله ، ومثال ذلك : مثال شخص كان له أولاد كثيرون ومات بعضهم ، حتى أنه عندما مات الأب لم يبق من أولاده هؤلاء أحياء إلا أربعة فقط ، فحتما سينحصر إرث الأب في هؤلاء الأولاد الأربعة الأحياء فقط . مع أنه كان للأب المتوفى : أولاد غيرهم أيضاً ، ولكنك لا تجد أحداً يعترض على أنه : لم انحصر إرث الأب في الأولاد الأربعة فقط ؟ ولو اعترض أحد فرضاً فلا يكون الجواب إلا : أن هذه مشيئة الله وقضاؤه سبحانه المحيي والمميت .

وقد قال العلامة الفاضل الملاّ جيون رحمه الله في «التفسير الأحمدي» : والإنصاف : أن انحصار المذاهب في الأربعة : إنما هو فضل إلهي وقبولية من عند الله تعالى لا مجال فيها للتوجيهات والأدلة ، (جواهر الفقه) .

التقليد

مادام قد انغلق باب الإجتهاد وانحصرت المذاهب في مذاهب الأئمة الأربعة فوجب إذن تقليدهم ، والذين يقولون عن التقليد : إنه شرك يجهلون حقيقة التقليد ، فإن التقليد (نعوذ بالله وحاشا) ليس بشئ مستقل في مقابل سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل إن التقليد هو استسلام للأحكام التي استنبطها الأئمة الكرام من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وآثار الصحابة رضي الله عنهم ، لأن التقليد عرف بقولهم : «إنه قبول غير المجتهد لقول المجتهد في الأحكام الفقهية الفرعية ولا يطالبه بالدليل عليها ، معتمداً على : أن المجتهد لديه دليل عليها» .

وقد روى الإمام أبو داود في سننه عن جابر رضي الله عنه قال : خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ قالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات . فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال : قتلوه قتلهم الله تعالى ، ألا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العي السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو ليصب ... إلخ الحديث .

أنظر هؤلاء أفتوا على ظاهر لفظ قوله تعالى : «فلم تجدوا ماء» ، مع أن الإجتهاد والفتوى لها شروط كثيرة وقد ذكرناها في السابق ، لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في فتاواه جـ ٢٠ ص ٢٠٣ : «والذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة ، والتقليد جائز في الجملة .. وأن الإجتهاد جائز للقادر على الإجتهاد والتقليد جائز للعاجز عن الإجتهاد» . ويقول في مقام آخر ج ٢٠ ص ٢٠٩ :- «واتباع شخص لمذهب شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته إنما هو مما يسوغ له ، ليس هو مما يجب على كل أحد إذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق» ، انتهى .

وذكر العلامة أبو الوليد الباجي المالكي شارح الموطأ في كتابه «الحدود في الأصول» عن التقليد : إنه قبول قول من يقلده بدون دليل وإن علم دليله ، وهو «أي التقليد» فرض في حق من لا يقدر على الإجتهاد .

وذكر الإمام الكنكوهي نور الله مرقده في رسالة له نقلها الشيخ محمد شفيع «المفتي الأعظم بباكستان رحمه الله» في كتابه «جواهر الفقه» يقول: قولكم : «إن اعتقاد وجوب التقليد الشخصي بدعة سيئة» أقول : إن التقليد الشخصي مباح عندكم كما اعترفتم بذلك في أعلاه ، ولكنكم لم تفهموا أنه ما معنى المباح ؟ وقد خالفتم بقولكم هذا الأخير المنقول والمعقول معا ، فإن التقليد نفسه «أي التقليد المطلق» فرض لقوله تعالى «فاسألوا أهل الذكر» الآية . ولقوله صلى الله عليه وسلم : «إنما شفاء العي السؤال» وهذا بدهي أيضاً ، لأن الدين لا يمكن أن نحصل عليه بدون التعلم إذ لا علاقة للعقل والحس فيه «أي بدون النقل» ، لذا فإن التقليد مطلقاً فرض «أي على الذي لا يقدر على الإجتهاد» أعتقد أنكم أيضاً تقرون بهذا وإلا أثبتناه لكم .

ثم التقليد له صورتان : الأولى : التقليد الشخصي ، والأخرى : التقليد غير الشخصي ، لأنهما جزءان لجنس واحد ، وإن شئت فقل عنه «جنس وله نوعين» ، أو أنه «مطلق وله فردين مقيدين» ، أو أنه «كلي وله جزئين» قرر عنها كما تشاء . وعلى كل : فهما نوعان من التقليد لتحقيق التقليد المطلق الذي هو فرض .

والآن أسألك : إذا كان الشيء أصله فرض فكيف يكون أحد نوعيه الذي يتحقق الأصل به مباحاً ؟ يا عبد الله إن الفرض والمباح حكمان متباينان لبعضهما ، فكيف يكون أحد نوعي الجنس من غير نوع الجنس الآخر ؟ فكر قليلا يا أخي : إن التقليد المطلق فرض ، فهل يكون التقليد الشخصي مباحاً مع أن التقليد الشخصي هو أحد النوعين لتحقيق التقليد المطلق . فعلم أن سوء الفهم كله نشأ من هنا .

لذا فافهم أن التقليد بنوعيه فرض إن كان شخصياً أو غير شخصي ، وليس أيا منهما مباح ، إلا أنه بما أن هناك تخيير في امتثال أمر التقليد فلك الخيار أن تختار أي النوعين شئت ،

فإن اخترت أحد نوعيه فلا حاجة إلى النوع الآخر ، إنما إذا لم تختر أي واحد من النوعين فإنك تؤثم ، وقيل لهذا التخيير : إنه مباح مجازاً ، وليس أن التقليد الشخصي بذاته مباح ، ومثاله : إن في كفارة القسم مثلاً تكون نفس الكفارة فرضاً ، والتخيير في الإطعام والكسوة والرقبة ، فإن أديت أحد الثلاثة برأت من القسم ، وإن لم تؤد أحد الثلاثة فتؤثم ، وهذا حال جميع الكليات .

فإن المطلق الشرعي يكون فرضاً ، ويقال لأحد أنواعه مباحاً باعتبار الإباحة في اختيار أحد أنواع تحقيقه ، انتهى . والرسالة طويلة جديرة بالمطالعة .

ونقل عن الإمام النانوتوي نور الله مرقده أنه قال في إحدى رسائله : (أما بالنسبة للتقليد فلا ريب في أن دين الإسلام واحد ، والمذاهب الأربعة كلها حق ، ولكن كما أنه في الطب مثلاً سواء كان الطب « اليوناني أو الهيموبيتك أو الطب الحديث » فالأطباء المعترف بهم يحق لكل شخص أن يتعالج عند من شاء منهم وكل واحد منهم أهل ليعالج المرضى . ولكن عند اختلاف آراء الأطباء في معالجة شخص ما : يكتفى بعلاج واحد منهم فقط كلياً وفي كل شيء ، « فعلى رأيه تؤخذ الأدوية وعلى رأيه تكون نوعية الغذاء وعلى رأيه تترك بعض الأشياء وهكذا » ويترك العمل بآراء بقية الأطباء ويتعين العلاج على رأي واحد فقط ، وهذا واقع ومشاهد ومعلوم لدى الجميع . فهكذا أيضاً بالنسبة للأئمة عند اختلافهم يتبع أحدهم كلياً وفي كل شيء يكتفى باتباعه دون غيره من الأئمة .

وكما أنه يحدث في الطب أن بعض المرضى يترك العلاج عند بعض الأطباء ويذهب إلى طبيب آخر ويتعالج لديه فيجعل علاجه كلياً عند هذا الأخير ، هكذا حدث لبعض المشايخ في السابق : أنهم تركوا مذهباً لوجه من الوجوه والتزموا بمذهب آخر واتبعوه . ولكن لم يفعلوا أن أخذوا شيئاً من هذا المذهب وشيئاً من هذا فيفتحوا بعملهم باباً خامساً للامذهبية ، فالإمام الطحاوي مثلاً كان شافعياً ثم صار حنفياً ، وبالجملة فلا مخرج من التقليد . لذلك ترى أنه وجد ملايين العلماء والمحدثين وكلهم أخذ بالتقليد . أنظر الإمام الترمذي ما أعظم شأنه في العلم والحديث والتفقه وهو صاحب السنن مع كماله وفضله هذا

كان مقلداً ، وسننه خير دليل على ذلك . فإذا كان أمثال هؤلاء مع كمالهم مقلدين فالترمذي قلد الإمام الشافعي ، والطحاوي والإمام محمد الشيباني والإمام أبو يوسف قلدوا الإمام أبا حنيفة ، فأي عالم بعد هؤلاء تراه اليوم يستغني عن التقليد .

ثم إن وجد هناك عالم كبير لم يقلد إماماً مثلاً فما يغني ذلك ؟

أولاً : من يسمع لواحد أو اثنين من العلماء مقابل ملايين العلماء ؟ أي عاقل تسأله يقول لك : إن ما ذهب إليه العالم كله بصغيره وكبيره حتماً هو الحق . ثم وهل من المعقول أن نختار نحن الجهلاء مسلك العلماء . وهذا مثاله : مثال المريض الجاهل يرى أحد الأطباء مرض فعالج نفسه بنفسه ولم يتعالج عند طبيب آخر ، ففكر هذا الجاهل أيضاً أن يختار نفس الطريقة وأراد أن يعالج نفسه بنفسه ورأيه واستغني عن الأطباء ، فأسألك بأنه ماذا يقال عن هذا الشخص ؟ عاقل أم مجنون ؟.

فهكذا إذا رأى جاهل عالماً يترك التقليد فأراد بذلك أن يستغني هذا الجاهل أيضاً عن التقليد ، فلا أقول إلا : إن العلم لم يكن من قبل لدي هذا والآن بعمله هذا دل : على أن لا عقل له أيضاً .

واليوم المنتسبون إلى العلم والذين يقال لهم علماء : أكثرهم إن لم أقل كلهم في حكم الجهلاء . بل إن بعض العلماء في الحقيقة أجهل من الجهلاء تراهم يتأبطون كتاباً أو كتابين ويخرج ليعظ الناس وبينه وبين العلم بعد المشرقين يظن نفسه عالماً وهو جاهل . فإن العالم هو من يستطيع على الأقل : أن يدرس الطلبة كل كتاب من جميع أبواب العلوم (جواهر الفقه ص ١٣٥) .

وفي مكاتيب شيخ الإسلام حسين أحمد المدني نور الله مرقده رسالة طويلة باسم الشيخ أبي الليث أمير «الجماعة الإسلامية» السابق ، رداً على رسائله يذكر فيه ما ترجمته بالعربية : «إن مولانا محمد حسين البتالوي رحمه الله وكان من أئمة اللامذهبيين المتحمسين ومدافعاً قوياً للامذهبية وناشرها في الهند يقول في مجلته «إشاعة السنة» المجلد الثاني : بعد تجربة خمس وعشرين سنة علمنا : أن الناس الذين يصيرون مجتهدين مع كونهم جهلاء «غير

علماء» ويتركون التقليد مطلقاً تجدهم في النهاية ينفضون أيديهم حتى من الإسلام ، فبعضهم يختار المسيحية ، وبعضهم يختار الإلحاد ، فلا يتقيدون بدين ولا مذهب ، وما الفسق والخروج عن أحكام الشريعة إلا النتيجة الأولى للتحرر وعدم التقليد . إن هؤلاء الفسقة تراهم يجاهرون بترك الجمعة والجماعات وحتى يتركون الصلاة والصوم بأصله . فلا تقوى ولا ورع ولا احتراز حتى عن الربا والخمر وغيرها من الكبائر المحرمات ، ومن يتحاشى منهم عن هذه المحرمات الظاهرة لمصالح دنيوية تراهم يتخبطون في الفسق المخفي ليلاً ونهاراً فيستأسرون النساء بطرق ملتوية في عقودهم ويتحصلون على أموال الله وعباده وحقوقهم بحيل محرمة وطرق باطلة . صحيح أن أسباب الكفر والإرتداد والفسق كثيرة في العالم ، ولكن بالنسبة لخروج المتدينين عن الدين والتدين ، وابتلائهم بالفسق والفجور يعتبر ترك التقليد وإنكاره مع عدم وجود العلم سبباً هاماً ومصيبة عظمى» انتهى مختصراً ومترجماً .

قلت : وما ذكره شيخ الإسلام المدني عن الشيخ محمد حسين البتالوي كان بعد أن مر الشيخ البتالوي بتجارب كثيرة في حياته .

وقد نقلت في «سوانح قاسمي ص ٢٢ له قصة أخرى قبل هذه بمدة ، وهي أن الشيخ محمد حسين البتالوي كتب للإمام الكبير الشيخ محمد قاسم النانوتوي : بأني أرغب في التحدث إليكم في بعض الأمور في خلوة حيث لا يحضرنا أحد ولو كان من تلاميذكم المخصوصين ، فوافق الإمام النانوتوي على ذلك ، وكتب له بأن يتفضل ، فحضر وقفل الباب عليهما وبدأ الحديث ، فقال الإمام : إن ما نتحدث فيه يجب أن يلاحظ فيه أمران : أحدهما : أن المسألة المبحوث فيها تبينون أنتم فيها مذهب الحنفية وأنا عليَّ أن أبين الدلائل الشرعية عليه . وثانيهما : إني مقلد للإمام أبي حنيفة رحمه الله لذلك فما تعترضون عليه من الأقوال أو ما تحتجون به عليَّ يجب أن يكون للإمام نفسه ولا يكون حجة علي أن الشامي «ابن عابدين» قال كذا أو أن صاحب «فتح القدير» قال كذا إلخ فإني لست بمقلد لهؤلاء ، فوافقا وتحادثا في مسائل «الفاتحة خلف الإمام ، ورفع اليدين ، والتأمين بالجهر ، وغيرها من المسائل الكثيرة» وحسب ما تقرر كان يبين الشيخ مذهب الأحناف والإمام يثبته بالدلائل

المفصلة ، فكان الشيخ البتالوي أحياناً عند سماعه للأدلة يندهش ويتعجب لحسن الإستدلال وقوة الحجة فيتواجد لذلك ويتمايل ويقول : سبحان الله .. سبحان الله ، منبهراً مما سمع ، وعند الإنتهاء من الحديث قال الشيخ محمد حسين البتالوي بتأثر بالغ : أتعجب ياسيدي .. مثلكم ويكون مقلداً ؟ «أي مع هذا العلم الجم والفهم والذكاء وقوة الإستنباط كيف ترضون بالتقليد دون الإجتهاد» ، فأجاب الإمام قدس الله سره ببداهة وبساطة : وأنا أتعجب ! مثلك ولا يكون مقلداً ؟» انتهي مختصراً .

قلت : لقد سمعت هذه القصة من بعض الأكابر وسمعت فيها : أن الإمام النانوتوي قال في آخرها في الرد على الشيخ البتالوي : «إنه يكفي حجة ودليلاً لكون التقليد واجباً : قولكم هذا فيَّ» والله أعلم .

كان أحد زملائي في الدراسة بمظاهر العلوم بعد التخرج قد توظف بمكتبتها ثم لقلة الراتب «لأن الرواتب كانت حينئذ قليلة جداً» ترك الوظيفة وانتقل إلى مدينة عليكره وتوظف لدي طبيب هناك كان من جماعة أهل الحديث «وهم جماعة لا يتقيدون بتقليد أحد من الأئمة الأربعة المتبوعين وإنما يدَّعون التمسك بالحديث الشريف والرجوع إليه في جميع الأحكام وينكرون التقليد ويذمونه بشدة ويبدِّعون فاعله» ، وبعد عدة أيام وصلتني منه رسالة يذكر لي فيها بالتفصيل : النعيم الذي يتمتع به هناك فالراتب مريح جداً والطبيب الذي يعمل لديه يحبه ويكرمه ويجلسه معه على مائدته إلخ ذلك ، وفي آخر الرسالة ذكر أنه واقع هناك في مشكلة عويصة وهي أن الدكتور المذكور في صلاته عندما يرفع رأسه من الركوع يرفع يديه ثم ما يزال رافعاً إياهما إلى أعلى حتى يسجد على نفس هذه الحال . وهو بما أنه متعود على هذه العملية فلا يشق عليه ، ولكن صاحبنا هذا عندما يسجد على تلك الطريقة غالباً ما يحدث أنه يخر ساقطاً على الأرض . وذكر أنه قال للدكتور : إن الشيخ نذير حسين والشيخ ثناء الله يذكران في فتاواهما خفض اليدين بعد رفعهما ، ولكن الدكتور رد عليه بشدة واستنكار قائلاً : إنني لست مقلداً للشيخ نذير حسين أو الشيخ ثناء الله ولو كنت مقلداً أحداً فلم لا أقلد الإمام أبا حنيفة الذي يفوق هؤلاء في العلم والعمل

والتقوى بمراحل ؟ وإنما دُلني على حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم واحتج عليَّ به . وبعد رواية هذه القصة بتفصيلها طلب مني هذا الزميل أن أبحث له عن حديث فيه خفض اليدين بعد رفعهما في القومة حتى تحل مشكلته .

وفي تلك الأيام كنت مشتغلاً بتدريس الحديث الشريف . وفي هذه الساعة لا الرسالة امامي ولا أذكر الموضوع بالضبط ، وإنما أذكر أني نقلت له بعض روايات أبي حميد الساعدي رضي الله عنه من صحيح البخاري وغيره التي فيها «فإذا رفع رأسه استوى حتى يعود كل فقار مكانه» .

تقليد الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله

إن عامة أهل الهند والباكستان (وبنغلاديش) يلتزمون بمذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى . وذلك لأن فاتحي الهند الأوائل كانوا عامة أحنافاً في الفقهيات . فوصل معهم إلى هذه الديار مع الإسلام المذهب الحنفي أيضاً .

وهناك وجوه أخرى أيضاً أدت إلى ترجيح المذهب الحنفي ، وقد ذكرت بعضها بالتفصيل في مقدمتي « لأوجز المسالك إلى موطأ مالك» ومن جملتها :

إن عهد الإمام الأعظم أقرب إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من بقية الأئمة المتبوعين رحمهم الله تعالى كما سبق أن بينا ، حيث ذكرنا بالتفصيل عصور الأئمة الأربعة والمحدثين . فقد ولد الإمام أبو حنيفة سنة ثمانين من الهجرة النبوية أي في القرن الذي توفي فيه الرسول صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أن للثلاثيات أهمية عظيمة في صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث ، وقد ألفت رسائل مستقلة في الثلاثيات وحدها . والثلاثي هو الحديث الذي يكون في سنده بين المحدث وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة رواة فقط : أولهم شيخ المحدث ، والثاني التابعي ، والثالث الصحابي .

والإمام أبو حنيفة رحمه الله على قول الحنفية تابعي روايةً أيضاً ، فلم يتبق إلا الصحابة رضي الله عنهم وهم كلهم عدول .

والذين يقولون عن الإمام أبي حنيفة أنه كان من اتباع التابعين فعليه أيضاً يكون الفقه الحنفي «ثنائياً» أحدهما صحابي «وهم كلهم عدول» والآخر تابعي فإن أستاذ الإمام أبي حنيفة تابعي ، وكل واحد أعلم من غيره بحال أستاذه . لذلك فالطعن في روايات الحنفية والحكم عليها بالضعف جهل بالفن ، فإن الروايات التي يأتي فيها راو ضعيف في الدرجة الثالثة أو الرابعة لا تطعن به روايات الحنفية . وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاواه جـ ٢٠ ص ٢٣٩ : « بل الذين كانوا قبل جمع هذه الدواوين : أعلم بالسنة من المتأخرين

بكثير ، لأن كثيراً مما بلغهم وصح عندهم قد لا يبلغنا إلا عن مجهول أو بإسناد منقطع أو لا يبلغنا بالكلية ، فكانت دواوينهم صدورهم التي تحوي أضعاف ما في الدواوين ، وهذا أمر لا شك فيه من علم القضية» ، انتهى .

ثم يلاحظ : أن الإمام البخاري رحمه الله أورد في صحيحه اثنين وعشرين رواية ثلاثية ، عشرون منها عن تلاميذ الإمام أبي حنيفة أو عن تلاميذ تلاميذه رحمه الله ، فإحدى عشر رواية منها : عن مكي بن إبراهيم ، وهو تلميذ الإمام أبي حنيفة مباشرة ، فقد حكى الموفق عنه : أنه دخل الكوفة ولزم أبا حنيفة وسمع منه الحديث والفقه وأكثر عنه الرواية وكان يحبه حبا شديداً ، حتى قال إسماعيل بن بشر : كنا في مجلس المكي فقال : حدثنا أبو حنيفة ، فصاح رجل غريب : حدِّثنا عن ابن جريج ولا تحدثنا عن أبي حنيفة .. فقال المكي : إنا لا نحدث السفهاء ، حرجت عليك أن تكتب عني ، قم من مجلسي ، فلم يحدث حتى أقيم الرجل من مجلسه ، ثم قال : حدثنا أبو حنيفة و مر به . انتهى .

ثم ست روايات : عن أبي عاصم النبيل الضحاك بن مخلد ، وهذا أيضاً تلميذ للإمام أبي حنيفة . رحمه الله تعالى .

وثلاث روايات : عن محمد بن عبد الله الأنصاري ـ وهذا تلميذ الإمام زفر، وكذلك تلميذ للإمام أبي يوسف القاضي أيضاً ، وبقيت روايتان لا أعلم هل هما من تلاميذ الإمام أو أحد تلامذته أو لا ؟ والله أعلم .

وقد ذكرت في مقدمة «الأوجز» عن الإمام الشعراني رحمه الله أنه قال : قد من الله عليَّ بمطالعة مسانيد أبي حنيفة الثلاثة من نسخة صحيحة عليها خطوط الحفاظ ، فرأيته أن لا يروي حديثاً إلا عن خيار التابعين العدول الثقات الذين هم من خير القرون كالأسود وعلقمة وعطاء وعكرمة ، ومجاهد ومكحول والحسن البصري وأضرابهم ، فكل الرواة الذين بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم عدول ثقات أعلام خيار وليس فيهم كذاب ولا متهم بالكذب ، انتهى .

وقد بسطت في مقدمة «الأوجز» الكلام عن فقه الإمام أبي حنيفة رحمه الله ذكر فيه في الفائدة التاسعة : فيما بني عليه مذهبه ، قال ابن حجر : يتعين عليك أن لا تفهم من أقوال العلماء عن أبي حنيفة وأصحابه أنهم أصحاب الرأي أن مرادهم بذلك : تنقيصهم ولا نسبتهم إلى أنهم يقدمون رأيهم على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على قول أصحابه لأنهم برآء من ذلك ، فقد جاء عن أبي حنيفة من طرق كثيرة ما ملخصه : أنه أولا يأخذ بما في القرآن ، فإن لم يجد فبالسنة ، فإن لم يجد فبقول الصحابة ، فإن اختلفوا أخذ بما كان أقرب إلى القرآن أو السنة من أقوالهم ولم يخرج عنهم ، فإن لم يجد لأحد منهم قولاً لم يأخذ بقول التابعين بل يجتهد كما اجتهدوا ، انتهى .

وقال ابن المبارك رواية عنه : إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة اخترنا ولم نخرج عن أقوالهم ، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم .

وعنه أيضاً : عجباً للناس يقولون أفتى بالرأي ، ما أفتي إلا بالأثر .

وعنه أيضا : ليس لأحد أن يقول برأيه مع كتاب الله ولا مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مع ما أجمع عليه أصحابه ، وأما ما اختلفوا فيه فنتخير من أقاويلهم : أقربهم إلى كتاب الله أو إلى السنة .

وسمعه رجل يقايس آخر في مسألة فصاح : دعوا هذه المقايسة ، فإن أول من قاس إبليس ، فأقبل إليه أبو حنيفة فقال : يا هذا وضعت الكلام في غير موضعه ، إبليس رد بقياسه على الله تبارك وتعالى أمره فكفر بذلك ، وقياسنا اتباع لأمر الله تعالى لأنا نرده إلى كتابه وسنة رسوله وأقوال الأئمة من الصحابة والتابعين ، فنحن ندور حول الإتباع ، فكيف نساوي إبليس لعنه الله ، فقال له الرجل : غلطت وتبت فنور الله قلبك كما نورت قلبي ، انتهى .

وقال ابن حجر : الفصل الأربعون في رد ما قيل إنه خالف فيه صرائح الأحاديث الصحيحة من غير حجة ، وهذا باب واسع جداً .. ثم قال : وسبب صدور ذلك منهم «أي

القائلين» : أنهم استروحوا ولم يتأملوا قواعده وأصوله . ثم ذكر ابن حجر الأصول مفصلاً وقد ذكرتها في «الأوجز» ، فنذكر منها : أن خبر الواحد لا يقبل إذا خالف الأصول المجمع عليها .

ومنها : عمل الراوي بخلاف مرويه ، لأنه يدل على النسخ أو نحوه .

ومنها : تفرده في عموم البلوى بأن يحتاج كل واحد إلى معرفته ، لأن العادة تقضي باستفاضة نقل مثله ، فانفراد واحد به قدح فيه .

ومنها : وروده في حد أو كفارة لسقوطهما بالشبه واحتمال خطأ الراوي المنفرد به شبهة .

ومنها : طعن بعض السلف فيه .

ومنها : وقوع الإختلاف في الصحابة في مسألة ورد فيها خبر الواحد ولم يحتج أحد منهم به ، فإعراضهم عن الإحتجاج به مع شدة عنايتهم بالأحاديث دليل على نسخه أو نحوه .

ومنها : مخالفته لظاهر عموم القرآن ، لأن أبا حنيفة لا يرى تخصيص عمومه ولا نسخه بخبر الواحد لأنه ظني وذاك قطعي ، وتقديم أقوى الدليلين واجب .

ومنها : مخالفته للسنة المشهورة ، ...

وإذا تقرر ذلك : علم منه نزاهة أبي حنيفة مما نسبه إليه أعداؤه والجاهلون لقواعده ، بل لمواقع الإجتهاد من أصلها من تركه لخبر الآحاد لغير حجة ، وأنه لم يترك خبراً إلا لدليل أقوى عنده وأوضح ، انتهى .

قال ابن حزم الظاهري : جميع الحنفية مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة : أن ضعيف الحديث عنده أولى من الرأي ، انتهى .

وحكى العلامة الشعراني رحمه الله عن شقيق البلخي : كان أبو حنيفة من أورع الناس وأعلم الناس وأعبد الناس وأكرم الناس وأكثرهم احتياطاً في الدين وأبعدهم عن القول بالراي في دين الله ، وكان لا يضع مسألة في العلم حتى يجمع أصحابه عليها ويعقد

عليها مجلساً ، فإذا اتفق أصحابه كلهم على موافقتها للشريعة قال لأبي يوسف وغيره : ضعها في الباب الفلاني ، انتهى .

وتقدم في بيان مرتبته في الحديث : إذا وردت عليه المسألة ، قال : ما عندكم من الآثار ؟ فإذا رووها وذكر ما عنده اختار الأكثر ، انتهى ما في «مقدمة الأوجز» .

وقد بسط الكلام في «مقدمة الأوجز» على الإعتراضات على الإمام أبي حنيفة ، وأما أصله هذا : أن خبر الواحد يجب أن لا يكون مخالفاً لظاهر القرآن ولا مخالفاً للسنة المشهورة ، فهو في الحقيقة قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة طلاق فاطمة بنت قيس ، حين روت : أنها شكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن زوجها طلقها فلم يوجب لها رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة ولا سكنى ، فقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد سماعه هذا الخبر منها قوله ، «ما كنا لندع كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندري أحفظت أم لا» .

إذا صح الحديث فهو مذهبي

هذه مقولة مشهورة للأئمة الأربعة رضي الله عنهم نقلت عنهم بألفاظ مختلفة ، ولكن الحافظ نقل أثناء بحث مفصل في «فتح الباري» في «باب رفع اليدين إذا قام من الركعتين» قولاً لابن دقيق العيد في رده على ابن خزيمة : وأما كونه مذهباً للشافعي لكونه قال : «إذا صح الحديث فهو مذهبي» ففيه نظر ، انتهى . قال الحافظ : «ووجه النظر : أن محل العمل بهذه الوصية ما إذا عرف أن الحديث لم يطلع عليه الشافعي ، أما إذا عرف أنه اطلع عليه ورده أو تأوله بوجه من الوجوه فلا» ، انتهى .

وكلام الحافظ ابن حجر رحمه الله صحيح ، فقد أورد الإمام مالك في الموطأ رواية لابن عمر : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع من الركوع رفع يديه» ومع هذا رأي الإمام مالك ومقولته في المدونة معلومة وشهيرة : أن رفع اليدين فيما سوى تكبيرة الإحرام ضعيف عنده ، وأيضاً يقول رحمه الله : إنه لم يجد رفع اليدين في قيام أو قعود . غير تكبيرة الإحرام . وقد بسط عنه في «الأوجز» .

وقد أورد شيخنا في «بذل المجهود» في «باب السارق يسرق مراراً» عدة روايات في قتل السارق في هذه الحال ، ثم نقل بعدها عن الشيخ ابن القيم رحمه الله أنه سئل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : لم تركته ؟ فقال لحديث عثمان : «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث» .. الخ بأنه ليس في هؤلاء الثلاث : السارق مراراً ، وبسط في «البذل» عنه .

وقد أردت أن أبين هنا فقط : أن الإمام أحمد قد وصلت إليه روايات قتل السارق ولكنه لم يعمل بها . وفي الماء : مذهب الإمام أحمد : «القلتين» مع أنه يقول عن حديث بئر بضاعة : إنه صحيح ، كما في «المغني» جـ ١ ص ٢٥ . فثبت أن كلام الحافظ المذكور بأعلاه صحيح .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً في رسالته «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» عشرة وجوه لترك إمام من الأئمة للحديث الشريف ، من جملتها : أن يكون الحديث قد بلغه لكنه لم يثبت عنده ، واشتراطه في خبر الواحد العدل الحافظ شروطاً يخالفه فيها غيره ، واعتقاده أن الحديث معارض بما يدل على ضعفه أو نسخه أو تأويله أن كان قابلاً للتأويل ، وهكذا ذكر عشرة وجوه وأسباب لترك الحديث ، ثم قال : فهذه الأسباب العشرة ظاهرة . وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها ، فإن مدارك العلم واسعة ، ولم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء ، والعالم قد يبدي حجته وقد لا يبديها ، وإذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغنا ، وإذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه ، سواء كانت الحجة صواباً في نفس الأمر أم لا ، انتهى .

وهذا واضح على كل من له ممارسة بالحديث الشريف ، فإن كلا من الأئمة الأربعة وصلت إليه أحاديث صحيحة وصريحة ولكنه لم يأخذ بها لبعض الدلائل القوية الأخرى ، ونفس (رفع اليدين) فيها روايات كثيرة صحيحة لم يأخذ بها أي أحد من الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل الحديث ، وتفصيل البحث في «الأوجز» .

(**تنبيه**) :

هناك أمر مهم جداً يجب التنبيه عليه بشدة ، وهو أنه يجب على كل مقلد لإمام من الأئمة أنه إذا لاحظ شيئاً يخالف رأي إمامه : أن لا يطعن فيه ، بل إنه يجب أن لا يرد في قلبه حتى تصور الطعن في أحد من الأئمة أو السادة المحدثين ، أو الاستخفاف بأقوالهم وآرائهم ، أو إساءة الأدب معهم بأي صورة وعلى أي حال .

وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة هذا موضوعها وهي «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» وهي نفيسة وبديعة في هذا المضمون ، وهي موجودة في فتاواه وقد طبعت مستقلة أيضاً ، يقول فيها : يجب على المسلمين بعد موالاة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم : موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن ، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم

ودرايتهم .. فإن علماء المسلمين خيارهم ، فإنهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته والمحيون لما مات من سنته ، بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا .

وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يعتمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شئ من سنته دقيق ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه .

ثم ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عشرة أسباب لترك الحديث ، وقال بعدها : «فهذه الأسباب العشرة ظاهرة ، وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها» ، انتهى .

وقد رد في رسالته هذه على الطاعنين في الأئمة المجتهدين ، وبين أن المجتهد مع خطأه له أجر ، وذلك لأجل اجتهاده ، وخطأه مغفور له ، وإن أصاب فله أجران ، وأما إن أفتى واجتهد على جهله فإنه يؤثم .

ويقول : بخلاف الذين أفتوا المشجوج في البرد بوجوب الغسل فاغتسل فمات فإنه صلى الله عليه وسلم قال : «قتلوه قتلهم الله ، هلا سألوا إذ لم يعلموا ؟ إنما شفاء العي السؤال» فإن هؤلاء أخطأوا بغير اجتهاد إذ لم يكونوا من أهل العلم» ، انتهى .

وقد ورد في الفتاوى للشيخ ابن تيمية أنه سئل عن الشيخ عبد القادر الجيلاني هل هو أفضل المشايخ ؟ وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه أفضل الأئمة ؟ فأجاب ببحث نفيس جدير بالمطالعة قال فيه : فمن ترجح عنده تقليد الشافعي لم ينكر على من ترجح عنده تقليد مالك ، ومن ترجح عنده تقليد أحمد لم ينكر على من ترجح عنده تقليد الشافعي ونحو ذلك ..ثم قال : إن كان الرجل مقلداً فليكن مقلداً لمن يترجح عنده أنه أولى بالحق ، فإن كان مجتهداً اجتهد واتبع ما يترجح عنده أنه الحق ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وقد قال تعالى :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ لكن عليه أن لا يتبع هواه ولا يتكلم بغير علم .

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية في فتاواه أيضاً جـ ٢٠ ص ٣٠٤ «ومن ظن بأبي حنيفة أو غيره من أئمة المسلمين أنهم يتعمدون مخالفة الحديث الصحيح لقياس أو غيره فقد أخطأ عليهم ، وتكلم إما بظن وإما بهوى ، فهذا أبو حنيفة يعمل بحديث التوضئ بالنبيذ في السفر مخالفة للقياس ، وبحديث القهقهة في الصلاة مع مخالفته للقياس» ، انتهى الخ .

وفي «تذكرة الرشيد» بالأردوية نقل الشيخ مولانا عاشق إلهي في بيان أحوال تدريس الإمام الرباني الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي قدس الله روحه أنه كان يقول : «إني أحب المذهب الحنفي محبة خاصة وأنا مطمئن على حقانيته» .. ومع هذا كان لا يمكن عند ترجيح المذهب الحنفي على غيره بالدلائل والحجج : أن يحصل أي نوع من الإهانة أو التنقيص للمذهب الآخر أو إساءة أدب مع صاحب المذهب ، وكان قدس الله سره العزيز إذا لاحظ ميلان أحد الطلبة إلى شئ من ذلك قوّمه وأصلحه قولاً وعملاً ، حتى أنه كان لا يحبذ تعدي الحد في التقليد نفسه أيضاً .

فكان يحدث أحياناً أن بعض الطلبة في شدة تعصبهم يسئ الظن ببعض المحدثين ، فيغير الإمام الرباني أسلوبه رأساً ويأتي بما يصلح ذاك بحكمة بالغة . وكان إذا سمع من أحد الطلبة كلمة إعتراض أو تنقيص في ذات أحد من المحدثين : كنتَ ترى أن أثر الكراهية من ذلك قد بدى على وجهه ، وحينئذ وفي نفس الساعة وفي نفس الدرس يترك بيان وجوه ترجيح مذهب الحنفية ويشرع في بيان وجوه مذاهب المحدثين الآخرين كالبخاري وغيره رحمهم الله : حتى يحصل حسن الظن بالسادة المحدثين رحمهم الله أجمعين ، انتهى .

وقد نقلت في رسالتي «آب بيتي» بالأردوية في الجزء السادس منها : قصة نقلها حكيم الأمة الإمام العارف التهانوي : أن أحد العلماء تأثر من درس الإمام الكنكوهي قدس الله سره فقال متحمسا : «إن الحديث أيضاً إذا جاءك صار حنفياً – وكان قصده : أنه ما من حديث إلا وتؤيد به للحنفية – ولو كان الإمام الشافعي أيضاً حياً لما استطاع أن يرد

عليك حجتك ، فزجره الإمام الرباني بشدة وقال : ما هذا الذي قلته يا هذا ؟ إن الإمام الشافعي رضي الله عنه لو كان حيا هل تراني كنت تجرأت أن أتفوه بحضرته وماذا تراني أقول له ؟ إنما كنت قلدته وتركت تقليد الإمام أبي حنيفة لأنه لا يناسب في حين وجود المجتهد الحي أن أقلد مجتهداً غير حي» انتهى .

هكذا نقل الشيخ التهانوي ويذكر هذا العاجز في رد الإمام الرباني على هذا الشخص حسب ما سمعته من بعض الأكابر أنه قال : «لو كان الإمام الشافعي حياً : لكان تقريري هذا كله إشكالاً علمياً واهناً ولرد عليه الإمام الشافعي بحجته» .

وفي عهد تدريس هذا الفقير في «مظاهر العلوم» [1] كان عموماً يشرع في الدرس من أول كل عام : يوم الأربعاء ، وكان هذا الفقير بعد ذلك وإلى الأربعاء الأخرى في الأسبوع القادم يبدأ في بيان مقدمة العلم ، ومقدمة الكتاب ، ومتفرقات أخرى ، آخرها بحث : «آداب الطالب» وأبين فيه عشرة أشياء بكل اهتمام وكان حينئذ عهد الشباب والقوة والعزيمة ، «والشباب شعبة من الجنون» ، كنت أبين للطلبة هذه العشرة أشياء في

---

(١) جامعة «مظاهر العلوم» الدينية بسهارنبور – بالهند – الشهيرة في الآفاق ، قد أنجبت رجالاً عظماء خدموا الإسلام والعلم في شتى الميادين وخاصة في خدمة الحديث الشريف ، ذكر الشيخ أبو الحسن الندوي في «القراءة الراشدة» في تاريخها ما ملخصه : «في سنة ١٢٨٣هـ افتتح رجال من أهل العلم والدين وفي مقدمتهم مولانا سعادت علي السهارنفوري الفقيه المشهور مدرسة سهارنفور وفي شوال من العام المذكور تولى رئاسة التدريس بها الأستاذ الكبير مولانا محمد مظهر النانوتوي وبه تسمت المدرسة بمظهر العلوم وزيدت فيها ألف لتنم عن عام بناء بناية المدرسة الخاصة بها يعني عام ١٢٩٣هـ على حساب الجمل ، وفي هذه السنة بدأ المحدث الكبير الشيخ أحمد علي السهارنفوري صاحب حاشية البخاري الشهيرة يدرس كتب الحديث في المدرسة ويشرف على شئونها ، ثم تبوأ رئاسة التدريس الشيخ الصالح والأستاذ الكبير مولانا خليل أحمد الانبهيتوي صاحب «بذل المجهود في حل أبي داود» سنة ١٣١٤هـ فأخذت المدرسة زخرفها وبلغت أوجها في كثرة الطلبة وانتشار الصيت وانتظام الدروس ، ولم تزل مظاهر العلوم متمتعة من أول يومها بحماية أعلام الهند في الدين الصلاح وحازت ثقة المتدينين ، فكانت تلو دار العلوم ديوبند في كثرة الطلبة ونبوغ الأساتذة ، وقد خرجت عدداً كبيراً من العلماء والصالحين والرجال العاملين في ميادين العلم والدين ، ولعلماء مظاهر العلوم وأساتذتها وطلبتها بساطة في المعيشة والقناعة بالكفاف وحسن السمت والتواضع والإقبال الكلي على العلم والدرس والاشتغال بخاصة النفس» ، انتهى كلام الشيخ الندوي مختصراً . قلت : وبجامعة مظاهر العلوم مكتبة زاخرة بكتب التراث النفيسة وفيها مخطوطات نادرة أيضاً .

أول العام الدراسي شفهياً ، ثم طوال بقية العام إن رأيت أحداً خالف في أحدها : كنت أقوم إليه من مقعدي وأصفعه كفا ساخنا ثم أرجع إلى مكاني بدون أن أتفوه بأي كلمة ، فكان الطلبة المستمرون من أول العام يفهمون لِمَ حدث هذا ، ولكن الضيوف الواردين من غير الطلبة أو الطلبة القادمين من مدارس وجامعات أخرى ـ وكانوا كثيراً ما يحضرون ـ يتعجبون من هذا المنظر ، فيضرب طالب في درس الحديث ولا كلمة ولا عتاب ثم يرجع الشيخ إلى مجلسه هكذا ؟ وكان هؤلاء بعد الدرس يسألون الطلبة المداومين عن السبب ؟ فيجيبونهم : بأنه ربما كان المضروب نائماً أو أنه اتكأ بمرفقه على الكتاب أو نحوه .. وهذه الأشياء العشرة أذكر منها :

١ – إخلاص النية .

٢ – المواظبة على الدرس ، ولا تجد في دفتر حضوري لتلك الأيام أمام اسم أي طالب حرف (غ) طوال سنوات عديدة .

٣ – وجوب التراص في الصف .. أي أن الطلبة الجالسين يجب أن يجلسوا متراصين في الصف وبكل أدب وحزم .

٤ – لا نوم في الدرس بتاتا .

٥ – لا يتكئ أحد على الكتاب .

٦ – المواظبة على أن لا يفوت الطالب أي حديث في الدرس أمام الشيخ ، وعدم الحضور للدرس جملة كان يعتبر أخطر جريمة .

٧ – كان من عادتي أنه عندما تأتي في الحديث في ﴿ كتاب الحدود ﴾ وغيرها الكلمات الفاحشة والسب وغيرها : كنت أترجمها من العربية إلى الأردوية بالمعنى الصريح في الأردوية مباشرة وبدون أي إغماز أو كناية وأوضح معناها جيداً ، فكان يشترط وبكل شدة أن لا يضحك أحد من الطلبة أثناء ذلك بتاتا ، وإنما يجب الحزم والوقار التام حينئذ ، وذلك لأنه كان في رأيي دائماً : أن هذه الكلمات في اللغة الأردوية بمفهومها : هي كذلك في اللغة العربية أيضاً ، فلِمَ أتصور أن لساني القذر النجس

أطهر من لسان سيد الكونين صلى الله عليه وسلم أو من لسان الصديق الأكبر رضي الله عنه وغيره رضي الله عنهم ، فإن ما تلفظوا به ولم يترددوا فيه فكيف أتصور أنها سب وبذاءة ؟ ولا أترجمها بحذافيرها بالأردوية ؟ فمثلاً عندما يرد في الحديث الشريف لفظة : «أنكتها» أو لفظة : «أمصص بذر اللات» ونحوها : فإني أترجمها في الدرس بالأردوية بكل صراحة وبالألفاظ الدالة على نفس المعنى بدون كناية باللغة الأردوية ، وهكذا .. ومع هذا كله كان مفهوماً لدى الطلبة بشدة وصرامة : أن لا يضحكوا لذلك بل يلتزموا بالحزم والوقار التام .

٨ – أن يعامل جميع أئمة الفقه بكل أدب واحترام ولا يعترض على أي منهم اطلاقاً ، ولا يتلفظ بشيء يسيء الأدب في حقهم ، بل ولا يتصور الطالب في قلبه إساءة الأدب مع احدهم ، إن بعض الحمقى بناء على تمسكه بالمذهب الحنفي نجده يحمل على بقية الأئمة المتبوعين ، وبعض السفهاء يحمل على أئمة الحديث بكلمات ناقدة ، وهذا مما يؤسف له جداً ، وكنت دائماً أكرهه .

٩ – احترام الأساتذة وإكرامهم ليس ظاهراً فقط بل ويحترمهم بقلبه ، وإلا حرم العلم ، وكذلك إكرام كتب الحديث الشريف أيضاً داخل فيه .

١٠– عدم الإعتراض على أئمة الحديث الشريف .

هذه العشرة ذكرتها هنا مختصراً حسب ما تذكرتها ، ولقد نشر العزيز محمد شاهد سلمه الله تقرير درسي لصحيح البخاري وذكر فيه هذه الأشياء كلها ببعض التفصيل . وقد ذكرتها أيضاً مفصلة في رسالتي «آب بيتي» بالأردوية في «الجزء السادس» منها ، وفيها أيضاً : «الهيئة الشخصية» ، فقد كنت أشدد فيها أيضاً ، وكنت أهتم بأمر اللحية جداً وأتشدد فيه ، وكان من المستحيل أن يشترك مقصر اللحية في الدرس طالباً مداوماً .

وحدث مرة : أن كان أحدهم يقصر لحيته ويشترك في كل الدروس ، وعند جميع المدرسين فلم ينتبهوا لذلك ، وقلت له : لقد شطبت اسمك من درس أبي داود (وكنت حينئذ أدرس سنن أبي داود) ولكنه مع ذلك استمر يداوم على الدرس ، وفي امتحانات

ربع السنة كان اسمه في دفاتر حضور جميع المدرسين إلا دفتر أبي داود ، فظن حضرة الناظم أنه ترك سهواً ، فسألني ؟ وكنت موجوداً في صالة الإمتحانات ، فقلت له : لم يترك اسمه سهواً ، وإنما لأنه كان يقص لحيته شطبت اسمه من درسي ، ومع أن نظام المدرسة كان لا يسمح للمدرس أن يشطب اسم أحد من الطلبة ، فالناظم وحده هو الذي كان له حق الشطب ، ولكن شفقة أكابري عليَّ كانت تجعلني أشطب اسم من أرى من الدفتر بنفسي لسبب كهذا ، وأقول للطالب : بأني قد شطبت اسمك وإن شئت فاذهب واشتكني لفضيلة الناظم .

إن محبة أكابري وسادتي هؤلاء وشفقتهم جعلتني جريئا عليهم ، رفع الله درجاتهم وأعلى مراتبهم لديه ، وعفى عني وغفر لي تقصيراتي بفضله وكرمه .

وبعد هذه القصة بسنة أو سنتين وصلتني رسالة من نفس هذا الشخص الذي كنت شطبت اسمه بأنه يرغب في مبايعتي في الطريق ، فرديت عليه : بأنك قد جربت سوء خلقي ولاحظت تشددي ، ثم إن سيدي الإمام العارف التهانوي وسيدي شيخ الإسلام المدني وسيدي العارف الشيخ الراي بوري وغيرهم من الأكابر وخلفاءهم الكرام موجودون ، فبايع منهم من شئت فإنهم جميعاً خير مني على كل حال وأفضل من كل ناحية ، وأيضاً أحسن مني خلقا . فرد عليَّ برسالة أخرى قال فيها : إن قاسياً مثلي لا يمكن إصلاحه إلا بمثلك .

لقد طال الحديث في الموضوع ، مع أن المقصود كان : بيان أن هذا الفقير كان يشدد دائماً في درس الحديث الشريف على : أن إساءة الأدب سواء كانت مع أئمة الفقه أو مع أئمة الحديث أو الأساتذة والمشايخ إنما هي جريمة شنيعة جداً يجب الإحتراز عنها .

الطـريـقــة

لقد سبق ذكر : أن جبريل عليه السلام سأل الرسول صلى الله عليه وسلم : ما الإحسان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .. الخ الحديث .

والطريقة في الواقع هي : اسم ثان للإحسان المذكور ، أو أنها الطريقة التي يمكن بها الحصول على صفة «الإحسان» ، وهو الذي يقال له : التصوف أو السلوك ، أو سَمِّه بما شئت ، فإنما هي تعبيرات وألفاظ مختلفة ، والمقصود واحد .

إن جدي مولانا الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي طلب من الإمام الرباني الكنكوهي قدس الله سره أن يختلي به ليكلمه ، وهناك قال له : إني كنت قد بايعت في الطريقة مولانا الشيخ محمد يعقوب الدهلوي وأخذت الوصايا والتعليمات من مولانا الشيخ مظفر حسين الكاندهلوي .. وكانت تعليمات الشيخين المذكورين على الطريقة النقشبندية ، وبالعمل على تعليماتهما وخلال ثمانية أيام فقط كانت لطائفي الستة تدور كالبكرة ، ولكني من صغر سني كنت مغرماً باتباع السنة المطهرة في جميع الشئون والمحافظة على الأذكار الواردة في الأحاديث في جميع الأحوال كالذهاب إلى الخلاء والخروج إلى السوق والدخول إلى المساجد والخروج وغير ذلك فكنت أهتم بهذه الأذكار كثيراً جداً ، لذلك لم يشغف قلبي بأعمال المشايخ كثيراً فكنت أعمل المراقبة أحياناً ، ففي عشرة أيام مرة أو في أسبوعين مرة وهكذا ، فهذا حالي والآن وقد طرأ الضعف لكبر السن ، وأرغب أن تكرموني ببعض التعليمات في الطريق ، فسأله الإمام الكنكوهي : هل الأعمال التي تحافظ عليها هذه المذكورة حصلت لك فيها درجة الإحسان ؟ فقال : نعم حاصلة ، فقال له الإمام الرباني حينئذ : إذن فلا حاجة لك إلى أية تعليمات ، لأن الإشتغال بأشغال الصوفية بعد الحصول على مرتبة الإحسان مثاله : كمن يدرس كتاب «كريما» [1] بعد أن يكون قد فرغ من

(١) من الكتب التي تدرس في الابتدائية للغة الفارسية .

دراسة كتاب «كلستان بوستان» [1]، وهذا ظاهر أن هذا فيه تضييع محض للوقت ، لذا فإن اشتغالك بأشغال المشايخ ما هو إلا تضييع للوقت ومعصية . «كذا نقل في أرواح ثلاثة» بالأردوية ص ٣٩٩.

وقد سمعت هذه القصة من أكابري أيضاً وسمعت فيها : أن الإمام الكنكوهي قال : إن مثله كمثل رجل حافظ للقرآن ثم يقول : إني لم أقرأ القاعدة البغدادية فأقرئوني إياها .

ونقل عن الإمام الكنكوهي قدس الله سره في مقام آخر أنه قال : «إن قوة الرسول صلى الله عليه وسلم الروحانية كانت لدرجة أنَّ أعتى كافر كان يتحصل على مرتبة الإحسان بعد إقراره بالشهادتين مباشرة ، ونظير ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم قالوا للرسول صلى اله عليه وسلم ، كيف نتخلى وكيف نتعرى أمام الله ، وهذه هي النهاية العظمى ، وكانوا لا يحتاجون إلى أنواع المجاهدات والرياضات ، وإنما يتحصلون على هذه القوة الروحانية بالفيض النبوي الشريف صلى الله عليه وسلم ، ولكنها كانت أقل درجة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كانت موجودة في التابعين رحمهم الله ولكن أقل درجة من الصحابة رضي الله عنهم ، ثم في أتباع التابعين كانت أيضاً موجودة هذه القوة ، إلا أنها كانت قد ضعفت جداً ، ولجبر هذا النقص أوجد المشايخ السلف المجاهدات والرياضات ، فمضت إلى مدة من الزمن كوسائل غير مقصودة بذاتها ، ولكن كلما ابتعد الزمن عن خير القرون كلما صار يدخل إليها شأن المقصودية ، ثم بين حين وآخر كانت تضاف إليها أشياء أخرى أيضاً حسب الضرورة ، فنتج من ذلك كله أن دخلت إلى الدين بدعات علمية وعملية واعتقادية كثيرة ، وقد اجتهد الصوفية المحققون في إصلاح هذه المفاسد ، ولكن نتج عن ذلك أن قلّت البدع جداً فقط ولكنها لم تنته كلياً . وذكر قدس سره في المصلحين : الشيخ عبد القادر الجيلاني ، والشيخ شهاب الدين السهروردي ، ومجدد الألف الثاني الشيخ السرهندي ، والسيد أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي قدس سرهم

(١) من كتب الأدب الكبيرة في اللغة الفارسية .

باختصاص ، وقال : إن هؤلاء قد أصلحوا كثيراً ولكن لم تقلع المفاسد بالكلية .

وقال أيضاً : إن الحق تعالى شأنه قد كشف لهؤلاء السادة طريق السنة المطهرة ، ثم قال : إن من بركات طريق السنة الشريفة : أن الشيطان قلما يستطيع قطع الطريق على السالك ، فمن الواضح على الجميع أنه : لو اهتم شخص بالأمور التي كان يهتم بها نبينا صلى الله عليه وسلم كالصلاة مع الجماعة ونحوها ، وبالغ في الإهتمام بالفرائض والواجبات والسنن المؤكدة ، فلا هذا الشخص يتوسوس في نفسه أنه أصبح ولياً ولا الناس يعتقدون فيه أنه من الأولياء الكاملين ، ولكن لو اهتم شخص بالأمور التي لم يهتم بها صلى الله عليه وسلم كصلوت الضحى والإشراق والنوافل بعد المغرب وغيرها فإنه هو أولاً يظن في نفسه : أنه أصبح ولياً والآخرون أيضاً يرونه من الأولياء .

ومما قاله أيضاً : «إن الشارع عليه السلام جعل (الإحسان) هو المطلوب ، ولكن الصوفية جعلوا بدله (الإستغراق) مقصوداً» ، انتهى .

وبذيله حَشّى حكيم الأمة التهانوي نور الله مرقده : قوله : «قال الصحابة» ..إلخ . أقول : روى البخاري في «كتاب التفسير» عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك . أي قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ .. الآية فيهم .

وقوله : «ولكن الصوفية جعلوا بدله .. إلخ» أقول : المراد نفس الصوفية غير المحققين ، كذا في «أرواح ثلاثة» ، انتهى .

لقد ذكرت في البداية أن أكابري عندهم : التصوف والإحسان شيء واحد ، وهو جزء من الشريعة الغراء ، ومؤلفات أكابري مليئة بذلك ، وقد شدد على ذلك سيدي الشيخ أحمد السرهندي مجدد الألف الثاني في رسائله . وقد نشرت أنا ثلاثة رسائل لسيدي السرهندي : أولاها : منه إلى الأنجال أي أبناء شيخه ومرشده الخواجه «الباقي بالله» وهي رسالة طويلة ومهمة جداً جديرة بالمطالعة ذكر فيها :

إن حصول التصفية والتزكية مرتبط بأداء الأعمال الصالحة التي تكون لرضاء الله تعالى ، وهذه موقوفة على بعثة الأنبياء ، إذن فلا يتمكن من حقيقة التصفية والتزكية بدون البعثة ، وأما الصفاء الذي يحصل عليه أهل الفسق والكفر فهو في الحقيقة : صفاء النفس وليس بصفاء القلب ، وصفاء النفس لا يقود إلا إلى الضلال والخسران .

وفي حالة صفاء النفس هذه ما يحصل لأهل الكفر والفسق من كشف لبعض الأمور الغيبية فإنه استدراج ، «ثم شدد رحمه الله جداً على تصحيح العقائد وذكر بعدها» : ثم بعد تصحيح العقائد لا مفر من تعلم الأحكام الفقهية ، ويجب تعلم الفرائض والواجبات والحلال والحرام والسنة والمندوب والمشتبه والمكروه من الأمور، وكذلك يجب العمل بمقتضى علم الفقه ، وبعد التمكن من الإعتقاد والعمل الصحيحين «وهما كالجناحين» . ثم إن شمل المرء التوفيق الرباني فحينئذ سلوك طريق الصوفية ، وهذا السلوك ليس للحصول على شئ زائد وجديد على هذا الإعتقاد والعمل ، بل المقصود منه : تحصيل اليقين والإطمئان من ناحية المعتقدات ذاتها ، بحيث لا يمكن إزالته بتشكيك أي مشكك فيها ، وبحيث لا يبطل بورود أية شبهة كانت .

ثم هناك فائدة أخرى من السلوك وهي : الحصول على السهولة لأداء الأعمال وإزالة الكسل والعصيان الناتجة عن النفس الأمارة بالسوء .

ليس المقصود من سلوك طريق الصوفية : أن تحصل للمرء مشاهدة الصور والأشكال الغيبية أو معاينة أهل الأنوار ، فإن هذا كله داخل في اللهو واللعب ، ثم ما مضرة هذه الصور والأنوار الحسية التي نشاهدها ونعاينها في كل ساعة ، ولماذا يتركها الشخص ويتعب نفسه في الرياضات والمجاهدات المتعبة متمنيا الصور والأنوار الغيبية ؟ إذ أن هذه الصور الحسية وتلك الصور الغيبية وهذه الأنوار وتلك الأنوار إنما هي كلها مخلوقة وآيات تدل على وجود الله تعالى عز شأنه ، انتهى . لقد ذكر هذا المقصر في البداية أن ما علمه جبريل عليه السلام «أي في حديث جبريل» كان أول شئ فيه : الإيمان «أي الإعقاديات» والثاني : الإسلام «أي الأعمال الشرعية» والثالث : الإحسان ـ (يعني السلوك) .

وقد ذكرت بهذا الترتيب أيضاً في رسالة سيدي المجدد السرهندي قدس الله سره هذه مفصلاً .

وقد بين قدس سره في رسالة أخرى : أن الشريعة كفيلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية وأن الطريقة والحقيقة خادمة للشريعة حيث يقول : إن الشريعة ثلاث أجزاء : العلم والعمل والإخلاص ، وما لم تتحقق هذه الأجزاء الثلاثة كلها لا تتحقق الشريعة ، وبتحقيق الشريعة تحصل على رضاء الله سبحانه وتعالى ، ورضاء الحق عز وجل هذا أعلى وأرفع وأعظم من جميع السعادات الدنيوية والأخروية (ورضوان من الله أكبر) فالشريعة هي الضامنة لجميع سعادات الدارين ، فلم يبق إذن أي مطلوب يحتاج الحصول عليه سوى الشريعة ، والطريقة والحقيقة التي امتاز بها الصوفية كلاهما تعملان لتكميل الجزء الثالث من الشريعة أي الإخلاص ، إذن فالغرض من تحصيلها ما هو إلا تكميل الشريعة ، وليس أي أمر آخر على الإطلاق .

وأما ما يحصل للصوفية من أحوال ومواجيد وعلوم ومعارف سوى الشريعة أثناء السلوك فهذه ليست بمقاصد وإنما شأنها شأن الخيالات التي تربى بها أطفال الطريقة ، وإنما ينبغي أن يتقدم عن كل هذه الأشياء إلى مقام الرضاء .

إذ أنه هو المقام الذي تنتهي إليه مقامات الجذب والسلوك ، فليس هناك أي مقصود من عبور منازل الطريقة والحقيقة سوى الحصول على الإخلاص ، والإخلاص مستلزم لرضا الباري عز وجل ، ويوصل واحد من الألف بعد العبودية من التجليات والمشاهدات العرفانية إلى مقام الرضا والإخلاص العظيم .

وعميان البصيرة يظنون : أن الأحوال والمواجيد هي المقاصد ، وأن المشاهدات والتجليات هي المطالب ، لذلك تجدهم أسارى في سجون الأوهام والخيالات ومحرومون من كمالات الشريعة المطهرة ، إلا أنه صحيح : أن الحصول على مقام الإخلاص ومرتبة الرضا مرتبط بتحقيق هذه الأحوال والمواجيد والعلوم والمعارف ، لذلك فإن هذه الأحوال والمواجيد مقدمات للمقصود وليست المقصود نفسه ، وقد توضحت لي هذه الحقيقة ببركته

صلى الله عليه وسلم بعد أن سِرتُ في هذا الطريق مدة عشر سنوات كاملة وتجلى لي شاهد الشريعة كما هو حقه ، مع أني والحمد لله لم أكن من البداية أسيراً للأحوال والمواجيد ولم يكن نصب عيني أي هدف سوى تحقق حيقة الشريعة ، ولكن ظهرت لي حقيقة الأمر بكل وضوح بعد عشرة كاملة من السنين ، فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه ، «تجليات رباني» ص ٥٣ .

وأنا أحمد الله وأشكره سبحانه أن هذا العاجز أيضاً أجاب مولانا الشيخ حبيب الرحمن اللدهيانوي رئيس جماعة الأحرار على سؤاله المتعلق بحقيقة التصوف : «إن التصوف ما هو إلا اسم لتصحيح النية» كما ذكرت ذلك مفصلاً في رسالة «آب بيتي» (بالأردوية) وذكرت هناك قصص أخرى في نفس الموضوع .

وقد شدد الخواجه محمد معصوم النقشبندي رحمه الله أيضاً في رسائله على هذا الأمر أيضاً كثيراً ، فيقول في الرسالة رقم (٦٠) .

إن كمالات الولاية نتيجة لصورة الشريعة ، وكمالات النبوة ثمرة لحقيقة الشريعة ، فإذن ليس هناك أي كمال من كمالات الولاية أو كمالات النبوة يكون خارج دائرة الشريعة أو مستغنياً عن الشريعة .

ويقول في رسالة أخرى قدس روحه : بعد تصحيح العقائد من الضروري جداً موافقة رأي أهل السنة والجماعة الصائب (المأخوذ من الكتاب والسنة) ، وأيضاً لا مفر أبداً من أداء الفرائض والواجبات واجتناب المحرمات ، إن أساس الإسلامية على خمسة أشياء «وقد مر ذكرها في حديث جبريل» فإن عدم وجود أحد هذه الخمسة خرب بيت الدين وكان ناقصاً ـ وبعد تصحيح العقائد والأعمال الصورية «الظاهرية» يأتي سلوك طريق الصوفية ، وهذا أيضاً ضروري حتى تتحصل معرفة الحق سبحانه ، وينجو من خطر الأهواء النفسية ، لا أستطيع أن أفهم أن الشخص الذي يكون خالياً من معرفة وليه (أي الله عز وجل) ويجهله سبحانه كيف يعيش هذا المسكين وكيف يستأنس بالأشياء الأخرى دونه سبحانه .

ويقول نور الله مرقده في رسالة أخرى له : إن أخي ملا حسن علي حرر شبهة على رسالة أرسلتها إلى الأخ عبيدالله بيك وطلب مني جواباً لها ، والشبهة هي : أن امتياز الحسن والقبيح يكون في مقام الشريعة ، فقد رأى مكتوباً في بعض الرسائل المؤلفة : «إن في الطريقة يكون الصلح مع الجميع والصداقة مع الكل» إلخ . وهي شبهة غريبة وفاسدة فكيف تكون مقارنة الطريقة بالشريعة ؟ ومن أين جاءت المساواة بينهما حتى نقارن بينهما .

إن الشريعة قد ثبتت بالوحي القطعي الذي لا شك فيه ولا ريب أبداً ، لا تبديل لأحكامها ولا تغيير ، فنفس الأحكام باقية مستمرة إلى قيام الساعة ، والعمل بمقتضى الشريعة واجب ولا بد منه لجميع العامة والخاصة ، ولا يمكن للطريقة أن تجرؤ على رفع أي حكم من أحكام الشريعة الغراء أو تحرر أحداً من أهل الطريقة من التكاليف الشرعية الكريمة . وإن من عقائد أهل السنة والجماعة القطعية : أن المرء بحالته المعتبرة بعقله وبحواسه لا يصل قطعاً أبداً إلى درجة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، ومن اعتقد بخلاف هذا فقد خرج عن دائرة الإسلام ، فالحب والولاء للجماعة التي يعاديها الله عز وجل ويأمرنا في حقهم بالغلظة والشدة يعتبر خروجاً على الإسلام ، فإن هذا الأمر ودعوى محبة الله ورسوله لا يمكن أن يجتمعا في قلب واحد لأن إطاعة المحبوب ومحبة أحبابِ المحبوب ومعاداة أعداء المحبوب من لوازم المحبة ، نعم صحيح أن بعض السالكين ترد لهم بعض الأمور التي تكون في الظاهر مخالفة للكتاب والسنة ، فعلى السالك : أن لا يفلت منه رأس حبل الشريعة في هذه الساعة فيشدّ عليه بالنواجذ ويعمل بخلاف كشفه و وجدانه مقلداً أهل السنة والجماعة على اعتقادهم وعملهم ، وفي بعض الأحيان تحاول أوساخ طريق السلوك بنداء «إني أنا الله» أن تحول السالك المسكين عن المطالب العليا وتدعوه لعبادتها . في هذه الساعة يجب على السالك المستقيم أن يقول كما قال الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام : «لا أحب الآفلين» ، وبموجب «وجهت وجهي» يفر إلى ميدان غيب الغيب ويتابعه صلى الله عليه وسلم في كل خفض ورفع حتى لا يقع في أسر زيغ البصر» (مكتوب خواجه معصوم رقم ٧٣) .

وبمناسبة ما أشار إليه سيدي الخواجة معصوم في رسالته هذه - نقل في ﴿آب بيتي﴾ رقم ٥ ص ١٩٧ برواية الإمام النانوتوي عن كتاب ﴿الأرواح الثلاثة﴾ : أن أحد المشايخ وهو الخواجه احمد جام وكان معروفاً عنه أنه مستجاب الدعوات أتت إليه امرأة بابن لها اعمى ، وطلبت منه أن يمسح على عينيه بيده ليشفى من عميه ، وكانت تغلب عليه حينئذ حالة العبودية فقال لها بعجز وانكسار : بأني لست اهلاً لذلك وأنا من أنا ؟ وأصرت المرأة . فأجابها بنفس الجواب ، وهكذا تكرر الطلب من ناحية المرأة ثلاث أو أربع مرات والشيخ يجيبها بنفس الجواب ، فعندما وجدها لا تقبل منه عذرا ومصرة على طلبها قام وغادر المكان قائلاً : إن هذا كان من أعمال عيسى عليه السلام أنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ، وأما أنا فلست كذلك .

ولم يبتعد الشيخ كثيراً حتى ألهم : ﴿من انت ومن عيسى ومن موسى؟ ارجع وامسح على وجه الأعمى لا أنت تبرئه من عماه ولا عيسى ولا غيره وإنما ﴿ما مي كنيم﴾ (أي نحن نفعل) ﴾ ، وبعد سماعه لهذا الإلهام رجع وأخذ يكرر عبارة ﴿ما مي كنيم .. ما مي كنيم﴾ حتى وصل إلى الأعمى ومسح على وجهه فارتد بصيراً .

بعد رواية هذه القصة قال الإمام النانوتوي نور الله مرقده : إن بعض الحمقى يظنون في هذه الأحوال أنه يقول : ﴿ما مي كنيم﴾ أي ﴿نحن نفعل﴾ عن نفسه ، مع أن هذا لا يكون قولهم هم ، وإنما يكون ذلك قول الحق تعالى ، فعندما يسمع احدهم شعراً حسناً من مغن حسن الصوت تجده لتلذذه به يكرر ذلك الشعر مرات وكرات ويتلذذ بذلك ، فهكذا هنا ايضاً كان يكرر نفس عبارة الإلهام ﴿ما مي كنيم﴾ تلذذاً بها .

ويقول الإمام الشيخ العارف التهانوي رحمه الله في حاشيته لهذه القصة : قوله : إنه قول الحق تعالى الخ . أقول : إن أحسن تأويل لقول منصور الحلاج : ﴿أنا الحق﴾ هو هذا ، (آب بيتي جزء ٥ ص ١٩٧) ..

وقد ذكرت في ﴿آب بيتي﴾ رقم (٥) عبارات كثيرة عن المشايخ مثل هذه ، ثم ذكر هناك بعدها : إن الغرض من هذا التحرير أن المرء يجب عليه أن يشغل نفسه في محاسبتها

وإصلاحها دائماً ، ولا يضيع وقته في الطعن في الآخرين والبحث عن عيوبهم ، خاصة الأكابر منهم والعلماء المعتمدين ، فلا يتشبث بالطعن فيهم ، وعلى كل فإنه لا اتباع لأحد أبداً مهما كان بخلاف الشرع ، وأنت لست مسئولاً عن أقوالهم وأفعالهم .

ويقول الخواجه معصوم في رسالة أخرى له .

« وينبغي أن يشد العزم على أداء الأحكام الشرعية باهتمام ، اجعلوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منهاج حياتكم ، واهتموا بإحياء السنن المتروكة ، واسعوا لإخفاء كل ما يرد للقلب من واردات ، ولا يتكل على الأحلام والرؤى ، فإنه إن رأى شخص في منامه أنه أصبح ملكاً أو قطباً لعصره فما الفائدة ؟ فإن الملك والقطب إنما هو من تحصل على منصب الملوكية أو منصب القطبية في خارج المنام ، وبالفرض لو أصبح أحد ملكاً في هذه الحياة الظاهرة وسخر له الكون فأية مكرمة هذه وأية فضيلة ؟ وهل ينجو بذلك من عذاب القبر وعذاب الآخرة ؟ وهو الأصل .

إن أولي العزم من الرجال لا يلتفتون إلى مثل هذه الأمور ، وإنما يجتهدون دائماً في مرضيات الباري عز وجل ، ويسعون في فناء نفوسهم وإخفاء الواردات الغيبية .

آمل من أصدقائي أمثالكم أن لا تغفلوا عني وتسألوا لهذا الفقير من الباري عز اسمه الرحمة والمغفرة . (مكتوبات خواجه معصوم ص ١٧٤) .

ويقول في رسالة أخرى نور الله مرقده :

« الآن لبعدنا عن عهد النبوة وقرب القيامة صارت البدعة تنتشر وتحيط ظلماتها أغلب العالم - وأصبحت السنة نادرة وغريبة وأصبحت أنوارها مستورة ، فشدوا أزركم لإحياء السنن المتروكة ونشر العلوم الشرعية ، واتخذوا هذا الأمر الوسيلة العظمى للحصول على رضاء الباري جل شأنه ، واعلموا أن في هذا قرب الجناب المحمدي أيضاً ، فقد ورد في الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم قال : من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد » .

والدرجة الأولى لإحياء السنة هي : أن يبدأ أولاً العمل بها شخصياً ، والدرجة العليا : ان يجتهد لنشر وإشاعة السنة في الآخرين ليعملوا بها . (مكتوبات خواجه محمد معصوم ص ٢٩٠) .

ويقول الشيخ التهانوي نور الله مرقده في مؤلفه «تعليم الدين» ص ١٨٢ «في بحث إصلاح خطأ من يظن أنه لا حاجة للفقراء إلى اتباع الشريعة» :

ورد في الفتوحات : «إن كل حقيقة تخالف الشريعة فهي مردودة وزندقة» وفيه أيضاً : «إن من قال إن هناك سبيل آخر إلى الله غير ما بينه الشرع فقد كذب ، لذا فلا يتخذ شيخا من لم يكن لديه أدب» وأيضاً : «ليس لنا سبيل إلى الله إلا ما ورد في شرعه وإلا ما بينه الشرع الكريم» .

ويقول سيدنا بايزيد البسطامي رحمه الله : «إن رأيت شخصاً قد أعطي الكرامات حتى أنه يطير في الهواء : فلا تغتر به حتى ترى حاله في الأمر والنهي وحفظ الحدود والتمسك بالشريعة» .

وعن سيدنا الجنيد رحمه الله أن : «كل سبيل مسدود إلا من مشي مقتفيا خطى الرسول صلى الله عليه وسلم» . وفي «الفتوحات» : «إنه من لم يعلم أمر الله فلا مقام له عند الله لأن الله لم يتخذ جاهلاً ولياً . وفيه أيضاً : إن عمل السوء مع العلم خير من العمل بالجهل» .

ويقول الشيخ التهانوي : وذلك لأن العالم لو أخطأ أو ساء عمله لن يسوء إلى درجة أن يبلغ به إلى الكفر أو الشرك ، وبما أنه عالم بإساءته فيرجى منه التوبة ، بخلاف الجاهل فأحياناً حتى الأعمال الضرورية كالصلاة والصوم تكون فاسدة ، وأحياناً لجهله يرتكب ما يوجب الكفر ، وبما أنه لا يكون عالماً بهذه الإساءة العظيمة لا يوفق للتوبة . وقد بسط فيه الشيخ التهانوي في «تعليم الدين» .

كان والدي رحمه الله مرة يغتسل في أيام الحر ، وكان اثنين أو ثلاثة من تلاميذه الأقوياء النشطين يملأون السطول ماء ويصبونها عليه ، فقال له أحدهم وكان جالساً بجانبهم : يا سيدي الشيخ أليس هذا من الإسراف ؟ فقال والدي : بالنسبة لك إسراف أما أنا فلا ،

فسأله : ولم ذلك ؟ فقال : لأني عالم وأنت جاهل ، فقال : إذن صدق الذين يقولون إن المشايخ يجوزون لأنفسهم ما شاءوا ؟ فقال والدي : نعم هذا صحيح من وجه ، ولا ينبغي للعلماء أن ينزعجوا من مثل هذه العبارات ، لأنه يكون هناك عمل مثلاً يفعله الجاهل ، وبسبب جهله يعمله بصورة يصبح بها هذا العمل معصية وإساءة ، ونفس العمل يعمله العالم بصورة يكون بها صحيحاً وطاعة ، انتهى .

عن أبي سعيد قال : جاء بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر برني ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : «من أين هذا ؟ قال : كان عندنا تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع ، فقال : أوه عين الربا عين الربا لا تفعل ، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ثم اشتر به» ، متفق عليه .

وظاهر أن الجاهل لا يرى أي فرق بين هاتين الصورتين المذكورتين ، فإنه يظن أنه أخذ صاعاً من البرني بدل صاعين من الرديء ، ولكن العالم يشتريه في صورته الصحيحة شرعاً ، فأولاً يبيع التمر الموجود لديه بريالين مثلاً ، ثم يشتري صاعاً من البرني بهذه الريالين ، ونحو ذلك .

وقد شدد شيخ الإسلام حسين احمد المدني رحمه الله أيضاً في مكاتيبه كثيراً على : أن المقصود الأصلي من السلوك هو الإحسان ، فيقول في إحدى مكاتيبه : «عزيزي المحترم : المقصود الأصلي من السلوك هو الإحسان ، أي أن تعبد الله كأنك تراه ، الحديث . يعني أن السالك تتولد فيه ملكة راسخة وهذا من حيث البداية ، وأما النهاية فهو الحصول على رضاء الباري عز اسمه» ، ثم قال شعراً فارسياً ترجمته :

«ما هذا الفراق والوصل الذي تبحث عنه ؟
ابحث عن رضا الحبيب فإنه من
المؤسف جداً أن تطلب من الحبيب سواه»

فيجب أن نجتهد حتى تتولد محبة الله الصادقة ، وهذه تزيد إلى درجة أن تنقطع العلاقة القلبية عما سواه ، وهذا ومؤيداته وذرائعه كلها وسائل فقط ، وهكذا الرياضات

والمجاهدات وإصلاح الأخلاق أيضاً من قبيل هذا .. فالصوفية المتقدمون يرون : أن يكون إصلاح الأخلاق أولاً . وأحياناً يصرفون في ذلك عشرات السنين ، ونتيجة لذلك أحياناً كان أحدهم يلحقه الموت في ذلك قبل الوصول إلى الله ويرحل عن الدنيا وهو محروم من هذه النعمة ، لذلك تدبر في ذلك المتاخرون ورأوا ان يكون الوصول إلى الله والتوجه إلى الذات المقدسة أولاً . ويحرضون على الإنهماك في الرابطة حيث ينتج عنه الحضور الدائم ، ويقصدون بذلك : التقوية والرسوخ في الملكة أي العلاقة ، وبذلك تزول تدريجياً الرذائل والأخلاق الذميمة واحدة تلو الأخرى ، وعلى كل فاجتهدوا في التوجه إلى الذات المقدسة باستمرار .. إن شئتم إلى الذات المحضة أو باعتبار صفة من صفاته الكاملة ، وأقيموا حال ، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ ، إن وجود النقائص في أعمال الإنسان أمر فطري ، ولكن يجب على الإنسان ان يبذل دائماً جهده لإزالة هذه النقائص ، وأن يقول دائماً : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ في كل صلاة بإخلاص ، يقول الرسول الكريم صلوات الله وتسليماته عليه في دعائه : «ما عرفناك حق معرفتك ولا عبدناك حق عبادتك» أو كما قال . الغرض انه يجب ان يستمر معه بذل الجهد من قبلنا في تتميم الأعمال وتكميل الإخلاص فيها . ثم يستمر معه في طلب المغفرة من الرب الكريم مع الإعتراف بالتقصير الذي لا بد منه ومع رجاء القبولية يجب أن نخاف غضبه أيضاً .. فالإيمان بين الخوف والرجاء .

احرص على اتباع السنة دائماً وفي كل الأمور ، ومع أنه لا حاجة لك إلى الأذكار الأخرى سوى المراقبة المعلومة ، ولكن للتأييد والتقوية اتخذوا ما رأيتموه من الأذكار مناسباً ، وطالعوا باهتمام كتاب «الصراط المستقيم» و «إمداد السلوك» .. (مكتوبات شيخ الإسلام جـ ٣ مكتوب رقم ٦٦) .

ويقول رحمه الله في مكتوب آخر طويل : «اجعلوا نصب أعينكم وقلوبكم بقدر ما استطعتم اتباع الشريعة والإهتداء بالسنن النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ولا تغفلوا عن الذكر ، ودائماً كونوا مستغفرين وتائبين من الغفلات والمعاصي ، ولا تضيعوا هذا العمر

الثمين الغالي» ، شعر فارسي ترجمته .

«كل ما تفعله سوى ذكر الحبيب فإنه لا فائدة منه ،
وكل ما تدرسه سوى أسرار العشق فإنها بطالة

يا سعدي : اغسل كل ما سوى الحق من لوح قلبك
وكل علم لا يقودك إلى الله فإنه جهالة»

(مكتوبات شيخ الإسلام رقم ٦٩ ص ٢٧٠)

وفي مكتوب آخر يقول :

«أليس حقاً أنكم تركتم الأذكار الموصى بها ؟ أحياناً تنشطون فتداومون شهراً أو شهرين ثم تتركونها ؟ أليس حقاً أنكم لا تحافظون على الصلوات الخمس مع الجماعة ؟ أليس حقاً أنه أحياناً تفوتك الصلاة المفروضة فتنام صباحاً حتى تشرق الشمس ؟ أمثل هذه الأمور لا تزعج وتؤلم محبيكم وأصدقاءكم ، وعلى كل فيجب عليكم أن تجتهدوا في إصلاح أنفسكم ، وابذلوا كل ما تستطيعون في اتباع الشرع وإحياء السنن النبوية ، عندما تتلو عليكم المصائب تتنبهون ، وعندما يرفع الله البلاء تطمئنون كأنه لم يكن شئ ، عَوِّدوا أنفسكم بقدر الإستطاعة على الذكر» (مكتوب رقم ٢/٧٠) .

ويقول في مكتوب آخر :

ما ذكرتموه من الأحوال حسنة ويرجي منها الخير (الاستقامة فوق الكرامة) . إن الرؤى والأنوار والإلهامات وغيرها تعرض للسالك لتقوية قلبه فقط ، كما أنه تعطى للطفل قطع الألعاب لتسليته . وقد بلغنا عن الأكابر قولهم المشهور : «تلك خيالات تربى بها أطفال الطريقة» فالمداومة على العبادة والذكر والقيام على الشرع المطهر واتباع السنة هي الأمور التي كلفنا بها ، والعمل على هذه الأشياء بعزيمة وجد والحصول على درجة الإحسان هو الكمال الإيماني ، و وجود الخوف من الرب عز وجل والرجاء منه كلاهما

علامة كمال الإيمان ، وغلبة البكاء والتضرع ظهور للنسبة الجِشتية . اللهم زد فزد (مكتوبات شيخ الإسلام ص ١٦٨ رقم ٥٧) . وذكر في المكتوب الذي بعد هذا :

ايها المحترم : إن المصائب الدنيوية أيضاً من رحماته تعالى ، إذ بها يجذب العبد إليه وإلا خيف من العبد ان يصبح فرعونا ينادي بـ ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ ، وقد قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

ثم إن الإمتحان والإبتلاء مستمر في الحالتين : في حالة الإنعام والوسع الدنيوي ، وفي حالة العسر والمصيبة أيضاً ، ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ والغرض : أن هذا العالم مكان الإمتحان وهذا الإمتحان مستمر بصور شتى ، فينبغي أن يهتم للنجاح في هذا الإمتحان ، ولا يستأنس القلب بأي شيء سوى المالك الحقيقي الدائم والباقي سبحانه ، أيُّ عمل تعمله اجعله بحسن النية عبادة : «إنما الأعمال بالنيات» حتى النوم والأكل والشرب وقضاء الحاجات البشرية يمكن ان تكون كلها عبادة ، فإن ذريعة العبادة و وسيلتها لا شك أنها عبادة ، المقصود الأصلي للذكر والفكر هو رضاء الحبيب الحقيقي سبحانه وتعالى ، أما الحصول على لذتها أو تصفية القلب ، أو الحصول على الكشف والكرامات ، أو الإحساس بالأنوار والبركات ، أو الفناء والبقاء أو القطبية والغوثية ، كل هذه الأشياء ونحوها غير مقصودة بتاتاً .

بل إن التوجه والقصد إلى هذه الأشياء خطير جداً ، شعر فارسي ترجمته :

«ما هذا الفراق والوصل الذي تبحث عنه ؟

ابحث عن رضاء الحبيب ..

فإنه من المؤسف أن ترجو من الحبيب سواه» .

فالأشياء المذكورة بأعلاه كلها وسائل وذرائع فقط ، والمقصود الأصلي : هو فقط رضاء الباري عز وجل ، والواجب على المرء أن يؤدي آداب العبودية ، اجتهدوا فيه كثيراً

واجعلوا نصب أعينكم الإخلاص دائماً وفي كل شئ .. (مكتوبات شيخ الإسلام رقم ٥٩/٣ص١٢٩) .

ويقول نور الله مرقده في مكتوب آخر :

إن هذا العمر العزيز ولحاته جواهر ثمينة وغالية ، ونحن في غفلتنا كم نضيعها ولا نبالي ؟ ولن ينتج من ذلك إلا التأسف والحسرة ، وكيف يكون حالنا حينما يقال لنا : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ .

أيها المحترم أليس من الحمق أن نضيع كثيراً من هذه الساعات العظيمة لأجل الأصدقاء الأجانب ، فكر وتمعن وحاول أن تفهم ذلك .

إن هذه المجالس المضحكة والمسلّية نفرح ونتسلى بها اليوم .. قَلّلْ منها بقدر ما تستطيع وفكّر في قوله تعالى : ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ولا تنس قول الباري جل جلاله : ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الآية . إن عهد الشباب هذا والصحة والقوة والعافية هذه نعم عظيمة الشأن لا تضيعها هكذا سدى .

- ثم شعر فارسي ترجمته :

«إن كل ساعة في هذه الحياة تحت خدمتك
وترد أن تخدمك ، فإن لم تراعها فهي جهالة منك ،
لا تضيع هذه الساعات النفيسة القيمة ولا تنشر
الغفلة في بلدة الروح هذه ....»

يقول صلى الله عليه وسلم : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» قدّر هذه النعم . واجتهد في ذكر «باس انفاس» اي «ملاحظة الأنفاس» لدرجة أنك تصبح من أهله حتى بلا قصد وبلا اختيار منك ، ثم تصل إلى درجة جريان الذكر القلبي وتفتح لك أبواب الرقي ومقامات السلوك المباركة ، لا تتأخر واحرص على إتباع

السنة الشريفة في كل حركة وسكون» (مكتوبات شيخ الإسلام ص ١٨٨ / ٢ رقم ٤٨) .

كذلك نجد أن الأكابر قاطبة قد صرحوا في كلامهم كثيراً على أن المقصود أصلاً : هو الحصول على درجة الإحسان، وهذه المجاهدات والرياضات التي اختارها الصوفية إنما اختاروها بسبب الأمراض القلبية ، كما أن الأمراض البدنية تتوالد فيها كل يوم وآخر أمراض بدنية جديدة : فيخترع لها الأطباء والحكماء أدوية تناسب علاجها ، فكما أنه لا يشتبه أحد في هذه الحال : أن هذه الأدوية بدعة ، هكذا أيضاً في الأمراض القلبية : إن اختيرت لها أدوية مناسبة لعلاجها فمن قال عنها بدعة فذاك لجهله ، لأنها ليست مقاصد أصلاً ، وإنما هي فقط علاجات خاصة لأمراض خاصة .

وقد بسط العلامة ابن تيمية رحمه الله في رسالته «التحفة العراقية في الأعمال القلبية» عن أعمال القلوب ، وذكر في أولها : إنها كلمات موجزة عن بيان أعمال القلوب التي يعبر عنها بالمقامات والأحوال (يعني عند المتخصصين في هذا الشان وهم : الصوفية) وأنها من أصول الإيمان وقواعد الدين ، وهي مثل محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والتوكل والإخلاص والشكر والصبر والخوف والرجاء ، وقد اتفقت الأئمة على : أن هذه الأعمال كلها واجبة على جميع الخلق ، وأن الناس في هذه الأعمال أيضاً على ثلاث درجات ، كما انهم كذلك على ثلاث درجات في الأعمال البدنية أيضاً وهي :

١ – ظالم لنفسه ٢ – مقتصد . ٣ – سابق بالخيرات .

ثم بسط في بيان حال الأقسام الثلاثة ، وقال في آخرها : وكلاهما أي حال : المقتصد والسابق بالخيرات من أولياء الله الذين ورد ذكرهم في كتاب الله حيث يقول سبحانه : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ ، لذلك فإن أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، وهم صنفان : خاص وعام ، فالعام : هم المقتصدون ، والخاص : هم السابقون بالخيرات .. إلى آخر ما ذكر فيه .

ثم ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في الرسالة تفصيلاً مختصراً للأعمال الباطنة : فالصدق والكذب ومحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه وغيرها من الأعمال الباطنة كلها مأمور بها شرعاً ، فبالتوكل على الله والإستعانة به يصل المرء إلى مقصوده ، ثم بسط في بحث التوكل ، وبين أن أعظم وأكبر وأجل شئ في واجبات الإيمان هو : محبة الله عز وجل ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر صفات المحب لله والمحبوبين ، وأن محبة الله هي أصل أعمال الدين ، وأن الرجاء والخوف وغيرها مستلزمة لمحبة الله عز وجل ، وذكر كلام قدماء الصوفية في محبة الله تعالى ، وذكر أن النتيجة الحتمية لمحبة الله تعالى هي : إتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن إتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً يولد محبة الله سبحانه ، وغير ذلك من الأمور بسطها في هذه الرسالة ، وهي جديرة بالمطالعة .

وقال في فتاواه جـ ١١ ص ٢٢٥ ما نصه بالحرف الواحد : (وكذلك هذا الذي يقول : إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض ، فهو كافر ، وهو أكفر من أولئك ، لأن علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو : علم بحقائق الإيمان الباطنة وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة ..) انتهى .

وذكر الحافظ ابن قيم الجوزية رحمه الله أيضاً في رسالته (الوابل الصيب من الكلم الطيب) التي هي جلها في أحوال الصوفية والتصوف والأذكار والأوراد وفضائلها ، يذكر رحمه الله في شروط الشيخ حيث يقول : (فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل : فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين ؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي ؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطاً .. فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه ، فإن وجده كذلك فليبعد منه ، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل وإتباع السنة وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره : فليستمسك بغرزه ، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت) .

وذكر عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قال : «الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السَمك إذا فارق الماء ؟»

وقال أيضاً : حضرتُ شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت إليّ وقال :

هذه غدوتي ، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي أو كلاماً قريباً من هذا ، وقال لي مرة : لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر ، أو كلاماً هذا معناه .

وقد ألف الحافظ ابن القيم كتاب «مدارج السالكين» في التصوف خاصة وهو شرح لكتاب ، «منازل السائرين» للشيخ العارف أبي إسماعيل عبد الله الهروي الحنبلي الصوفي المتوفى عام ٤٨١هـ وهو كتاب مشهور في التصوف ، والكتاب كله فيه أبحاث في أمور التصوف وأحوال الصوفية المتفرقة بين فيه رحمه الله تعالى : أن عبودية المرء منقسمة على القلب واللسان وبقية أعضاء الجسم ، فمن واجبات القلب : الإخلاص والتوكل والمحبة والصبر والإنابة والخوف والرجاء والتصديق الجازم والنية الصادقة ، وقد أجمعت الأمة على أن هذه الأعمال القلبية واجبة ، ثم ذكر الواجبات المختلف فيها فذكر : الرضاء بالقضاء والخشوع في الصلاة وأنه هل يجب الإعادة إن لم يكن فيها الخشوع أم لا ؟ ثم ذكر المحرمات وقال : إنها قسمين : أحدها ، كفر ، والآخر معصية . فالكفر كالشك والنفاق والشرك ونحوها ، والمعصية أيضاً قسمين : كبائر وصغائر فالكبائر : كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوت وعدم الخوف من مكر الله والفرح بإيذاء المسلمين والسرور عند مصيبتهم ، ويحب أن تشيع الفاحشة في المسلمين والحسد على المسلمين ومثلها من الأمور التي هي أشد حرمة من الكبائر الظاهرة كالزنا وشرب الخمر وغيرها . وإن تركَ هذه الأمور واجتنابها والتوبة عنها لا يمكن أبداً بدون صفاء القلب ، فإن لم يصفى القلب أصبح فاسداً ، وإذا فسد القلب فإنه يفسد الجسد كله أيضاً ، فإصلاح القلب مقدم على إصلاح الجوارح ،

فإن لم نهتم بإصلاح القلب وصفاته فإنه سيمتلئ بالأمراض والأدواء ، انتهي . وقد بسط بكلام مفصل في ذلك .

ولإصلاح القلب وصفاته من الأمراض المذكورة : يختار المشايخ لمريديهم كل هذه الرياضات والمجاهدات .

لقد نقل الشيخ عاشق إلهي الميرتي كلمة جامعة للشيخ قطب الإرشاد الإمام الكنكوهي نور الله مرقده في مؤلفه «تذكرة الرشيد» بالجزء الثاني ص ١١ حيث يقول : إني عثرت على ورقة مكتوبة بخط يد سيدي قطب الإرشاد الكنكوهي قدس سره ، وقد حررها في بداية عمره ، ولم يتبين أنه لم حررها ؟ وفيها :

«علم الصوفية علم الدين ظاهراً وباطناً وقوة اليقين وهو العلم الأعلى ، حالهم: إصلاح الأخلاق ودوام الإفتقار إلى الله تعالى ، حقيقة التصوف : التخلق بأخلاق الله تعالى وسلب الإرادة وركون العبد في رضاء الله تعالى ، أخلاق الصوفية : ما هو خلقه عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وما ورد به الحديث ، وتفصيل أخلاقهم هكذا :

١ – التواضع ضده الكبر .

٢ – المداراة واحتمال الأذى عن الخلق .

٣ – المعاملة برفق وخلق حسن وترك غضب وغيظ .

٤ – المواساة والإيثار بفرط الشفقة على الخلق ، وهو تقديم حقوق الخلق على حظوظه .

٥ – السخاوة .

٦ – التجاوز .

٧ – العفو وطلاقة الوجه والبشرة .

٨ – السهولة ولين الجانب .

٩ – ترك التعسف والتكلف .

١٠- إنفاق بلا إقتار ، وترك الإدخار .

١١- التوكل .

١٢- القناعة بيسير من الدنيا .

١٣- الورع .

١٤- ترك المراء والجدال والعتب إلا بحق .

١٥- ترك الغل والحقد والحسد .

١٦- ترك المال والجاه .

١٧- وفاء الوعد .

١٨- الحلم .

١٩- الأناءة .

٢٠- التوادد والتوافق مع الإخوان والعزلة عن الأغيار .

٢١- شكر المنعم .

٢٢- بذل الجاه للمسلمين .

الصوفي يهذب الظاهر والباطن في الأخلاق ، والتصوف أدب كله ، أدب الحضرة الإلهية : الإعراض عمن سواه حياء وإجلالاً وهيبة ، أسوأ المعاصي : حديث النفس وسبب الظلمة» ، انتهى كلام قطب الإرشاد قدس الله سره .

البيعة

إن الناس تعترض على أشياء كثيرة للصوفية ، ومع ان البيعة ليست بلا زمة عند الصوفية كما سأبينه إن شاء الله ، وعلى كل حال فإنها ثابتة بالقرآن والسنة .

ففي القرآن في سورة الممتحنة ، يقول الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ الآية ، ويقول حكيم الأمة التهانوي نور الله مرقده في حاشية ترجمته لهذه الآية الكريمة : « إن هذه الآية صريحة في غرض البيعة ، ويلزم به إبطال تلك البيعات التي تؤخذ هكذا رسمياً فقط بدون قصد العمل والوفاء بها » .

وفي « صحيح البخاري » في « كتاب الإيمان » رواية « عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه : با يعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك » فهذه البيعة لا هي بيعة الإسلام ولا هي بيعة الجهاد ، وإنما هي بيعة الصوفية التي كانت للتأكيد على أمور الإسلام .

وقد بسط الإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي في مؤلفه « القول الجميل » عن حقيقة البيعة فيقول قدس سره :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ واستفاض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الناس كانوا يبايعونه تارة على الهجرة

والجهاد ، وتارة على إقامة أركان الإسلام وتارة على الثبات والقرار في معركة الكفارة ، وتارة على التمسك بالسنة والإجتناب عن البدعة والحرص على الطاعات ، كما صح أنه صلى الله عليه وسلم بايع نسوة من الأنصار على أن لا ينحن . وروى ابن ماجه : أنه بايع ناساً من فقراء المهاجرين على أن لا يسألوا الناس شيئاً فكان أحدهم يسقط سوطه فينزل عن فرسه فيأخذه ولا يسأل أحداً .

ومما لا شك فيه ولا شبهة : أنه إذا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل على سبيل العبادة والإهتمام بشأنه فإنه لا ينزل عن كونه سنة في الدين ، بقي أنه صلى الله عليه وسلم كان خليفة الله في أرضه وعالماً بما أنزله الله تعالى من القرآن والحكمة ، ومعلماً للكتاب والسنة ، ومزكياً للأمة . فما فعله على جهة الخلافة كان سنة للخلفاء وما فعله على جهة كونه معلماً للكتاب والحكمة ومزكياً للأمة كان سنة للعلماء الراسخين . فلنبحث عن البيعة من أي قسم هي ؟ فظن قوم أنها مقصورة على قبول الخلافة وأن الذي تعتاده الصوفية من مبايعة المتصوفين ليس بشيء ، وهذا ظن فاسد لما ذكرنا من : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع تارة على إقامة أركان الإسلام ، وتارة على التمسك بالسنة ، وهذا صحيح البخاري شاهد على أنه صلى الله عليه وسلم اشترط على جرير عند مبايعته فقال : «والنصح لكل مسلم» ، وأنه بايع قوماً من الأنصار فاشترط : «أن لا يخافوا في الله لومة لائم ويقولوا بالحق حيث كانوا» فكان أحدهم يجاهر الأمراء والملوك بالرد والإنكار ، وأنه صلى الله عليه وسلم بايع نسوة من الأنصار واشترط : «الإجتناب عن النوحة» إلى غير ذلك . وكل ذلك من التزكية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فالحق أن البيعة على أقسام : منها بيعة الخلافة ، ومنها بيعة التمسك بحبل التقوى ، ومنها بيعه الهجرة والجهاد ، ومنها بيعة التوثق في الجهاد ، وكانت بيعة الإسلام متروكة في زمن الخلفاء ، أما في زمن الراشدين منهم : فلأن دخول الناس في الإسلام في أيامهم كان غالباً بالقهر والسيف لا بالتأليف وإظهار البرهان ولا طوعاً ورغبة ، وأما في غيرهم : فلأنهم كانوا في الأكثر ظلمة فسقة لا يهتمون بإقامة السنن ، وكذلك بيعة التمسك بحبل التقوى كانت متروكة ، أما في زمان

الخلفاء الراشدين فلكثرة الصحابة الذين استناروا بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم وتأدبوا في حضرته : فكانوا لا يحتاجون إلى بيعة الخلفاء ، وأما في زمن غيرهم : فخوفاً من افتراق الكلمة وأن يظن بهم مبايعة الخلافة فتهيج الفتن ، وكانت الصوفية يومئذ يقيمون الخرقة مقام البيعة ، ثم لما اندرس هذا الرسم في الخلفاء انتهز الصوفية الفرصة وتمسكوا بسنة البيعة والله أعلم .

ثم أورد قدس الله روحه فصلاً مستقلاً في «بحث حكم البيعة وحكمتها» وغير ذلك قال فيه : إن البيعة سنة وليست بواجبة ، لأن الناس بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم وتقربوا بها إلى الله عز وجل ، ولم يدل دليل على تأثيم تاركها ، ولم ينكر أحد من الأئمة على تاركها : كان كالإجماع على أنها ليست بواجبة .

ثم يقول قدس الله روحه في «القول الجميل» أيضاً : اعلم أن البيعة المتوارثة بين الصوفية على وجوه : أحدها : بيعة التوبة من المعاصي . والثاني : بيعة التبرك في سلسلة الصالحين بمنزلة سلسلة إسناد الحديث فإن فيها بركة ، والثالث : بيعة تأكد العزيمة على الجرد لأمر الله وترك ما نهى عنه ظاهراً وباطناً وتعليق القلب بالله تعالى وهو الأصل» .

وأما الأولان : فالوفاء بالبيعة فيهما : ترك الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر والتمسك بالطاعات المذكورة من الواجبات والسنن الرواتب ، والنكث : بالإخلال فيما ذكرنا ، وأما الثالث : فالوفاء : البقاء على هذه الهجرة والمجاهدة حتى يكون متنوراً بنور السكينة ويصير ذلك ديدنا له وخلقاً وجبلة ، فعند ذلك قد يرخص في ما أباحه الشرع من اللذات والإشتغال ببعض ما يحتاج إلى طول التعهد كالتدريس والقضاء ، والنكث : بالإخلال في ذلك ، انتهى ص ١٢٥ .

ويقول الشيخ العارف التهانوي رحمه الله في «التكشف» : «عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : علام نبايعك يا رسول الله ؟ قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا ، وأسر كلمة

خفية ، قال : ولا تسألوا الناس شيئاً . فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه» أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي .

فائدة : إن البيعة المعمول بها عنه السادة الصوفية وحاصلها : أنها معاهدة للإلتزام بالأحكام والإهتمام بالأعمال الظاهرة والباطنة . ويقال لها في عرفهم : «بيعة الطريقة» . ويقول عنها بعض أهل الظاهر: إنها بدعة ، بناء على أنها لم تثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، فالثابت أنه صلى الله عليه وسلم كان يبايع الكفار على الإسلام ويبايع المسلمين على الجهاد فقط .

ولكن في هذا الحديث : إثبات صريح على أن المخاطبين كانوا من الصحابة رضي الله عنهم ، فليست إذن هذه بيعة الإسلام قطعا ، إذ يلزم بذلك تحصيل الحاصل ، ويظهر من الفاظ البيعة : أنها ليست بيعة الجهاد أيضا ، بل علم بدلالة الألفاظ أنها للإلتزام والإهتمام بالأعمال ، فثبت بذلك المقصود .

ومن عادة أكثر المشايخ أنهم يلقنون المريدين في الخلوة تعليمات خفية ، وهذا أحياناً يكون بسبب : أن ذلك الموضوع المقصود تعليمه لا يكون مفهوماً للعامة ، ويخشى من إظهاره افتتان وإضلال للعامة ، وأحياناً يكون السبب : أن التعليم الخفي حيث أنه دليل على الخصوصية والإهتمام ، فيقع به تأثير قوي على قلب الطالب ، وفيه فائدة أخرى أيضاً وهي : أن لا يقلده بعد سماعه وأخذه الآخرون الذين يكون تعليم آخر أكثر فائدة لهم . فهذا الحديث فيه أصل لهذه العادة .

ثم إن أكثر المريدين يكون مقتضى طبعهم ، أن يبالغوا في التأمر بأوامر المرشد والشيخ لدرجة أنهم مع مراعاة المعنى يراعون مدلول ظاهر الألفاظ أيضاً ، وهذا الحديث فيه أصل هذا أيضاً ، لأنه من المعلوم : أن المراد بالنهي عن السؤال إنما كان قطعاً النهي عن سؤال الأشياء التابعة للآخرين وليس عن أن يطلب الشيء الذي يملكه استعانة ، ولكن بما أن مدلول ظاهر اللفظ قد احتمل هذا المعنى (مع أن هذا الإحتمال منفي قطعاً للقرائن) لذلك كانوا يحتاطون حتى عن سؤال الأشياء التابعة لهم أيضاً ، كما أنه ورد في حديث آخر أنه

قال صلى الله عليه وسلم أثناء الخطبة : « اجلسوا » وكان أحد الصحابة قادماً من الباب فعندما سمع ذلك جلس فوراً في مكانه ، مع أن مقصوده صلى الله عليه وسلم قطعاً كان : أن ادخلوا واختاروا مكاناً مناسباً واجلسوا ولا تبقوا واقفين وإنما اجلسوا ، وليس المراد : أن لا تتقدموا للمكان المناسب أيضاً ، وهذه الشعبة : هي الغاية في احترام الشيخ والتأدب معه ، وهو الشرط الأعظم للإستفادة الباطنية .

وبعد ذلك نقل سيدي العارف التهانوي رحمه الله حديث عبادة رضي الله عنه المذكور سابقاً في بداية الكلام عن « البيعة » ، وذكر في فوائده : إن الحديث صريح في أن من بايعهم صلى الله عليه وسلم كانوا من الصحابة ، فثبت به أنه كانت هناك بيعة غير بيعة الإسلام والجهاد أيضاً وهي بيعة لترك المعاصي والتزام الطاعات ، وهذه هي بيعة الطريقة الرائجة عند السادة الصوفية ، فثبت أن إنكار هذه البيعة جهل ، انتهى .

يقول زكريا : علمنا من هذين الحديثين أيضاً : أنه لو قال الشيخ لأجل بعض الخصوصيات لبعض المريدين : « تعال وبايعني » فلا حرج في ذلك ، إذ ثبت ذلك من الحديثين كليهما .

إن عزيزي ابتداءً والمكرم المحترم المبجل انتهاءً الفاضل الشيخ [1] محمد يوسف نور الله مرقده قد ذكر في تأليفه البديع « حياة الصحابة » بالجزء الأول منه في « باب البيعة » مفصلاً

---

(١) العلامة المصلح والداعية الكبير الإمام الشيخ محمد يوسف ابن الإمام الجليل والمصلح الكبير والداعية الشهير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، ولد قدس الله روحه لخمس بقين من جمادي الأولى عام ١٣٣٥هـ حفظ القرآن الكريم في حداثة سنه ، وترعرع في حجور الصالحين وأحضان الصالحات ، ونشأ في بيت دين وديانة وصلاح وتقوى وورع ، قرأ أكثر الكتب على والده واخذ الحديث عن والده وابن عمه بقية السلف شيخ الحديث الشيخ الإمام الرباني محمد زكريا الكاندهلوي مؤلف هذا الكتاب وكذا عن مشايخ جامعة مظاهر العلوم بسهارنبور ، وقام بعد أبيه بأمر الدعوة والتبليغ ، ونشطت حركة جماعة التبليغ في عصره حتى انتشرت في أكثر بلدان العالم ، وكان شغوفاً جداً بأمر الدعوة لا يسأم يتكلم ويخطب ليلاً ونهاراً وفي كل ساعة ، شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ، عميق النظر في حياتهم و وقائعهم ، وربما كان فريد دهره في هذا الشأن ، ومؤلفه البديع ، «حياة الصحابة» من آثار ذلك ، وله شرح بسيط فيه أبحاث علمية نفيسة نادرة على «شرح معاني الآثار للطحاوي» لم يكمل ، يظهر منه سعة باعه في هذا العلم الشريف ، كان رحمه الله كثير الأضياف عظيم الإكرام لهم والترحيب بهم ، جل همه وغاية أمنيته : هداية الأمة وأن —

روايات كثيرة . وقد أتى بأبواب كثيرة فيه : كباب في البيعة على الإسلام ، والبيعة على الجهاد وغير ذلك ، فيه أيضاً باب مستقل بعنوان « البيعة على أعمال الإسلام » .

أشير مختصراً هنا إلى بعض الروايات منها ، والتفصيل في « حياة الصحابة » :

« أخرج الحسن بن سفيان والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم والحاكم والبيهقي وابن عساكر عن بشير بن الخصاصية رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه فقلت : علام تبايعني يا رسول الله ؟ فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وتصلي الصلوات الخمس لوقتها وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان وتحج البيت وتجاهد في سبيل الله ، قلت : يا رسول الله كلاً نطيق إلا اثنتين فلا أطيقهما : الزكاة . والله ما لي إلا عشر ذود هُن رسل أهلي وحمولتهن ، وأما الجهاد فإني رجل جبان ويزعمون أنه من ولى فقد باء بغضب من الله ، وأخاف إن حضر القتال أن أخشع بنفسي فأفر فأبوء بغضب من الله ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم حركها ، ثم قال : يا بشير : لا صدقة ولا جهاد فبم إذن تدخل الجنة ؟ قلت : يا رسول الله ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعته عليهن كلهن » كذا في « كنز العمال » جـ ٧ ص ١٢ و أحمد ، ورجاله موثقون كما قال الهيثمي جـ١ ص٤٢ .

وأخرج أحمد عن جرير رضي الله عنه قال : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » وأخرجه أيضاً ابن جرير مثله .

وأخرج الطبراني عنه قال : اتى جرير رضي الله عنه النبي ﷺ فقال : مد يدك يا جرير ، فقال : على مه ؟ قال : أن تسلم وجهك لله والنصيحة لكل مسلم ، فأذن لها وكان رجلاً عاقلاً ، فقال : يا رسول الله فيما استطعت ، فكانت رخصة للناس بعده .

= تستيقظ من غفلتها وترجع إلى ربها وبارئها ، ويتألم لما آلت إليه من الإنحراف ، تظهر واضحاً آثار التألم وما تكابده نفسه لذلك على وجهه ومن عباراته وتأوهاته التي يكاد يخفيها مع محاولاته الشديدة لذلك ، كثير الخروج في سبيل الله لإعلاء كلمته ونصر دينه ، حتى توفاه الله في إحدى هذه الأسفار المباركة في باكستان بلاهور للتاسع من ذي القعدة سنة ١٣٨٤هـ ، تغمده الله برحمته .

وأخرجه الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يبايع ؟ فقال ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بايعنا يا رسول الله : قال : على أن لا تسأل أحداً شيئاً . فقال ثوبان : فما له يا رسول الله ؟ قال : الجنة ، فبايعه ثوبان ، قال أبو أمامة : فلقد رأيته بمكة في أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو راكب فربما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناوله فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه» . كذا في الترغيب ، وأخرجه أيضاً أحمد والنسائي وغيرهما عن ثوبان مختصراً .

وأخرج أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : «بايعني رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وأوثقني سبعاً وأشهد الله علي سبعاً : أن لا أخاف في الله لومة لائم قال أبو المثنى : قال أبو ذر : فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل لك إلى البيعة ولك الجنة ؟ قلت : نعم ، وبسطت يدي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يشترط عليَّ : أن لا أسأل الناس شيئاً ، قلت : نعم ، قال : ولا سوطك إن سقط منك حتى تنزل فتأخذه ، وفي رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ستة أيام ثم اعقل يا أبا ذر ما يقال لك بعد ، فلما كان اليوم السابع قال : أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته ، وإذا أسأت فأحسن ، ولا تسألن أحداً شيئاً وإن سقط سوطك ، ولا تقبضن أمانة» ، انتهى .

عدم الإحتياج في عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المجاهدات الرائجة

في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت رؤيته المباركة فقط تكفي المؤمنين للوصول إلى درجة الإحسان ، وقد نقل بكثرة عن المشايخ المتقدمين والمتأخرين : بأن رؤيته صلى الله عليه وسلم تكفي للوصول إلى درجة الإحسان ، ولكن بعده صلى الله عليه وسلم كلما مضى الزمن وزاد البعد عن النورانية بدأت الظلمات تؤثر في القلوب .

وقد نقل عن أنس رضي الله عنه قوله برواية الترمذي أنه قال : «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، وما نفضنا أيدينا عن التراب وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا» ، كذا في «المشكاة» أي أن قلوبنا لم تبق على تلك النورانية والصفاء الذي كانت عليه عند مشاهدته صلى الله عليه وسلم .

وعن حنظلة بن الربيع الأسيدي قال : «لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ما تقول ؟ قلت : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر بالنار والجنة كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً ، قال أبو بكر : فو الله إنا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما ذاك ؟ قلت : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة - ثلاث مرات» رواه مسلم ، كذا في «المشكاة» .

أي أن المرء لا يكون دائماً على حال واحد ، فكيفية الحضور تحصل أحياناً ، وهكذا حال المشايخ : فالأحوال والكيفيات التي يكون عليها مريدوهم في معيتهم لا تبقى في حال الغياب عنهم .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم في رواية حنظلة لفظة «الذكر» أوضحت : أن في مجالس الذكر وبكثرة الذكر أيضاً يتحصل المرء على مرتبة الإحسان ، وكثرة الذكر خلف وبدل عن الحضور في مجلس الشيخ أيضاً .

وفي «التكشف» : «إن سيدنا أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه كان يصلي في حائط له فطار دُبسي فطفق يتردد ويلتمس مخرجه ، فأعجبه ذلك ، فجعل يتبعه بصره ساعة ، ثم رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدري كم صلى ، فقال : قد أصابتني في مالي هذا فتنة ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له الذي أصابه في حائطه من الفتنة وقال : يا رسول الله هو صدقة لله فضعه حيث شئت» . رواه الإمام مالك في «الموطأ» عن عبد الله بن أبي بكر .

فائدة (١) : (عادة مراقبة القلب) من أعمال السادة الصوفية : أنهم دائماً في كل ساعة يراقبون القلب بأنه كيف حالته ؟ فإن وجدوا فيه نقصاً أجبروه .

وبفعل هذا الصحابي رضي الله عنه وإقراره صلى الله عليه وسلم على ذلك ظهرت محموديته ، لأن تنبهه هذا كان أثراً لتلك المراقبة .

فائدة (٢) : (حال الغيرة) بغض ما يسبب الغفلة عن الحق جل شأنه ، حال محمود ، ويقال لهذه الحال : «الغيرة» ، وفي هذا الحديث إثباته .

فائدة (٣) : (تعليم إخراج شيء يشغل عن الحق عن ملكه) لقد اشتهرت عن كثير من المشايخ حكايات : أنهم إذا رأوا في الطالب أن قلبه تعلق زيادةً بشيء ما : أمروه بإبعاد ذلك الشيء ، هذا الحديث فيه أصل لهذه المعالجة ، فإن الصحابي رضي الله عنه رأى هذا العلاج وأقره عليه الرسول صلى الله عليه وسلم . انتهى ما في «التكشف» .

وقد وردت في «الموطأ» قصة أخرى مثلها لأنصاري في عصر سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه : «فعن عبد الله بن أبي بكر أن رجلاً من الأنصار كان يصلي في حائط له بالقف

– واد من أودية المدينة – في زمان الثمر ، والنخل قد ذللت فهي مطوقة بثمرها ، فنظر إليها فأعجبه ما رأى من ثمرها ، ثم رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدري كم صلى ، فقال : لقد أصابتني في ما لي هذا فتنة ، فجاء عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة فذكر له ذلك وقال : هو صدقة فاجعله في سبل الخير ، فباعه عثمان بن عفان بخمسين ألفا فسمي ذلك المال : الخمسين» .

وفي الكتب مئات مثل هذه الوقائع نجدها عن الصحابة رضي الله عنهم يظهر منها : أنهم رضي الله عنهم كانوا يبلغون درجة الإحسان بدون المجاهدات والرياضات الشاقة .

وذكر الإمام الشاه ولي الله الدهلوي قدس الله سره في شرحه للموطأ : إن هذه القصص آثار لتلك النسبة التي تلد في القلب ، فيقدمون عبادة الله على كل شيء ، ويجدون غيرة شديدة في ما سواها .

ويقول العلامة أبو الوليد الباجي رحمه الله : أراد إخراج ما فتن به من ماله ، وتكفير لاشتغاله عن صلاته ، قال : وهذا يدل على أن مثل هذا كان يقل منهم ويعظم في نفوسهم .

فانظر وكيف يكون أمرنا ونحن حالنا ما هو عليه من كثرة الوساوس . نرجوه سبحانه أن يغفر لنا ويعفو عنا بفضله .

وقد ذكر هذا الفقير في رسالته «حكايات صحابة بالأردوية» في الباب الخامس : قصص اهتمامهم وخشوعهم في الصلاة ، كلها عبرة وموعظة ، فهذا عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما كان يصلي وابن له يدعى هاشماً نائم بجواره ، فسقطت حية على الطفل ، فبكى وصرخ واجتمع أهل البيت وحدثت لذلك ضجة وقتلوا الحية ، كل هذا وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما مشغول خاشع في صلاته ، وعند ما فرغ منها سألهم : انه سمع صياحاً فماذا حصل ؟ فقالت الزوجة : رحمك الله كاد الولد أن يموت وأنت لم تشعر بشيء ، فقال : ويحك لو التفت في الصلاة إلى جهة أخرى لما كانت الصلاة.

وقد ذكرت في «حكايات الصحابة» قصصاً أخرى كثيرة مثل هذه ، فهؤلاء السادة رضي الله عنهم ما كان يحوجهم إلى هذه المجاهدات والرياضات الشاقة بعد أن كانوا قد

بلغوا إلى مقام «أن تعبد الله كأنك تراه» ببركة صحبتهم للرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ؟ .

وقد ذكر العزيز المحترم مولانا الشيخ محمد يوسف في «حياة الصحابة» في «باب حقيقة الإيمان» قصصاً كثيرة للصحابة رضي الله عنهم . وأولها قصة الحارث بن مالك رضي الله عنه : أخرج ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه قال : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد والحارث بن مالك رضي الله عنه راقد ، فحركه برجله وقال : ارفع راسك ، فرفع راسه ، فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت يا حارث بن مالك ؟ قال : أصبحت يا رسول الله مؤمناً حقاً ، قال : إن لكل حق حقيقة فما حقيقة ما تقول ؟ قال : عزفت من الدنيا وأظمأت نهاري وأسهرتُ ليلي ، وكأني أنظر إلى عرش ربي ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة فيها يتزاورون ، وإلى أهل النار يتعادون ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنت امرؤ نور الله قلبك ، عرفت فالزم» . وأخرجه العسكري في الأمثال عن أنس نحوه ، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» عن صالح بن مسمار نحو سياق ابن عساكر ، قال الحافظ في «الإصابة» ج ١ ص ٢٨٩ : وهو معضل .

مجاهدات الصوفية ورياضاتهم

لقد مر أنه في عهده صلى الله عليه وسلم كانت رؤيته تكفي المؤمنين للوصول إلى مرتبة الإحسان ، وكذلك مر قول الإمام القطب الكنكوهي نور الله مرقده أيضاً عنه ، وكلما بعد الزمن عنه صلى الله عليه وسلم كلما حصل النقص في نِسبة وكيفية الإحسان أيضاً ، واضطر لذلك الأطباء الروحانيون (أئمة التصوف) لإيجاد الأدوية الروحانية اللازمة لجبر هذا النقص .

وفي ترجمة «القول الجميل» يقول المترجم صاحب «شفاء العليل» : يقول المترجم : إن سيدي المصنف المحقق قلع بكلامه البديع شبهات الناقصين من أصولها، فيقول بعض السفهاء : إن أشغال القادرية والجشتية والنقشبندية المخصوصة لم تكن في عهد الصحابة والتابعين لذلك فهي بدعة سيئة ، وخلاصة الرد على هذا الإشكال هو : أن الأمر الذي لأجله أوجد المشايخ أولياء الطريقة هذه الأشغال وصلنا هذا الأمر مسلسلاً من عهده صلى الله عليه وسلم ، ولو أن طرق الحصول عليه كانت مختلفة ، ففي الحقيقة أولياء الطريقة متابعون لمجتهدي الشريعة ، فمجتهدوا الشريعة جعلوا الأصل استنباط الأحكام لظاهر الشريعة ، وأولياء الطريقة اجتهدوا للحصول على باطن الشريعة ويقال لها : «الطريقة» ، وجعلوا لها قواعد مختلفة ، فالظن في هذا أنه بدعة سيئة : خطأ واضح .

نعم صحيح أن الصحابة رضي الله عنهم بسبب صفاء طبعهم وحصولهم على النسبة الباطنة ببركة وجوده صلى الله عليه وسلم بينهم لم يكونوا في حاجة إلى هذه الأشغال بخلاف المتأخرين ، فلأجل بعدهم عن زمن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم : احتاجوا إلى هذه الأشغال المذكورة . كما أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يحتاجون في فهم القرآن والحديث إلى تعلم النحو والصرف وعلوم اللغة العربية ، ولكن أهل العجم في كل عصر والآن بالفعل العرب أيضاً يحتاجون إلى هذه الأشياء .

ونقل في حاشيته عن مولانا النواب قطب الدين رحمه الله : إن مثال ذلك هو : أن الشمس ما دامت مشرقة يستطيع المرء قراءة كل شيء في ضوئها ، وبعد غروب الشمس يحتاج المرء إلى النور للقراءة .

ففي زمن الصحابة رضي الله عنهم كانت شمس الرسالة صلى الله عليه وسلم مشرقة (تضيء القلوب) فلم تكن أية حاجة إلى الأشغال للحصول على الإحسان والحضور مع الله عز وجل ، وبنظرة واحدة إلى ذاك الوجه المنير كان يحصل على ما لا يمكن الحصول عليه الآن في اشغال الأربعينيات الكثيرة . وبما أنه قد غربت تلك الشمس المشرقة الآن : لذلك احتيج إلى الأشغال للحصول على هذه القوة والكيفية الحضورية الإحسانية .

وبعد هذا يقول الإمام الشاه ولي الله الدهلوي : سمعت سيدي الوالد قدس سره يذكر واقعة له طويلة رأى فيها الحسن والحسين وعلياً رضي الله تعالى عنهم فقال : سألت علياً كرم الله وجهه عن نسبتي هل هي التي كانت عندكم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرني بالإستغراق فيها وتأمل بعناية تامة ، ثم قال : هي هي بلافرق . (وقد ذكر الإمام ولي الله الدهلوي هذه القصة في «الدر الثمين» ص ٦١ أيضاً) ثم لصاحب المداومة على السكينة أحوال رفيعة تنوبه مرة بعد مرة فليغتنمها السالك ، وليعلم أنها علامات قبول الطاعات ، وتأثيرها في صميم النفس وسويداء القلب ، ومنها : إيثار طاعة الله سبحانه على جميع ما سواه والغيرة عليه ، فقد أخرج مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه كان يصلي (إلى آخر الحديث ، وقد مضى مفصلاً آنفاً) .

وبعدها يقول : قصة سليمان عليه السلام المشار إليها في قوله عز من قائل : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ مشهورة ومعلومة ، ثم يقول الشيخ خرم على المترجم : إن القصة المذكورة مجملها : أن سيدنا سليمان عليه السلام انشغل مرة في النظر إلى جياده لدرجة أن غربت الشمس وفاتته صلاة العصر ، فامر بقطع أعناق وأرجل جميع الجياد ، والخلاصة : أن أهل الكمال عندهم طاعة الحق مقدمة على كل أمر ، فإن حدث أي

خلل في ذلك بسبب الإنشغال في أي شيء فإن غيرة أهل الكمال تقتضي إزالة هذا الشيء الشاغل عن طاعته سبحانه ، لذلك تصدق أبو طلحة ببستانه العظيم ، وأهلك سيدنا سليمان عليه السلام جياده .

وقد ذكر الإمام الشيخ التهانوي في تفسيره البديع «بيان القرآن» قصة سيدنا سليمان عليه السلام في قوله : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ إنها قصة عجيبة جديرة بالذكر حين عرضت على سليمان جياده الأصيلة التي كانت لديه للجهاد ونحوه وذلك مساء ، فمكث ينظر إليها حتى غربت الشمس وفاته حزبه من نوع الصلاة (كذا في الدر المنثور عن علي) ، وبسبب هيبته لم يجرؤ أحد من الخدم أن يخبره بفوات الوقت (كذا في الدر عن ابن عباس) ، وعندما تبينه بنفسه قال متأسفاً : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ أي الصلاة حتى غابت الشمس ، ثم أمر خدامه وحاشيته أن يُحضروا الجياد مرة اخرى امامه ، فأحضروها له فاخذ يمسح أي (يقطع) سيقانها وأعناقها بالسيف (كذا في الدر مرفوعاً بسند حسن) أي ذبحها . ويقال لهذا في اصطلاح الصوفية : الغيرة . أي أن يبعد عن نفسه اي شيء يسبب الغفلة عن الله عز وجل .

ثم يقول الإمام الشاه ولي الله الدهلوي : إن من جملة الأحوال الرفيعة : غلبة الخوف من الله تعالى بحيث يظهر على ظاهر البدن والجوارح له أثر ، أخرج الحفاظ في الأصول : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله – إلى أن قال – : ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» وفي الحديث : «أن عثمان رضي الله عنه قام على قبر فبكى حتى ابتلت لحيته» ، «وكان لرسول الله ﷺ إذا صلى بالليل ازيز كأزيز المرجل» وذلك من البكاء تسمع من صدره الشريف أزيزاً كأزيز المرجل اي القدر عند الغليان ، وقال الإمام الشاه عبد العزيز الدهلوي : ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع» الحديث ، رواه الترمذي في «سننه» ، كذا في «المشكاة» .

وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه رجلاً بكاء لا تنقطع الدموع من عينه حين يقرأ القرآن .

وقال جبير بن مطعم : عندما سمعت هذه الآية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ فكأنما طار قلبي من الخوف ، انتهى .

وقد اتفقت أقوال القدماء والمتأخرين على أن الرياضات والمجاهدات ليست بمقصودة . وإنما المقصود في الأصل هو : «درجة الإحسان» ، وللحصول عليها إن وجد مرض ما في شخص عولج بحسبه ، واختير له العلاج المناسب لمرضه ذاك ، وكل قوم لهم عادات مختلفة وأمراض متنوعة ، ومشايخ كل زمن يختارون بحسب كل مرض علاجه ، فعندما ازداد شيوع البدع أضاف المشايخ في ألفاظ البيعة لفظة : «تجنب البدع وتركها» ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يضيف أحياناً لبعضهم :«ترك السؤال» ، ولبعضهم : «ترك النياحة» وهكذا .

وهكذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أوامره لبعض الأشخاص حسب أحوالهم غير أوامره للبعض الآخر .

ففي «المشكاة» : عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ـ وفي رواية : غيرك ـ قال : «قل آمنت بالله ثم استقم» ، رواه مسلم .

وفي موضع آخر : روي عن أبي أمامة رضي الله عنه : «أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان ؟ قال : إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن ، قال : يا رسول الله فما الإثم ؟ قال : إذا حاك في نفسك شيء فدعه» ، رواه أحمد .

وسأله عمرو بن عبسة رضي الله عنه : ما الإيمان ؟ فقال : الصبر والسماحة ، وقد ذكر المحشي لهما معان كثيرة أوضحها : أنه الصبر على المفقود والسماحة بالموجود ، وفي نفس الحديث أيضاً : أنه سئل عن أفضل الإيمان ؟ فقال : خلق حسن ، رواه أحمد .

وسأله معاذ بن جبل نفس السؤال بأنه : ما أفضل الإيمان ؟ فقال صلى الله وسلم : «أن تحب لله وتبغض لله ، وتعمل لسانك في ذكر الله» ، رواه أحمد أيضاً ، كذا في «المشكاة» .

ونقل في موضع آخر عن عبد الله بن بسر : أن رجلاً قال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به ، قال : «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» ، رواه الترمذي وابن ماجة .

وفي مقام آخر روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أوصني ، قال :لا تغضب ، فردد ذلك مراراً قال : لا تغضب ، رواه البخاري .

وفي وقت آخر روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال عظني وأوجز ، فقال : «إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع ، ولا تكلم بكلام تعذر منه غداً ، واجمع الإياس مما في أيدي الناس» ، رواه أحمد .

فالغرض : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبت عنه أنه كان يجيب كل شخص حسب أحواله وظروفه جواباً يناسبه ، وهكذا كانت تختار الألفاظ والعبارات المناسبة لكل مكان ومقام في البيعة أيضاً .

وهكذا المشايخ أيضاً تراهم في البلاد التي تروج في الناس عمل التعزيات في أيام العاشوراء يضيفون فيها عبارات : «التوبة عن عمل التعزية» ، وكما أنه في العلاج مثلاً بعض الأجسام لا يصلح لها إلا الأدوية الحارة وبعضهم بسبب أمزجتهم أو أحوال بلادهم تناسبهم الأدوية الباردة ، فيأتي مريضان وقد أصابهم مرض من نوع واحد ولكن الطبيب الحاذق يصف لكل واحد منهما علاجاً بخلاف علاج الآخر ، مع أن الغرض أيضاً واحد وهو : شفاء المريض من المرض ، وهكذا العلاجات المتنوعة الشائعة : فهناك الطب اليوناني والطب الهوميوبيتك والإيليوبيتك ، كل من هؤلاء له أصول منفردة في العلاج ، مع أن المقصود واحد وهو : إزالة المرض .

فهكذا بالضبط : مشايخ السلوك ايضاً ، فهناك الجشتية والنقشبندية والقادرية وغيرهم فهؤلاء كل منهم حسب خبرته وتجربته يختار العلاج المناسب للمرض الروحاني .

فإذا ثبت أن هذه كلها معالجات لأمراض مختلفة ، فالمطالبة حينئذ بالدليل من القرآن او السنة عن طريق مخصوص مثاله : مثال من يطلب من الطبيب اليوناني الدليل من القرآن او الحديث على أن البنفشه تزيل الزكام ؟ أو الطبيب الأوروبي «الدكتور» يطالب بان البنسلين والكونين والأسبرو من أي حديث استنبطه ؟ فما دام قد ثبت ان هذا الشخص مريض ، فما يصف له الطبيب والدكتور من علاج مباح يجب أن نعالجه به ، بل إن في الأمراض الظاهرية الجسدية يجوِّز بعض العلماء في بعض الصور : استعمال الأشياء المحرمة شرعاً أيضاً ، عندما يخبر الطبيب الحاذق المتدين أنه لا علاج لهذا المرض إلا بهذا الدواء «المحرَّم» ، بل إنه إن غصَّ إنسان بلقمة في الحلق ولم يمكن إزالتها ولم يكن هناك من المشروبات إلا الخمر : فيجب حينئذ إزالة الغصة بالخمر .

وكذا الحال بالنسبة للأمراض الروحانية أيضاً ، فما يختاره الأطباء الروحانيون لمرضاهم من الأدوية والعلاجات المجرَّبة المباحة : أفليس من الحمق والظلم أن نطالبهم بدليل لها من القرآن أو السنة ؟ ومن يتجاسر ويدعي أنها بدعة فإنه في الحقيقة يجهل تعريف البدعة .

فإن البدعة هي : الإحداث في الدين ، وليس الإحداث للدين .

والذين لا يستطيعون أن يفرقوا بينهما هم في الواقع جهلة عن الدين كله ، إن الإحداث للدين أحياناً يكون ضرورياً بل ويكون واجباً في بعض الأحيان ، مثل : آلات الجهاد ، ففي السابق كانت تكفي السيوف والرماح ولكن الإكتفاء بهذه الآلات فقط الآن مهلكة وجنون ، بل يجب ان نهتم ونجتهد لإعداد البنادق والمدافع والدبابات بل ويجب إعداد الأسلحة الذرية والنووية .

يقول الشيخ المجدد الإمام أحمد السرهندي نور الله مرقده في إحدى مكاتيبه المنقولة في (تجليات رباني ص ٤٩) ما ترجمته بالعربية :

«إنك كتبت عن عدم علمك بالنسبة الخاصة التي كانت لشيخنا المرشد (سيدي الخواجه الباقي بالله) وسألت عن سبب ذلك ؟

سيدي : مثل هذه الأشياء لا يناسب بيانها تحريراً ، بل ولا شفهياً ، لأنه لا ندري ماذا يفهم منه المرء ، ثم ماذا يستنتج منه ؟ فإنه ينبغي لهذا الشأن الحضور بشرط حسن الظن وطول الصحبة على أي طور كان ، ولكن بما أنه لا بد لكل سؤال من جواب ، أقول مختصراً : بأن لكل مقام علوم ومعارف مختلفة عن الآخر ، وكذا الأحوال والمواجيد لكل على حدة . ففي بعض المقامات يناسب : الذكر والتوجه ، وفي بعضها : التلاوة والصلاة . وبعض المقامات تكون مخصوصة بالجذب ، وبعضها مخصوصة بالسلوك ، وبعض المقامات تكون مركبة من هاتين الثروتين (الجذب والسلوك) ، وهناك مقام خال عن الجذب والسلوك ، لا الجذب له علاقة به ولا السلوك ، وهذا مقام نادر جداً .

إن أصحاب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، امتازوا بهذا المقام ، وتشرفوا بهذه المرتبة العظمى ، إن أصحاب هذا المقام يحصلون على الإمتياز التام ولا يشبهون أصحاب المقامات الأخرى إلا في القليل جداً بخلاف أصحاب المقامات الأخرى ، فإنهم يشبهون بعضهم بعضاً بأي صورة كانت ، ولم يخبر إلا القليل جداً من السادة مشايخ السلاسل عن هذا المقام .

فكيف إذن يمكن بيان معارف هذا المقام ؟ ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾. إن الصحابة الكرام رضي الله عنهم كانت تحصل لهم هذه النسبة العزيزة الوجود في أول خطوة ، وتصل إلى درجة الكمال ، ومن سواهم إن قضي له وقدر ان يتشرف بهذه الثروة ويربى على مثل نسبة الصحابة الكرام : فإنه بعد قطع منازل الجذب والسلوك والعبور على العلوم والمعارف يسعد بالحصول على هذه المرتبة العظمى .

فإن ظهور هذه النسبة المخصوصة في البداية كان خاصاً ببركة صحبة سيد البشر صلى الله عليه وسلم فقط .

نعم يمكن ان يتشرف به أحد ببركة اتباعه التام للسيد الكريم صلى الله عليه وسلم ، ثم صحبته تكون سبباً لظهور هذه النسبة في البداية أيضاً :

ومن بعد هذا ما يدق صفاته :: وما كتمه أحظى لديه واجمل

(انتهى) .

فكما أنه في الأمراض الظاهرة يُحتاج إلى طبيب ما ، لا يمكن أبداً أن يعالج الشخص نفسه فقط بمطالعة كتب الطب ، هكذا الأمراض الروحانية الباطنة أيضاً تحتاج إلى طبيب ما للعلاج والإرشاد ، وكما أنه في ظاهر الشريعة وجد مجتهدون كثيرون ، هكذا في الطريق مشايخ السلوك أيضاً ، فالأكابر في السلوك كثيرون أيضاً ، ولكن كما أنه في الشريعة انحصر المجتهدون في الأئمة الأربعة : هكذا لوجوه عديدة بالنسبة للمشايخ المعالجين للأمراض الباطنية انتشرت في ديارنا (الهند وباكستان و بنغلاديش) بالعموم أربعة طرق لهم ، وهي : القادرية والجِشتية والنقشبندية والسهروردية .

الضرورة إلى الشيخ وشرائطه

كتب الإمام الشيخ التهانوي نور الله مرقده في «التكشف» ص ١٢٦ :

ينبغي ان يعلم انه كما يحتاج لعلاج المرض الظاهري إلى طبيب يكون هو نفسه صحيحاً ومعافى ولا يكون مريضاً ، ويستطيع ايضاً علاج الآخرين ، لأنه لو كان بنفسه مريضاً فإن القاعدة الطبية هي أن : «رأي العليل : عليل» ، فإنه ولو كان طبيباً ولكن لا يعتمد على رايه لمرضه ، وإن كان صحيحاً معافى ولكنه لا علم له بطريقة العلاج فايضاً لا يصلح لعلاج هذا المريض لجهله كما هو معلوم ، كذلك نفس الشيء في علاج المرض الباطني ايضاً : يُحتاج إلى شخص ومرشد يكون في نفسه متقياً صالحاً ولا يكون مبتدعاً ولا فاسقا ، وكذلك يستطيع تكميل الآخرين .

لأنه لو كان فاسد العقيدة أو العمل فلا يطمأن إليه أن يكون مخلصاً في تعليمه وتربيته ، بل الغالب أنه يحاول ان يجعل المريد مثله ايضاً ، ولا يستطيع ان ينصحه في العمل لأنه بنفسه ليس بعامل . ويفكر انه لو نصحه فماذا يقول هذا الشخص عنه في نفسه ؟ بل الغالب أنه لكي يعظم نفسه يحاول تأويل فساد عمله بأي طريقة بأنه هو الصحيح ، وهذا فيه خطر وباب ضلال شديد .

ثانياً : لا يكون في تعليم هذا وتربيته الأنوار والبركات والتأثير والإمداد الغيبي ، وهكذا لو كان متقيا وصالحاً ولكن لا علم له بطريقة التربية الباطنية : فلا يستطيع رفع حاجة الطالب .

وكما أنه يعلم عن الطبيب البدني الظاهري ، انه طبيب كامل حقاً بعلامات : كأن يكون قد درس علم الطب وقد لازم بعده مدة كافية طبيباً كاملاً وتدرب عليه ، ويأتي إليه العقلاء من الناس للعلاج ، ويشفى على يديه المرضى بعلاجه : هكذا في الطبيب الباطن ايضاً أي الشيخ المرشد لكي نتحقق أنه شيخ يعتبر به له علامات كذلك ، وهي : ان يكون

قد لازم أحداً من المشايخ الكاملين مدة مديدة من الزمن واستفاد منه ، ويكون موثوقاً به وحسنا عند أهل العلم والفهم ، ويرجعون إليه في السلوك ، وأن يحس القلب بزيادة المحبة الإلهية ونقص محبة الدنيا بصحبته ، ويلاحظ أن تحسن أحوال الملازمين والمصاحبين له يوماً بعد يوم إلى الأفضل ، فهذا الشخص أهل بأن يجعل شيخاً ، وهو الإكسير الأعظم ، وزيارته وخدمته كالكبريت الأحمر .

إذن فمجموعة الصفات التي ينبغي أن تكون في الشيخ الكامل هي :

أن يكون متقياً صالحاً ، متبعاً للسنة ، عالماً بالدين بقدر الضرورة ، يكون قد لازم أحد الكاملين واستفاد منه باطنياً ، يميل إليه العقلاء والعلماء ، وتكون صحبته مؤثرة وتصلح به حالة المريدين ، انتهى .

وقد ذكر الإمام الشاه ولي الله الدهلوي في «القول الجميل» شرائط المرشد أشد من هذه فقال قدس سره :

«وأما المسألة الثالثة : فشرط من يأخذ البيعة أمور» :

أحدها : علم الكتاب والسنة ، ولا أريد المرتبة القصوى ، بل يكفي من علم الكتاب أن يكون قد ضبط تفسير «المدارك» أو «الجلالين» أو غيرهما وحققه على عالم ، وعرف معانيه وتفسير الغريب وأسباب النزول والإعراب والقصص وما يتصل بذلك .

ومن السنة : أن يكون قد ضبط وحقق مثل كتاب «المصابيح» وعرف معانيه وشرح غريبه وإعراب مشكله وتأويل معضله على رأي الفقهاء . يقول المترجم : إنه اشترط هذه الشروط لأن مخالفة الأئمة الأربعة فيها ضلالة صريحة . أي أنه ترك الإجماع . ويقول الإمام الشيخ عبد العزيز الدهلوي قدس سره : إن هذا المقدار من العلم يكفي للإرشاد والسلوك .

ثم يقول الإمام ولي الله الدهلوي : «وإنما شرطنا العلم : لأن الغرض من البيعة أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وإرشاده إلى تحصيل السكينة الباطنة وإزالة الرذائل واكتساب الحمائد ، ثم امتثال المسترشد به في كل ذلك ، فمن لم يكن عالماً كيف يتصور منه هذا ؟»

.. يقول المترجم : انظر سبحان الله كيف انعكس الوضع الآن ، فيظن هؤلاء الفقراء الجهلة

سفهاً ان العلم ليس بمهم في أمور التصوف ، بل يظنون أن العلم مضر بالنسبة لهذا الشأن ، لأن الشريعة شيء والطريقة شيء آخر افتراء وزوراً وكذباً ، مع ان الصوفية المتقدمون رحمهم الله قد صرحوا في كلماتهم وكتبهم مثل : «قوت القلب» و«وعوارف المعارف» و «إحياء العلوم» و«كيمياء السعادة» و«فتوح الغيب» و «غنية الطالبين» للشيخ عبد القادر الجيلاني : ان علم الشريعة شرط للتصوف والطريقة ، وهذه طامة عظيمة أن هؤلاء المشايخ الذين لا يفترون عن ترديد اسمائهم ليلاً ونهاراً يجهلون اقوالهم وتصريحاتهم ومؤلفاتهم «وإنما يتبعون أهواءهم فَيَضلون ويُضلون» . ويقول الشيخ النواب قطب الدين في حاشيته : إنه قد ثبت عن سيد الطائفة الصوفية وإمام أرباب الطريقة الجنيد قدس سره بعبارات مختلفة أنه صرح : بان «لا يقتدى في الطريق بمن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة» .

ونقل عنه رحمه الله أنه قال : «كل طريقة ردته الشريعة فهي زندقة» ، ونقل عن السري السقطي وغيره مثل هذه العبارات ، وقال : إنه نقلت اقوال المشايخ في كتاب «جامع التفاسير» ص ١١ ، فمن أراد أن يطالعها فليرجع إليه ، ثم قال الإمام الشاه ولي الله : «وقد اتفقت كلمة المشايخ على أن لا يتكلم على الناس إلا من كتب الحديث وقرأ القرآن ، اللهم إلا أن يكون رجل صحب العلماء الأتقياء دهرا طويلاً وتأدب عليهم وكان متفحصاً عن الحلال والحرام ، وقافاً عند كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فعسى ان يكفيه ذلك والله أعلم» .

والشرط الثاني : العدالة والتقوى ، فيجب أن يكون مجتنباً عن الكبائر غير مصر على الصغائر ، قال الإمام الشيخ عبد العزيز الدهلوي في الحاشية : «شرطت التقوى في المرشد : لأن البيعة شرعت لتصفية الباطن وتزكيته ، والإنسان مجبول على اقتداء افعال أبناء نوعه ، ولا يكفي للتصفية القول فقط بدون العمل ، فالمرشد الذي لا يكون متصفاً باعمال الخير واكتفى بالقول الحسن فإنه نصّاب وقاطعُ طريق» .

والشرط الثالث : ان يكون زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة ، مواظباً على الطاعات

المؤكدة والأذكار المأثورة المذكورة في صحاح الأحاديث ، مواظباً على تعلق القلب بالله سبحانه ، وكان «ياد داشت» له ملكة راسخة (والياد داشت عبارة عن التوجه الصرف المجرد عن الألفاظ والتخيلات إلى حقيقة واجب الوجود جل جلاله) .

والشرط الرابع : أن يكون آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مستبداً برأيه لا إمّعة ليس له رأي ولا أمر ، ذا مروءة وعقل تام ، ليعتمد عليه في كل ما يأمر به وينهى عنه ، قال الله تعالى : ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ فما ظنك لصاحب البيعة .

والشرط الخامس : أن يكون صحب المشايخ وتأدب بهم دهرا طويلاً وأخذ منهم النور الباطن والسكينة ، وهذا لأن سنة الله جرت بأن الرجل لا يفلح إلا إذا رأى المفلحين ، كما أن الرجل لا يتعلم إلا بصحبة العلماء ، وعلى هذا القياس غير ذلك من الصناعات ، ولا يشترط في ذلك ظهور الكرامات والخوارق ولا ترك الإكتساب ، لأن الأول : ثمرة المجاهدات لا شرط الكمال ، والثاني : مخالف للشرع ولا تغتر بما فعله المغلوبون في أحوالهم ، إنما المأثور : القناعة بالقليل والورع من الشبهات ، وقال الإمام الشيخ عبد العزيز الدهلوي : كذلك لا يشترط أن يختار الزهد التام أي يشق على نفسه في العبادات : كصوم الدهر وسهر الليالي والخلوة عن الناس ، وترك النساء واجتناب لذائذ المأكولات أو المشروبات أو الألبسة ، أو الخروج إلى الصحاري والبراري ونحوها ، لأن هذه الأمور من التشدد في الدين ، والتشدد على النفس ، وقد نهينا عن ذلك ، ولا رهبانية في الإسلام ، انتهى .

هذه الشرائط التي ذكرها سيدي الإمام الشاه ولي الله الدهلوي شديدة ، والتي ذكرها حكيم الأمة التهانوي أهون منها ، والأكابر من قبل سيدي الإمام الشاه ولي الله الدهلوي أشغلوا مريديهم في مجاهدات ورياضات أشد منها ، ثم أكرموهم بالخرقة لتربية المريدين ، فحكاياتهم معروفة ومعلومة مذكورة في كتب سيرهم وتواريخهم .

وقصة الشاه أبي سعيد الكنكوهي شهيرة جداً ، قد ذكرتها في كثير من رسائلي ، وهي بالإختصار : أنه قدس سره حضر للشيخ نظام الدين البلخي للبيعة والإصلاح ،

وعندما علم الشيخ به أولاً خرج من البلدة مسافة مرحلة لاستقبال النجل الكريم ، وصحبه إلى بلخ معززاً مبجلاً ، وهناك أكرمه وأجلسه على مسنده وجلس أمامه كالخدم ، وهكذا طول مدة إقامته هناك .

ثم عندما أراد الشيخ أبو سعيد الرجوع (وهو حفيد الإمام الرباني الجليل عبدالقدوس الكنكوهي) واستاذن الشيخ في ذلك : قدم له الشيخ الهدايا والأموال ، فقال له الشيخ أبو سعيد حينئذ : سيدي إنني لست في حاجة إلى هذه الثروة الدنيوية وإنني لم آت لأجلها إلى هنا ، إنما أريد تلك الثروة التي أتيتم بها من عندنا ، لم يسمع الشيخ نظام الدين هذا الكلام إلا وتغير وجهه وانتهره قائلاً : امش واجلس في الدهليز هناك ، واهتم بأمر تربية كلاب الصيد ، وفعلاً جعلت كلاب الصيد في توليته يغسلها وينظفها يومياً ويهتم بجميع شئونها ، وأحياناً يستخدم في السقي وأحياناً عند ما يخرج الشيخ للصيد والتنزه يخرج هذا المسكين أبو سعيد خلفه وبيده سلاسل الكلاب يهتم بأمرها ويخدمها .

وكان الشيخ قد أمر رجاله ان يعطوا لهذا الجالس بالدهليز في خدمة الكلاب قرصين من خبز الشعير صباحاً ومساءاً ، وأصبح الحال : أن الشيخ أبو سعيد عندما يحضر إلى مجلس الشيخ لا يرفع إليه بصره حتى وكأنه ليس بالمجلس ، بل ويأمره أن يجلس بعيداً عنه كأراذل القوم ، ولا يلتفت إليه بتاتاً وكأنه ليس في الحسبان ، وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر أمر المرأة التي كانت تنظف المراحيض : أنها بعد الفراغ من عملها تمر بجانب الشيخ أبي سعيد الجالس بالدهليز في خدمة الكلاب بحيث تلمسه فقط بنجاستها ثم تخبر الشيخ بما يحدث ، فعلت المرأة ما أمرت به ، وعندئذ احمر وجه الشيخ أبي سعيد غضباً وقال : لست بكنكوه والا .. فذهبت المرأة وأخبرت الشيخ بالقصة ، فقال الشيخ : بعد ، ما زالت رائحة بُنوَّةِ المشيخة «الكبر والشعور بأنه من أبناء المشايخ» باقية .

وتركه على حاله إلى شهرين آخرين ، وبعدها أمرها الشيخ أيضاً أن تمر بجنبه كالمرة الأولى بل وتكب عليه هذه المرة قصداً بعض النجاسة ثم تخبر الشيخ بما يحدث ، ففعلت ... وهذه المرة لم يتفوه الشيخ أبو سعيد بأي كلمة ، وإنما فقط نظر إليها بحدة وغضب . ثم

خفض رأسه وجلس صامتاً ، فجاءت وأخبرت الشيخ بذلك ، فقال الشيخ : ما زالت بعض الرائحة باقية بعد .

ثم تركه هكذا عدة أشهر أخرى ، وبعدها أمر المرأة أن تمر بجانبه وتكب عليه قُفة النجاسة بكاملها حتى يمتلئ بالنجاسة بكامله ، ففعلت ولكن هذه المرة كان الشيخ أبو سعيد قد تكوّن كما أريد له أن يكون ، فاضطرب لما حدث ، وأخذ يتملق إليها ويستسمح منها لما حدث ويقول : مسكينة المرأة قد سقطت بسببي ، لا تكون جرحت ، أو أصابها سوء ، ثم أخذ يملأ كفيه بالنجاسة الملقاة عليه وعلى الأرض ، ويعيدها ثانية في القفة بسرعة ، حتى أعادها كلها .

فذهبت المرأة وأخبرت الشيخ بأن الرجل بدلا من أن يغضب عليَّ اليوم أخذ يستسمح مني ، وأعاد لي النجاسة كلها في القفة ، فقال الشيخ مسروراً : نعم اليوم كمل العمل .

ثم بلّغ الشيخُ أبا سعيد بواسطة الخادم أن يجهز الكلاب اليوم للذهاب إلى الصيد ، وفي المساء خرج الشيخ نظام الدين البلخي راكباً على فرسه والخدم وراءه على أقدامهم إلى الغابة ، والشيخ أبو سعيد وراءهم وبيده سلاسل الكلاب .

والكلاب كانت معلمة وسمينة ونشيطة ، والشيخ أبو سعيد مسكين بجسمه النحيل الضعيف مع بذل جهوده لا يطيق سياستها فهي تفلت منه ، وأخيراً أخذ السلسلة وربطها حول جسمه حتى لا تفلت منه ، وعندما رأت الكلابُ الصيدَ هجمت عليه وجرت وراءه وسقط المسكين الشيخ أبو سعيد والكلاب لا تعبأ به همها الصيد وتعدو وراءه ، والشيخ أبو سعيد الهزيل الضعيف مرمي على الأرض تسحبه الكلاب السمينة ويجرحه الحجر والشجر والشوك حتى دمي جسده كله ، وأبو سعيد لا يتفوه بكلمة ، وعندما جاء إليه خادم لنصرته وأقامه أخذ يرتعش من الخوف بأن لا يكون الشيخ قد غضب لتقصيره في مهمته ، ولم انفلتت منه الكلاب ؟ وكان مقصود الشيخ : الإختبار ، وقد كان ، وفي الليل رأى الشيخ نظام الدين شيخه ومرشده قطب العالم الشيخ عبد القدوس الكنكوهي في المنام

وهو يقول بحزن : نظام الدين لم أقسو عليك في الجهد «للتربية والإصلاح» كما قسوت على أولادي ؟ وفي الصباح الباكر طلب الشيخ نظام الدين الشيخ أبا سعيد من الدهليز وضمه إلى صدره وقال له : إني قد أتيت من الهند بفيضان السلالة الجشتية ، وأنت الآن تأخذ هذا الفيض مني إلى الهند ، اذهب إلى وطنك وبارك الله لك ، وجعله مجازاً في الحقيقة وأعاده إلى الهند بكل إكرام وتبجيل ، القصة طويلة أمليتها مختصرة ، ومثل هذه المجاهدات في تلك العصور : معروفة وموجودة بكثرة في كتب التاريخ .

ولكنه بما أن الزمن الآن كل يوم وإلى الإنحطاط من ناحية القوى الجسدية ، وكذلك بالنسبة للقوة الإيمانية أيضاً ، لذلك نرى : أن المشايخ من بعد الشيخ التهانوي تساهلوا أكثر منه .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «إنكم في زمان : من ترك منكم عشر ما أمر به هلك ، ثم يأتي زمان : من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا» ، رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قال صاحب «المرقاة» : المراد بالمأمور به : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وفي رأيي : أنه شامل لجميع المأمورات ، والمراد بالنقص : إنما هو من حيث الخشوع والإحسان .

فقد روى أبو داود وغيره عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها» . فهذا النقص من حيث الخشوع والخضوع أيضاً . ولأن الزمن إلى الضعف كل يوم وآخر من حيث الإيمان ، ومن حيث القوى الجسدية أيضاً ، لذلك أصبح المشايخ ينقصون حتى في المجاهدات والرياضات ، ويسهلون أيضاً في شرائط الشيخ ، الموضوع طويل جداً ، وكنت أود أن أبسطه ولكن من يقرأ ...؟ لذلك اكتفي بهذا فقط .

وإنما ما كتبه الشيخ أبو الحسن علي الندوي في مقدمة رسالة «أكابر كا سلوك وإحسان» للعزيز الصوفي محمد إقبال : جامع ومفيد جداً ، أختم به هذا البحث :

قال : واعلم أن المذاهب والأخلاقيات والتعليم والتربية ، والإصلاح والتجديد ، والعلوم والفنون ، كل منها يمر بمرحلتين عظيمتين ، ولا مفر له منهما :

الأولى : حينما تحل الوسائل والوسائط محل المقاصد .

والثانية : عندما تكون المصطلحات حجاباً للحقائق ، ونحن نعرف جيداً أن الوسائل والمصطلحات كل منهما مهم وضروري ، وفطري وطبيعي ، ولا يمكن الوصول إلى هذه المقاصد أصلاً وتشريحها وتعميمها وتفهيمها إلا بهما ، ولكن الوسائط والمصطلحات تكون معنى محضاً للمقاصد والحقائق ، واختيارهما يكون لإكمال الضرورة مؤقتا ، ولكن في وقت قد يكون ضرورياً ومطلوباً مثل الحقائق والمقاصد ، وقد يختار المجتهد لكل من هذه الفنون الإستغناء عنها إذا دعت الضرورة إليه ، بل في بعض الأوقات يجب تركها للعلاج ، ويكون المجتهد حاكماً . ويلاحظ بدقة ألا تكون الوسائط والمصطلحات مضرة وحاجزاً ومانعاً للطريق ، ولا بد أن نعرف ونقر الحقائق التاريخية التي تحكي عن هذه المقاصد الجليلة حيث صارت الوسائط مقاصداً ، وأخفت المصطلحات الحقائق تحت أستار كثيفة ، حتى غابت الحقائق عن أذهان الناس ، بل قام جم غفير من أهل الدين ومحبيه بإنكار هذه الحقائق والمقاصد ، فكانوا يرغبون عنها ويكرهونها ، لأجل الأخطاء التي ظهرت من الذين يتحمسون للمصطلحات ، حتى صار أمراً صعباً الإعتراف بمكانة الحقائق وضرورة الحصول وتكميلها لهم ، ولما حاولنا أن نقنعهم بضرورة تحصيل المقاصد ، وسعينا أن نطمئنهم : جاءت أمام عيونهم جبال الوسائط التي قد سبقت إلى أسماعهم وأفكارهم بالمبالغة والتفريط فيها ، وذلك من المدعين المفرطين الذين خاضوا وجادلوا فيها حتى نسوا المقصود .

وهكذا لما طلبنا منهم : قبول الحقائق التي لا خلاف فيها لأحد ، بل نقول : إنها من البديهيات فصارت المصطلحات حجاباً لها ، المصطلحات التي يجوز الإختلاف فيها ، بل إنه وضع الإصطلاح في أحوال مخصوصة ، وفي مكان مخصوص ، وفي عصر مخصوص ، لتقريب هذه الحقائق إلى الأذهان ، تحت مصالح خاصة ، والأصحاب العظام الذين كانوا حاملين لهذه الحقائق ، وكانت حياتهم مثالاً لهذه الحقائق : كانوا لا يعلمون عن هذه المصطلحات شيئاً

إطلاقاً ، وقد اخترعوا وأوجدوا لإفهام الحقائق وترسيخها في الأذهان الكلمات ، والطرق ، والأساليب .

ونحن حينما نفكر في هذه المصطلحات مثلاً : النحو ، والصرف ، القواعد ، اللسان ، العلوم ، والبلاغة ، والحقيقة ، والطريقة ، والمعرفة ، وجلاء الباطن ، وإصلاح النفس ، وما إلى ذلك ، ننظر في تاريخها ونتفكر في السلف والخلف ، أي المتقدمين والمتأخرين لهذه الفنون ، فنجد حقيقة واضحة على السواء : إن المتقدمين كانوا حكاماً على الوسائط والوسائل ، وصار المتأخرون محكومين لها ، المحققون كانوا داعين وساعين إلى الحقائق ، والناقصون صاروا عبيداً وأسرى للمصطلحات .

والأديان والأخلاقيات والعلوم والفنون ، كل منها بالنسبة لمقاصدها ابتليت بهذا الإبتلاء ومنها التصوف والسلوك أيضاً ، ونحن في استطاعتنا أن نقول : إن مقاصد التصوف وحقائقه أمر إجماعي ومتفق عليه ، ولكن أثر فيها الشيئان المذكوران ، أي الغلو والإفراط في الوسائل ، والإصرار على المصطلحات .

فلو سألنا أحداً : هل الإخلاص والتخلق بالأخلاق الحسنة ضروري أم لا ؟ وهل حصول اليقين ضروري أم لا ؟ والتزين بالخصائل الحسنة والإعراض عن الرذائل مثل الحسد ، والكبر ، والرياء ، والبغض ، والحقد ، وحب الدنيا ، وحب المكانة ، وما إلى ذلك من العادات الرذيلة ، وحصول الخلوص من النفس الأمارة ، هل ضروري أم لا ؟ مستحسن أم لا ؟ ولو في درجة ما ؟ والخشوع والخضوع في الصلاة والتضرع ، والإبتهال في الدعاء ، ومحاسبة النفس ، وحب الله ورسوله ، والصفاء في المعاملات ، والصدق والأمانة ، والإهتمام بحقوق العباد ، والقدرة على النفس الأمارة ، وكظم الغيظ ، وما إلى ذلك ، كل هذا مطلوب أم لا ؟ .

فالإنسان الذي في فطرته شيء من الصلاح ، خصوصاً المسلم الذي لا يتعصب : سيجيب بالإثبات ، بل يزيد عليه ، بأن هذه الأشياء مطلوبة أيضاً . وكتاب الله وسنة رسول الله مليئان بهما تأكيداً وترغيباً ، و إذا قلنا لهم : إن الطريق لنيل هذه الصفات والمقاصد ،

هو الطريق الذي سماه الناس في القرون الأخيرة بالتصوف : يكون مفاجأة لهم ، وتبدو آثار الغضب واضحة على وجوههم ، لأنهم لا يحبون هذا الإصطلاح ، ولأنهم يحملون ذكريات غير مرضية لبعض هؤلاء الناس الذين يحملون لواء التصوف ومصطلحاته ، ولكن هذا ليس مخصوصاً بالتصوف ، ولا من خصائصه ، بل هذا حال شامل لكل العلوم والفنون ، ولكل دعوة ومدرسة فكر ودعوة إصلاح ، وكذا الجماعات الدينية المتميزة بالأسلوب الحديث ، ويوجد في الجمعيات الدينية : المخلصون والمنافقون ، والمحققون وغير المحققين ، والصادقون وغير الصادقين ، وأيضاً العاملون بالإخلاص بدون غرض ، والناس الذين يعملون لمصلحة أو لأخرى ، كل منا يدرك هذه الحقائق تماماً ، ولا مجال لأحد أن ينكرها ، وبالرغم من هذا لا يقدر أحد منا أن ينكر ضرورة الجمعيات والعلوم والفنون المذكورة ، ولا يستطيع أن يخالفها لوجود الموانع المذكورة . وهذه كبقية الأشغال والأعمال كلها ، مثلاً : تفكّر في الصناعة ، والزراعة ، والتجارة وغير ذلك من الأعمال : تجد فيها الكاملين والناقصين ، تجد فيها الهادين والمضلين ، ولكن جربنا ونجرب كل يوم أن هذه الأمور سائرة في طريقها ، والإنسان يراعي مصلحته ، ومن أجل الناقصين والمدعين لا يترك مصلحته ولا يجب أن يترك أيضاً الحقائق ، ولو كانت تختلف تماماً عن مصطلحاتها ، وفيه معنى قول الشاعر :

الرجل العاقل لا يخوض في الألفاظ ، لأن مقصد الغواص الدر وليس الصدف .

وقد تفكرنا في شأن التصوف فوجدنا : أن هناك جماعتان ، كل واحدة منهما لها وجهة نظر ، أولاها : لما نعرض عليها أجزاء التصوف على حدة تقبلها ، ولكن حين نقول لها : إننا نسمي المجموعة كلها بالتصوف : تنكرها وتبادر هذه الجماعة بالإنكار والتشديد عليه ، وتقول : نحن لا نعرف التصوف ، إن للتصوف أضراراً بالغة بالمسلمين ، بل وبالدين أيضا .

والجماعة الثانية : عندما يعرض عليها بأسماء أخرى مثلاً ، يُقال لها : إن التصوف في اصطلاح القرآن الكريم ، التزكية ، وفي اصطلاح الحديث يسمى : بالإحسان ، وعند بعض العلماء المتأخرين : فقه الباطن ، فتقول : لا نختلف في هذا وكلها منصوص عليها ،

وفي الحقيقة : لا نستطيع أيضاً أن نحكم على السنة الناس ولو كان في استطاعتنا لسميناه بالتزكية والإحسان ، وتركنا كلمة «التصوف» كليا ، ولكنه بهذا الاسم صار معروفاً ومشهوراً ، لا نستطيع أن نغيره ، ولكن ليس هذا من خصائصه ، بل إن تاريخ العلوم والفنون كلها مليء بهذه المصطلحات ، والمحققون يصرون دائماً عل المقاصد ، ويخلون بالوسائل كلها ، ويبالغون فيها، بل ينكرون بشدة وبكل صراحة الأشياء التي تتعرض لمبادئ الفن وروحه ، ولا تتمشى مع المقاصد بل تنافيها ، وقد تكون مضرة له في وقت ما .

وما مر على تاريخ الإسلام زمن إلا وقد قام من الدعاة والمعلمين ، ومن أهل التحقيق للفن : للتفريق بين القشر واللب ، وبين الحقائق والصور ، وبين المقاصد والرسوم .

وكلنا نعلم ، والتاريخ يشهد أن الشيخ الكبير عبد القادر الجيلاني ، والشيخ شهاب الدين السهروردي ، والإمام المجدد الشيخ احمد السرهندي ، والشيخ المحدث ولي الله الدهلوي ، والشيخ المجاهد احمد بن عرفان الشهيد ، والشيخ الإمام الرباني رشيد احمد كنكوهي ، والشيخ محيي السنة أشرف على التهانوي ، كل هؤلاء قاموا بالتفريق بين القشر واللب ، والمقصود وغير المقصود ، وخالفوا الرسوم وأقلعوا عن البدع التي جاءت ودخلت بالإختلاط مع الكفار والناقصين في التصوف ، واصبحت كأنها جزء من التصوف والطريق ، ونجد هذه الأشياء بكل وضوح وصراحة في كتب المشايخ مثل «فتوح الغيب» و «غنية الطالبين» للشيخ الكبير السيد عبد القادر الجيلاني ، و «عوارف المعارف» للشيخ شهاب الدين السهروردي ، و «مجموعة الرسائل» للإمام المجدد الشيخ أحمد السرهندي ، وكتب الشاه ولي الله الدهلوي ، و «صراط مستقيم» للسيد أحمد الشهيد ، و«مجموعة الرسائل» للإمام المحدث رشيد أحمد الكنكوهي ، و «تربية السالك ، وقصد السبيل» للشيخ محمد أشرف علي التهانوي ، إن هؤلاء الأكابر : أفرزوا اللبن من الماء والحقيقة من التصنع ، حتى أن الشاه ولي الله الدهلوي كتب : «إن نسبة التصوف الحقيقي هي الكبريت الأحمر (أي أنها نعمة عظمى) ولكن الرسوم التي لا أصل لها في الشريعة لا قيمة لها البتة» ، وهؤلاء الكبار كانوا يدعون دائماً إلى الأخلاق الحسنة ، والصفاء في المعاملات ، والإهتمام بحقوق

العباد ، وكانوا يجعلونها شروطاً أساسية للإصلاح والتقرب إلى الله ، وكتبهم مملوءة بهذا ، وكان هذا موضوع محافلهم .

والصالحون الذين عاصرناهم وحضرنا عندهم مراراً وتعرفنا على التصوف بهم ، لم نجد فيهم التصوف والسلوك فقط ، بل وجدنا فيهم خلاصة الدين والشريعة ، وأخلاقهم كانت نموذجاً للخلق النبوي الكريم ، وكانت معاملاتهم وأعمالهم وحياتهم كاملة في ميزان الشريعة ، ووجدناهم يفرقون بين المقاصد والوسائل دوما ، و وجدناهم مستغنين عن المصطلحات ، مكبين على الحقائق نافرين عن الرسوم ، مخالفين للبدعة مخالفة شديدة ، ووجدناهم مطيعين ومتبعين للسنة ، لا في العبادات فحسب ، بل في المعاملات والعادات أيضاً ، وكانوا مجتهدين في هذا الفن ، وليسوا مقلدين ، يعملون بالإختصار والإختيار ، وبالحذف والترميم في ضوء البصيرة والفراسة وطول التجربة في هذا الفن ، يعملون الوصفة الطبية الروحانية للمرضى حسب أحوالهم الروحانية وأمراضهم المتنوعة ، ويراعون في العلاج اختلاف الطبائع والمشاغل والأحوال ، شأنهم شأن المجتهد الذي يحكم على الفن ولا يحكم عليه ، ومقصودهم : شفاء العليل ، لا أن يكون أسيراً للرسوم ، وجدنا عندهم الصفاء في الخلق ، والكد في المجاهدات مع الإعتدال في الطبيعة ، وضبط النفس والإيثار والإنقياد والإطاعة في كل شيء ، والإخلاص ، وابتغاء رضاء الله وهو المقصود الأصلي من التصوف والأذكار والمجاهدات ، وصحبة الشيخ والبيعة نفسها ، فإن لم يحصل هذا المقصود فكل شيء مرفوض ، انتهى .

إن ما ذكره الشيخ السيد أبو الحسن عن التصوف حق وعدل ، وقد ذكر ذلك كثير من الأكابر : بأنه لا ينكر أحد هذه المسميات وإنما الخلاف فقط في التسمية ، فإن بعض الناس ينزعجون من اسم «التصوف» ، بعضهم للجهل ، وبعضهم قد رسخ في فكره للتصوف مفهوماً خاطئاً بسبب عوارض متنوعة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في «الجزء الحادي عشر» من فتاواه ، وهذا الجزء بكامله في «التصوف» ، يقول رحمه الله وقد سئل عن الصوفية وأنهم أقسام ، فما صفة كل

قسم وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه ؟ فأجاب : الحمد لله . أما لفظ «الصوفية» فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ : كالإمام أحمد بن حنبل وأبي سليمان الداراني وغيرهما . وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري ، وتنازعوا في المعنى الذي أضيف إليه «الصوفي» ثم نقل في ذلك عدة أقوال ، وقال بعدها : «وقيل - وهو المعروف - أنه نسبة إلى لبس الصوف ، فإنه أول ما ظهر الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبدالواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن ، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفي وعبادة بصرية .

ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو عن عباد أهل البصرة مثل حكاية من مات أو غشي عليه في سماع القرآن ونحوه ، كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ في صلاة الفجر ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ فخر ميتا ، وكقصة أبي جهير الأعمى الذي قرأ عليه صالح المري فمات ، وكذلك غيره ممن روي أنهم ماتوا باستماع قراءته ، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ، ولم يكن في الصحابة من هذا حاله ، فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين ، والمنكرون لهم مأخذان : منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً ، ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدي الصحابة ، كما نقل عن أسماء وابنها عبد الله .

والذي عليه جمهور العلماء : أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه ، وإن حال الثابت أكمل منه ، ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا ؟ فقال : قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشي عليه ، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه ، ونحو هذا . وقد نقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك ، وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة ، وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه ، لكن

الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن وهي : وجل القلوب ودموع العين واقشعرار الجلود ، ثم ذكر الآيات الدالة على ذلك وقال : وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها والجفاء عن الدين ما هو مذموم ، وقد فعلوا ، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها ، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

بل المراتب ثلاث :

أحدها : حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب لا يلين للسماع والذكر ، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ الآية .

والثانية : حال المؤمن التقي الذي فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه ، فهذا الذي يصعق صعق موت أو صعق غشي ، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله ، وقد يوجد مثل هذا في من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية ، يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب عقله ، ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جنّنه وكذلك في غيره ، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه ، بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله ، أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك .

فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان لم يكن فيه ذنب فيما أصابه فلا وجه للريبة ، كمن سمع القرآن السماع الشرعي ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك ، وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء ونحو ذلك من الأمور التي تُغيب العقل بغير اختيار صاحبها ، فإنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً بل معذوراً .

فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك : إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها : كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان ، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره ، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم ، ونحو ذلك من

الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله .

ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله وأكمل منه فهو أفضل منهم ، وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم ، فإنه أسري به إلى السماء وأراه الله ما أراه وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله ، فحاله أفضل من حال موسى صلى الله عليه وسلم الذي خر صعقاً لما تجلى ربه للجبل ، وحال موسى حال جليلة علية فاضلة ، لكن حال محمد صلى الله عليه وسلم أكمل وأعلى وأفضل .

وإذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد ، كما كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد ، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف فقيل في أحدهم : «صوفي» ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال .

ثم التصوف عندهم : له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه ، كقول بعضهم : الصوفي : من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واستوى عنده الذهب والحجر .

والتصوف : كتمان المعاني وترك الدعاوي وأشباه ذلك .

وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق ، وأفضل الخلق بعد الأنبياء : الصديقون .

فهذا أصل التصوف ، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف :

١ - صوفية الحقائق .

٢ - وصوفية الأرزاق .

٣ - وصوفية الرسم .

فأما صوفية الحقائق : فهم الذين وصفناهم .

وأما صوفية الأرزاق : فهم الذين وقفت عليهم الوقوف ، كالخوانك فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق ، فإن هذا عزيز ، وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم

الخوانك ، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط :

أحدها : العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم .

والثاني : التأدب بآداب أهل الطريق ، وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات ، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها .

والثالث : أن لا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا ، فأما من كان جمّاعاً للمال أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقاً : فإنه لا يستحق ذلك .

وأما صوفية الرسم : فهم المقتصرون على النسبة ، فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ، فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم ، انتهى مختصراً .

ونقل العارف الكبير الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب «عوارف المعارف» بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين ، والفقراء هم جلساء الله تعالى يوم القيامة» . فالفقر كائن في ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه .

قال رويم : التصوف مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والإفتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والإختيار .

وقال الجنيد – وقد سئل عن التصوف – فقال : أن تكون مع الله بلا علاقة . وقال معروف الكرخي : التصوف : الأخذ بالحقائق ، واليأس بما في أيدي الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف .

وقال الحسن البصري رحمه الله : لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف ، انتهى .

الأشغال و الأحوال

أكبر شيء في الأشغال : ذكر الله ، وأهم شيء في الأذكار كلها هو« لا إله إلا الله» ، لذلك يهتم في جميع طرق الصوفية بالذكر بهذه الكلمة الشريفة وإن اختلفت الهيئة والطريقة في الذكر عند أحدهم عن الآخر ، كما انه يوجد باستمرار الإختلاف في محتويات الأدوية وتركيباتها عند الأطباء .

وقد مر عليّ ان وجدت شيئاً عجيباً جداً عند الأطباء وهو : أن أحد المرضى كتب له طبيب وصفة ما فلم يستفد منها ، فذهب إلى طبيب آخر فابقى نفس الوصفة ، وإنما غير فقط في موازين وكميات بعض اجزائها ، فاحتار جداً عندما أرى : أن الدواء نفسه ، فقط تغيرت هيئته التركيبية في بعض أجزائها ، وتغير الأثر فور استعماله إياه . وقد شاهدت هذا مراراً .

وفي «تذكرة الرشيد» : حرر القطب الإمام الكنكوهي نور الله مرقده للشيخ التهانوي نور الله مرقده رداً على إحدى رسائله : إن قيود وتخصيصات أشغال المشايخ الموجودة ليست بدعة أصلا ، وجعلها مقيساً عليها يوجب الحيرة الشديدة (كان الشيخ التهانوي في رسالته قد قاس تخصيصات الإحتفال بالمولد على تخصيصات وقيود أشغال المشايخ) وخاصة من شخص عاقل زكي مثلك ، لأن تحصيل النسبة والتوجه إلى الله تعالى مأمور به من عند الله عز وجل مع أن هذا كلي مشكك ، إذ أن أدناه فرض وأعلاه مندوب ، وقد ثبت بمئات الآيات والأحاديث أنه مأمور به ، وقد بينه صلى الله عليه وسلم بل الرب جل وعلا بعبارات وطرق وأساليب شتى ، وكأن الشريعة كلها إجمالها ما هي إلا هذا ولا نستطيع البسط فيه لطوله ، إن تمعنت جيداً ظهر لك أن كل آية وكل حديث يثبت منه ذلك ، فالشيء الذي يثبت لهذه الدرجة أنه مأمور به : فكل طريقة تختار للحصول عليه تكون مأمور بها أيضا ، وفي كل زمن ووقت : بعضه يكون مؤكداً وبعضه غير مؤكد ، ففي

زمن كان الصوم والصلاة وتلاوة القرآن والأذكار المأثورة في الأحاديث كافية وافية لحصول هذا المأمور به ، ففي ذاك الزمن هذه الأشغال بقيودها وهيئاتها الخاصة وإن كانت جائزة ، ولكن لم تكن الحاجة إليها ، ثم بعد عدة طبقات عندما تغير لون النسبة إلى جهة أخرى وطبائع اهل هذه الطبقة تغيرت وتبدلت بسبب بعدها عن القرون المشهود لها بالخير ، وكانت هذه الأوراد المذكورة يمكن بها وحدها الحصول على النسبة ، ولكن بصعوبة ومشقة شديدة لذلك اضاف إليها الأطباء الباطنيون بعض القيود ، وزادوا ونقصوا في الأذكار ، فكان الحصول على المقصود توقف على هذه القيود ، لذلك فلا يكون هذا الإيجاد بدعة . بل وإن قال أحد : إنه ضروري ولازم فهو حق ، لأن حصول المقصود بدونه صعب ، (كما ثبت بالتجربة) وهذا المقصود مأمور به شرعاً والحصول عليه ضروري و واجب ، فإذن القيود أيضاً صارت مأمور بها لا بدعة ، ثم بعد ذلك الطبقة التي بعدها تغير لونها أيضاً واحتاج هناك أيضاً إلى التجديد في هذه القيودات وثم وثم وهكذا ، فكما أن الطبيب في الشتاء يعالج بطريقة ما ولكن هذه الطريقة نفسها لا تجدي في العلاج صيفاً ، بل إنها أحياناً تسبب الضرر وتزيد في المرض ، وباعتبار اختلاف الأزمنة تبدل تدابير العلاج الأولى إلى تدابير جديدة ، فمثلاً المعالجات التي كانت موجودة في ديارنا قبل مائة سنة من الآن ، وما هو محرر في كتب السابقين من الأطباء الموجودين حينئذ : كل ذلك ليس بكاف للعلاج في يومنا هذا بتاتاً ، فالإتيان ببدلها موافق للقواعد الأصلية في الطب ، وإن كان مخالفاً للعلاج الجزئي ، فلا يقال لهذا : إنه اختراع جديد ، بل يقرر : إنه مطابق لأصل الأصول .

والنظير الثاني هو : إعلاء كلمة الله أي الجهاد ، تأمل جيداً : إنه في الطبقة الأولى كانت تكفي السيوف والرماح والسهام بل والحجارة ، كما تعلمون ذلك من الأحاديث ، وفي زماننا استعمال هذه الأشياء أحياناً يضر ، ويجب وجوباً : إعداد البنادق والقنابل والأسلحة الحديثة ، لأن تحقيق إعلاء كلمة الله بدون هذه الأشياء أصبح محالا ، لذلك لا يمكن ان يقول أحد لهذه الأشياء أنها بدعة ، ولا أنها تشبه بالكفار فتحرم ، بل يجب أن يقال : إنها فرض وواجب ومأمور بها ، لأن الحصول على المقصود أصبح وكأنه موقوف عليها ،

فصارت هذه الأشياء أيضاً مأمور بها ، وعلى هذا القياس حال الأشغال أيضاً ، فقط انتهى .

واهم شيء في الأذكار الكلمة الطيبة ، وقد روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قال : موسى عليه السلام يا رب علمني شيئاً اذكرك به او ادعوك به ، فقال : يا موسى قل : لا إله إلا الله ، فقال : يا رب كل عبادك يقول هذا ، إنما أريد شيئاً تخصني به ، قال : يا موسى لو أن السموات السبع و عامرهن غيري والأرضين السبع وضعن في كفة ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهن لا إله إلا الله» رواه في شرح السنة ، كذا في «المشكاة» .

وقد ذكرت في رسالة «فضائل الذكر» لهذا المقصر عدة روايات عن فضائل «لا إله إلا الله» واهميتها ، من جملتها عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أفضل الذكر لا إله إلا الله» ، يقول العلامة الملا علي القاري رحمه الله : لا شك أن أفضل الأذكار واعظمها «لا إله إلا الله» ، وبسط في بيان فضائلها وذكر الحديث أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم : كيف نجدِّد إيماننا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : «أكثروا من قول لا إله إلا الله» ، انتهى .

قلت : إن مشايخ السلوك والأطباء الروحانيون يعلمون طريقة الذكر بهذه الكلمة لمرضى متنوعين بطرق متنوعة .

فعند المشايخ الجشتية ذكر «الإثنا عشر سبحة» شهير جداً ، ففيه : أولاً مائتين مرة : «لا إله إلا الله» ، وأربعمائة مرة : «إلا الله» ، ثم ستمائة مرة «اللهُ الله» ، ثم في نهايتها مائة مرة فقط «الله» .

يقول الشيخ التهانوي رحمه الله في «التكشف» :

إن اعترض بعضهم على ذكر «إلا الله» فقط بأن المستثنى بدون المستثنى منه ، وبدون العامل فتكون العبارة لا معنى لها ، فمثل هذا الذكر الذي لا معنى له : لا يعتبر ذكراً ، ولا يكون عليه أجر ، فيكون عبثاً فلم اختير إذن ؟ أقول : إنه حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته في فتح مكة لا يعضد شجرها قال العباس رضي الله عنه : «إلا

الإذخر يا رسول الله» فقال صلى الله عليه وسلم : «إلا الإذخر» : علم منه جواز حذف العامل والمستثنى منه عند قيام القرينة ، فكذلك في قول «إلا الله» القرينة موجودة فقد وجد قبلها الذكر «بلا إله إلا الله» ، أو بقرينة عقيدة الذاكر حذف المستثنى منه فما الحرج ؟ ويمكن توجيه آخر وهو : أنه ما ذكر قبلها من قول «لا إله إلا الله» أتينا منها مكرراً بقول «إلا الله» فقط ، فيكون المراد في كل مرة : نفس العامل والمستثنى منه السابق ، والتكرار الذي هو للتأكيد ليس هناك دليل على تحديده ، فبقدر ما يكون الإهتمام : بقدره يكون التكرار مستحسنا ، وبمقتضى المقام ، فقد ورد في بعض الروايات عن بعض العبارات : أنه صلى الله عليه وسلم : «ما زال يكررها حتى وددنا أنه سكت أو نحوه» .

ونظائر ذلك موجودة بكثرة في الأحاديث الشريفة ، ففي قصة قتل أسامة رضي الله عنه الشخص الذي ظنه منافقاً قوله صلى الله عليه وسلم :«كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ، قاله مراراً» رواه مسلم . وفي «المشكاة» في «كتاب الجهاد» قال صلى الله وآله وسلم : «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، قال : وما هي يا رسول الله ، قال : الجهاد في سبيل الله الجهاد في سبيل الله الجهاد في سبيل الله» رواه مسلم .

وهكذا مئات الأحاديث موجودة في كتب الحديث لا تخفى على دارسي الحديث ، حيث كرر فيها اللفظ الواحد مراراً كثيرة .

وهكذا يعترض البعض على ذكر لفظ الجلالة فقط «الله الله» فإن قول : الله .. الله فقط لفظ مفرد فإنه لا يفيد معنى خبرياً ولا معنى إنشائياً فما الفائدة من هذا الذكر الذي ليس له أي معنى ؟ قلت : لكن في الحديث بنفس هذا الإفراد بين لنا أن الاسم الشريف هكذا معقول ، كما في رواية مسلم : «لا تقوم القيامة ورجل يقول : الله الله» فعلم منه أنه حتى تكراره مشروعاً ، والمعنى لا ينحصر في الخبر والإنشاء فقط فإن قصد منه فقط التبرك والإستحضار فكيف يكون بلا معنى وبدون فائدة ، فإن قوله تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ﴾

بظاهر لفظه : يعم ذكر الاسم محضاً أيضاً ، وكذلك يمكن التوجيه أيضاً : بأن حرف النداء محذوف وحذف النداء شائع ومشهور ، فهذا النداء بسبب الشوق والتلذذ بالإسم ، (التكشف ص ٧٠٢) .

وقال الشيخ التهانوي في «البوادر» : إن القول المحقق في هذا الباب والبعيد عن التكلف هو : بأنه كما أن في قراءة القرآن أحياناً يكون المقصود : التلاوة ، وحينئذ يشترط أن يكون طريقه منقولاً . واختيار غير المنقول : بدعة ، وأحياناً يكون المقصود من قراءة القرآن فقط استحضاره في الذهن ورسوخ حفظه ففي هذه الحال : لا يلزم اتباع المنقول ، فمثلاً شخص يكرر كلمة مفردة لوحدها مرات ويحفظها هكذا ، وشخص آخر يكرر جملة جملة ، وشخص ثالث يكرر آية آية : كل ذلك جائز ، لا حاجة إلى أن نبحث أنه كيف كان السلف طريقهم في هذا الشان ؟ هكذا في عبارة الذكر أيضاً أحياناً يكون الذكر بنفسه مقصوداً بذاته ، فهذا يشترط فيه أن تكون الهيئة منقولة ، وأحياناً يكون المقصود فقط استحضار مطلوب خاص ورسوخ ماله علاقة بهذه العبارة ، ففي هذه الحال لا يشترط أن تكون هيئة الطريقة منقولة .

فهناك أيضاً في «إلا الله» ولفظ الجلالة «الله» : ليس المقصود بالتكرار المعتاد : الذكر بذاته ، بل المقصود : استحضار مطلوب خاص ، والمطلوب الخاص هو : الترقي التدريجي في الفناء العلمي عن غير الله ، وفي التوجه إلى الله عز وجل ، ففي البداية تكون كثرة المشهودات لذلك نفي هذا المشهود «بلا إله إلا الله» ورسوخه ، وبتكراره عندما حصل له نوعاً من الفوز في مقصوده أي (نفي المشهود) فلرسوخ ثبوت الذات العلية محضاً في الذهن : جاء التكرار بـ «إلا الله» ، ثم الثبوت أيضاً كانت نسبة حكمية فلرفع النظر عنها أيضاً ولرسوخ تصور الذات فقط في الذهن : جاء التكرار باسم الجلالة «الله» وحده فقط ، وبمنزاولته يحصل له عدم الإلتفات إلى غير المطلوب . والإلتفات الخاص إلى الحضرة الإلهية المطلوبة ، بل وبعد الرسوخ فيه وأداء حق الذكر الكامل يصل تدريجياً إلى المقصود ، وبفضله تعالى رفعت جميع الإشكالات بهذا التقرير ، وثبت أن القول ببدعيته نشأ من قلة

التدبر فيه ، والحمد لله على ما ألقى وأفهم ولقن وألهم .

وبقي الآن فقط سؤال واحد وهو : أن بالذكر بهذه الطريقة هل يحصل على الثواب والأجر ؟ ـ وللرد عليه نسأل بأنه : هل الشخص الذي يكرر من القرآن الكريم كلمة كلمة لحفظ القرآن هل لا يثاب هذا بحفظه بهذه الطريقة ؟ فما كان جواب هذا يكون جواب ذلك ، وبالنظر على القواعد هناك جواب مشترك لكليهما وهو: أنه وإن لم يحصل على ثواب التلاوة والذكر ، فإنه سيحصل على ثواب السعي والإعداد للتلاوة الكاملة ، وذاك على ثواب السعي والإعداد للذكر الكامل ، فقط انتهى .

ملاحظة الأنفاس

وهو مشهور عندهم بقولهم : «باس انفاس» ، ومعناه : «ملاحظة الأنفاس» ، وهو أيضاً من الأشغال المهمة عند مشايخ السلوك ، فإنه يذكر الله فيه بطريق التنفس ، وله طرق مختلفة معروفة عند المشايخ ، فالعمل يكون على الطريقة التي يعينها الشيخ لمريده ، وإنما العامل المشترك بين الجميع هو : أن يذكر الله في كل نَفَس ، فلا يذهب أي نفس يتنفس به الإنسان بدون ذكر الله ، وقد شدد مشايخ السلوك في تعليماتهم عليه .

قال الإمام الشاه ولي الله الدهلوي في «القول الجميل» : قال الأكابر : وهذا «باس انفاس» له أثر عظيم في نفي الخواطر وزوال حديث النفس ، انتهى . وقال مترجمه : قال العارف بالفارسي شعراً ترجمته : «إنك إن اهتممت بباس أنفاس أوصلك إلى الملك العلام» ، انتهى .

وفي «ضياء القلوب» : إن الإنسان يجب عليه أن يكون يقظاً ومنتبهاً عند كل نفس ، وبدون «باس انفاس» لا يمكن أن يصفى ويتطهر قلب الإنسان من الظلمات والأدران ، لأن هذا الذكر يطهر القلب ويصفيه من الظلمات ، ويجعله مهبطاً للأنوار الإلهية ، لذلك يقال له في اصطلاح الصوفية : «جاروب القلب» .

ويقول شيخ الإسلام حسين أحمد المدني نور الله مرقده في مكاتيبه رقم ١٧ جـ ٣ ص ٩٣ :

الغرض الأصلي من «باس انفاس» : بأن لا يخلو أي نَفَس للمرء عن ذكر الله ، لا النَفَس الداخل ولا الخارج ، فإن الإنسان في اليوم والليلة الواحدة يتنفس ما يقرب من خمس وعشرين ألف مرة «وفي إرشاد المرشد ذكر ٢٤٠٠٠ مرة» كل نفس من هذه ينبغي أن يكون معموراً بذكر الله ، «فما يمضي من العمر في الذكر فهو الحياة وهو المفيد النافع ، وفي الحديث في «باب صفة الجنة وأهلها» في الحديث الطويل بعد ذكر صفات أهل الجنة يذكر أنهم : «يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس» .. رواه مسلم ، قال المحشي عن

(المرقاة) : أي أنهم لا يتعبون من التسبيح والتحميد كما لا تتعبون من النَّفَس ، ولا يشغلهم شيء من ذلك ، كما لا يمنعكم من النَّفَس كالملائكة ، أو يريد : أنها تصير صفة لازمة لا ينفكون عنها كالنفس اللازم للحيوان) ، انتهى .

تصـــور الـشـيـــخ

ويقال له أيضاً : شغل «الرابطة» و «البرزخ» و «الواسطة» ، «كذا في تعليم الدين» وهو عند مشايخ السلوك من الأشغال الهامة جداً . وقد ذكر المشايخ له فوائد كثيرة ، وقال بعض الأكابر عنه : إنه لا يجوز مطلقاً ، وهذا عند هذا العبد غير صحيح . لأن تصور الشيخ يستفاد من أحاديث كثيرة ، لذلك فالذين لا يجوزونه مطلقاً لا أدري عنهم ولم أفهم ذاك ، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها في تطييب المحرم : «كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم» ، إلخ الحديث .

وفي رواية ابن مسعود وقد ذكرها البخاري ومسلم يقول : «كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي قصة نبي من الأنبياء ضربه قومه» ، الخ الحديث.

وفي أبي داود في «باب ما جاء في خاتم الحديد» حديث علي رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قل اللهم اهدني وسددني واذكر بالهداية هداية الطريق واذكر بالسداد تسديدك السهم» الحديث ، يقول سيدي ومرشدي الشيخ خليل احمد المحدث السهارنبوري في شرحه البديع «بذل المجهود» في ذيله : «أي واذكر بالهداية في قلبك هداية الطريق ، كما أن الطريق يسلك في وسطها ولا يميل السالك إلى اليمين أو الشمال ، ولو مال لم يبلغ المقصود ، كذلك تذكر بالهداية أن بلوغ المقصود موقوف على الإستقامة فيه ، وكذا واذكر بالسداد تسديدك السهم أي استواءه واستقامته ، فكذلك يسددني الله سبحانه ويقيمني بأن لا يبقى في اعوجاج كما لا يكون في السهم» .

وكتب مولانا محمد يحيى المرحوم ، من تقرير شيخه رضي الله عنه قوله : واذكر بالهداية هداية الطريق ، إنما امره بذلك ليكون اجمع لوساوس القلب ، وأيضاً قال : الفكر في المحسوسات أحرى منه في المعقولات ، فنبه أن يتصور عند دعائه هداية الطريق وسداد السهم لئلا يخطر بباله غيرهما ، فما هو دونهما في حصول هذين المطلوبين ، وفيه إشارة إلى

جواز تصور الشيخ ، فإن الشيخ ليس أقل مرتبة عند الله من السهم والطريق لا سيما عند معتقديه ، كيف وفيه جمع للخواطر ولو إلى جهة أسفل من التي يجب إرجاعها إليها وهو الواجب تعالى شانه ، ولا ضير أيضاً في حبه إياه عند التصور ، نعم يضره أن يتصور شيخه متصرفاً في أمر باطنه حين التصور أو حاضراً لديه أو عالماً بحاله ، ولذلك اختلف فيه الشيوخ ، ولعل النزاع بينهم لفظي : فمن جوزوه أراد الأول ، ومن منعه أراد الثاني ، إلا أن العلماء لما رأوا أنه منجر إلى فساد عقائد العوام أطلقوا فيه المنع ، وهو الحق حسب اقتضاء المقام ، انتهى .

وفي كتب الحديث روايات كثيرة بهذا المعنى : ففي «حياة الصحابة» في «باب حقيقة الإيمان» : عن أنس رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «كيف أصبحت يا حارث بن مالك ؟ قال : أصبحت يا رسول الله مؤمناً حقاً ، قال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ما تقول ؟ قال : عزفت عن الدنيا وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني أنظر إلى عرش ربي وكأني أنظر إلى أهل الجنة فيها يتزاورون وإلى أهل النار يتعاوون ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنت امرؤ نور الله قلبك عرفت فالزم» أخرجه ابن عساكر والعسكري في الأمثال نحوه وأخرجه ابن المبارك في الزهد نحو سياقه .

وأخرج أبو نعيم في الحلية جـ ١ ص ٢٤٢ عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن معاذ ابن جبل رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كيف أصبحت يا معاذ ؟ قال : أصبحت مؤمناً بالله تعالى ، قال : إن لكل قول مصداقاً ولكل حق حقيقة فما مصداق ما تقول ؟ قال : يا نبي الله ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أني لا أمسي ، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أني لا أصبح ، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى ، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيها و أوثانها التي كانت تعبد من دون الله ، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة ، قال : عرفت فالزم» ، انتهى .

وفي «الشمائل» للترمذي : عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه حلة حمراء كأني أنظر إلى بريق ساقيه ، قال سفيان : أراها حبرة . قال

الهيثمي : ورجاله ثقات ، كذا في حاشية الباجوري على «الشمائل» .

وكذلك رواية أنس رضي الله عنه قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى العجم قيل له : «إن العجم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم ، فاصطنع خاتماً ، فكأني أنظر إلى بياضه في كفه» أخرجه الترمذي في «الشمائل» .

وهكذا مئات الروايات عن التصور موجودة في كتب الحديث ، لذلك يصعب جداً أن نقول : إن تصور الشيخ لا يجوز مطلقاً ، إلا أنه إن أفضى هذا التصور إلى أمر غير مشروع فيقرر حينذاك أنه ممنوع حتماً ، وإلا فإنه لدفع الخطرات «الخواطر» وبالنسبة للمبتلين في العشق المجازي يعتبر تصور الشيخ : الإكسير الأعظم.

قال الشيخ التهانوي في «تعليم الدين» : ذكر في كتب الفن : إنه بتصور صورة الشيخ وكمالاته بكثرة تتولد محبته وتقوى النسبة «الباطنية» وبقوة النسبة تتحصل بركات متنوعة ، وبعض المحققين ذكر لتصور الشيخ فائدة واحدة فقط ، وهي أن أحد الخيالات يكون دافعاً لخيال آخر فتحصل منه السكينة وترفع به الخطرات .

وعلى كل مهما كانت فيه فوائد وحكم فالراقم (الشيخ التهانوي) تجربته : إن هذا الشغل مفيد للخاصة ومضر جداً للعامة ، إذ يبلغ بهم إلى درجة عبادة الصور ، وقد منع الإمام الغزالي وغيره من المحققين تلقين العامة والأغبياء الأشغال المؤدية إلى الكشف ونحوه . لذلك يجب أن يبعد العامة عن هذا الشغل ، والخاصة إذا عملته فبالإحتياط وفي حدوده ، فلا يظنوا أن الشيخ حاضر وناظر ومعين لهم ومساعد في الأحوال ، لأنه بكثرة التصور أحياناً تحضر الصورة المثالية أمام الشخص ، ويكون ذلك أحياناً تصور محض ، وأحياناً تكون لطيفة غيبية تمثلت بهذا الشكل ، وأغلب الأحيان يحدث هذا والشيخ لا علم له أصلاً بما يحدث . وفي هذا المقام عادة يخطئ الجهلة كثيراً ، انتهى .

ويقول شيخ الإسلام المدني نور الله مرقده في مكاتيبه ص ١/٣٤ رقم ١١ : «إن تصور الشيخ يحفظ من الوسوسة والخيالات المضطربة ويتولد من تصور الشيخ كيفيات عجيبة جداً ، والشيخ لا يكون له علم بكل ذلك ، ولا يريد حتى تعليم المريد أو نفعه ولا

يتوجه إليه ، وإنما هي مؤثرات فطرية جعلها الله تعالى ذريعة للحفظ من الوساوس الشيطانية وسبباً لنزول البركات الربانية ، ولكن بما أن عامة الناس تتخبط أقدامهم في هذا السبيل لذلك عمل حكماء الأمة في هذا الأمر بالإحتياط وإلا فهو شرعاً جائز ويظهر ثبوته من الروايات» ، انتهى .

وفي مكتوب للشيخ المدني أيضاً جـ ١ ص ١٦٠ رقم ٤٥١ : «إن الشاه إسماعيل الشهيد نهى عن شغل البرزخ سداً للذريعة ، ولكن بلغتني رواية عن الشيخ الشاه عبدالغني المجددي رحمه الله أنه كان لا ينهى عنه ، سأله بعضهم عن جوازه ؟ فقدم لهم ألفاظ رواية الإمام الحسن رضي الله عنه مستدلاً بها على الجواز ، حيث يروي الحسن رضي الله عنه عن خاله هند بن أبي هالة الذي كان يسأله عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيها الحسن معللا سؤاله خاله عن ذلك بقوله : «أتعلق به» ، ويظهر منه واضحاً أن حفظ صورته ومثاله صلى لله عليه وسلم في الذهن مقصود ، وهذا هو شغل البرزخ ، انتهى .

قلت : وهذا الحديث موجود مفصلاً في «شمائل الترمذي» ، وقد ترجمه بالأردوية هذا المقصر وقلت هناك في فوائد هذا الحديث الشريف : أحببت أن ينقل لي من هذه الأوصاف الجميلة حتى أجعل بيانه حجة وسنداً ، فاجتهد في ترسيخ هذه الأوصاف الجميلة في ذهني وفكري والتحلي بها بقدر الإمكان ، انتهى .

ويقول الشيخ المدني في مكتوب آخر رقم ٤/٨٤ : وحصول صورة ما ورسوخها في الذهن يقال له لغة : «التصور» ، سواء كانت هذه الصورة ذات روح أو غير ذات روح ، وسواء كانت لشخص عادي أو شخص مهم ، وسواء كانت لولي أو شيخ كبير أو لأب أو أم أو غيرهم ، وسواء كان يرجى من صاحبها النفع أو لا ، ولكن في العرف : «تصور الشيخ» معناه : أن يرسخ المرء في تصوره صورة أو مثال مقدس أو ولي وخاصة تثبيت ورسوخ صورة أو مثال شيخه ومرشده في تصوره يقال له : «تصور الشيخ» ، وتثبيت صورة المرشد أو تمثاله في الفكر والتصور جائز أصلاً بالإتفاق بل إنه مفيد ، وقد استحبه الصحابة رضي الله عنهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن سيدنا الحسن رضي الله عنه سأل خاله هند بن أبي هالة مراراً عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهيئته وغيرها لكي يتعلق به بتصوره ويثبته في ذهنه وفكره ، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم هيئات وصور الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام لصحابته رضي الله عنهم ، وبين لهم صورهم ولباسهم وطريقة مشيهم ، يظهر منها واضحاً أنه كان المقصود : أن تثبت وترسخ صورهم وهيئاتهم في أذهان المخاطبين بصورة جيدة .

ثم ذكر الشيخ المدني عدة روايات حيث بين فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم هيئات الأنبياء وألوانهم وصورهم وطريقة مشيهم وغير ذلك من الأمور: فروى عن بيانه صلى الله عليه وسلم في حق موسى عليه السلام : كأني أنظر إلى موسى ، فذكر من لونه وشعره شيئاً ، واضعاً أصبعيه في أذنيه له جوار إلى الله بالتلبية مارا بهذا الوادي ، الحديث . رواه مسلم .

ويقول : ﴿فإذا موسى عليه السلام ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم يعني نفسه ..﴾ الحديث ، رواه مسلم . وذكر عدة روايات ثم قال : ومثل هذه الروايات كثيرة في كتب الصحاح لا يثبت منها جواز تصور الشيخ فقط : بل يظهر استحبابه وأولويته أيضاً ويترشح منها أنه ينتج عنه نوع من الفيض والنفع الروحاني ، وإلا لم يهتم به هكذا الشارع عليه الصلاة والسلام بل لكان منع عن ذلك .

ولهذه المنافع والوجوه قرر في الزمن السابق أهل الفراسة من المتقين الصالحين : العمل بتصور الشيخ وخططوا للإنتفاع من هذه الأداة . وقد كتب قطب العالم مولانا الشيخ إمداد الله المكي قدس الله سره العزيز لخليفته الخاص الإمام الشيخ الأجل محمد قاسم النانوتوي (في رسالة أصلها بالفارسية ما ترجمته) : إذا ما سنحت الفرصة فاجلسوا بعد صلاة الفجر أو المغرب أو العشاء بانفراد في حجرة ونحوها ، وبعد تصفية القلب من جميع الخواطر توجهوا إلى هذه الناحية ، وتصوروا بأني جالس أمام شيخي والفيضان الإلهي يرد من صدر

الشيخ إلى صدري ، فإن استأنس القلب وكان الشوق والرغبة فحسن ، وإلا فانشغلوا في ذكر النفي والإثبات بجهر متوسط ، واستمروا في هذا الشغل مقدار ساعة أو ساعتين .

وفي رسالة أخرى للإمام النانوتوي أيضاً (وهذه أيضاً بالفارسية ترجمتها) : إن وجد فراغ بعد الفجر أو المغرب فراقبوا لحظة أو لحظتين وتصوروا أني جالس بين يدي مرشدي ويرد شيء من قلب المرشد إلى قلبي ، وإن شاء الله سيكون التوجه من هنا (الشيخ القطب إمداد الله قدس سره) إلى جانبكم أيضاً ، وإن شمل الحالَ الفضلُ الإلهي سيكون بذاك نفع واطمئنوا .

يقول الشيخ الإمام الشاه ولي الله الدهلوي في «القول الجميل» : قالوا (أي المشايخ) : والركن الأعظم ربط القلب بالشيخ على وصف المحبة والتعظيم وملاحظة صورته ، قلت : إن لله تعالى مظاهر كثيرة فما من عابد غبياً كان أو ذكياً إلا وقد ظهر بحذائه صار معبوداً له في مرتبته ، ولهذا السر نزل الشرع باستقبال القبلة والإستواء على العرش ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا صلى احدكم فلا يبصق قبل وجهه فإن الله تعالى بينه وبين قبلته» ، وسأل جارية سوداء فقال : «أين الله ؟ فاشارت إلى السماء ، فسألها من أنا ؟ فاشارت بأصبعها تعني : الله أرسلك ، فقال : هي مؤمنة» ، فلا عليك أن لا تتوجه إلا إلى الله ، ولا تربط قلبك إلا به ولو بالتوجه إلى العرش ، وتصور النور الذي وضعه عليه وهو أزهر اللون كمثل لون القمر ، أو بالتوجه إلى القبلة كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم فيكون كالمراقبة بهذا الحديث ، انتهى .

ثم بعد كلام طويل يقول الشيخ المدني نور الله مرقده : «هذه الطريقة (تصور الشيخ) كانت دائمة باستمرار من عهد السلف الصالح مثمرة للنتائج القوية النافعة ، ولكن المتأخرين افرطوا وأغلوا فيه واضافوا فيه أشياء كانت مضرة ومبعدة عن الصراط المستقيم .

ثم نقل الشيخ المدني ثلاثة أو أربعة فتاوى من «الفتاوى الرشيدية» وعدة رسائل للشيخ النانوتوي وقال بعدها : «الخلاصة : أن إبعاد الوساوس والخطرات ، وجمع الخواطر والأفكار ، وتقوية الهمة في العبادات أمر بينت الشريعة أهميته ورغبت فيه ، بحيث لا يحتاج

إلى بيان ، وبما أن تأثير تصور الشيخ في الحصول على هذا الأمر قوي ومفيد جداً ، لذا فإن التجربة والنصوص حرضت أكابر الأمة من المشايخ لإجراء هذه الطريقة «تصور الشيخ» وتحصلت الأمة بذلك على فوائد جمة ، ولكن بما أن جهلة المتأخرين الخاطئين أضافوا إليها بعض المحظورات والممنوعات الشرعية مثل اعتقاد : أن الشيخ «نعوذ بالله» يكون حاضراً وناظراً مع المريد في كل مكان ، وكان ينهمك في تصوره والتوجه إلى الشيخ إلى درجة أن يغفل ويستغني عن المقصود والمحبوب الحقيقي جل وعلا ، وكان يجعل الشيخ «نعوذ بالله» مثل الكعبة في كل صلاة يستقبله ويتوجه إليه ، وكاعتقاد أن الشيخ يتصرف في باطن المريد ، وتعظيم الشيخ أو صورته هذه فوق الحدود ، وكعبادة هذه الصور على حقيقتها وظاهرها كما تروج عند بعض الحمقى والجهلة والزنادقة عافانا الله ، لذا وجب على العقلاء من أكابر المشايخ : أن يفكروا في هذا الأمر ويقلعوا ذريعة الكفر والشرك والضلال من أصلها ، فشددوا لذلك ومنعوا عنه لهذه العلة .

وعلى كل حال : فهذا الأمر «تصور الشيخ» ليس بممنوع مطلقاً ولا واجب مطلقاً ، ويجب التفكر والخوض في العمق عند الإفتاء بشأنه والعمل به والله أعلم .

من تتك أسلاف – حسين أحمد غفر له ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٥٧م.

وفي «الأرواح الثلاثة» ذكر بذيل أحوال السيد أحمد بن عرفان الراي بريلوي الشهيد نور الله مرقده : أنه عندما كان السيد الراي بريلوي في حضرة شيخه الإمام الشيخ عبدالعزيز المحدث الدهلوي : علمه الشيخ شغل الرابطة هذا ، فاعتذر الشيخ أحمد عن هذا الشغل ، فأنشد حينئذ الشيخ عبدالعزيز شعراً بالفارسية معناه :

(لو أمر الشيخ الكامل مريده بالصلاة على سجادة مغموسة في الخمر فعليه أن يتأمر لأمره ، فإن السالك يجهل معالم الطريق وأسرار السبيل الموصل للمقصود) ، فرد عليه السيد أحمد : يا سيدي مرني بأي معصية أطيعك فيها ، وأما هذا فإنه ليس معصية وإنما هو شرك ولا أطيقه . وعندما سمع منه هذا الإمام الشيخ عبدالعزيز الدهلوي اخذه وضمه إلى صدره وقال : حسناً سنأخذك عن طريق النبوة فإنه لا مناسبة لك بطريق الولاية .

وبمناسبة هذا الشعر المذكور بأعلاه ذكرت قصة في (مذكراتي) قد سمعتها من اكابري ، فإن ترجمة الشعر هي : (اصبغ السجادة بصباغة الخمر إذا أمرك المرشد الكامل بذاك فإن السالك يكون جاهلاً بمنازل الطريق) .

والقصة هي : أن الإمام الشيخ عبدالعزيز الدهلوي سأله أحد تلامذته في العلم عن المراد بهذا الشعر ، فقال له الشيخ : وأنت ما علاقتك بهذا الشعر انشغل في علومك وتعلمك ، ولكنه أصر بشدة ، فأعطاه الشيخ من عنده عشر روبيات وقال له : اذهب إلى المكان الفلاني (مكان توجد فيه النساء البغاة) واسأل الدلال : إن كانت لديه أية فتاة وتمتع بها ، فحار المسكين واستغرب وتفكر في الأمر ، ولكن بما أنه كان قد استفسر بنفسه عن الشعر وأصر على فهم المراد ، لذا لم يجد بداً من الذهاب إلى المكان المذكور ، وقصد المسئول هناك فأخبره : أنه قد وردت حالاً إليهم بنت جميلة وهي في الغرفة الفلانية سأتفاهم معها وأرجع إليك ، ثم ذهب إليها وبعد موافقتها أتى وأخبره بأن يحضر بالليل فالبنت جاهزة ، وعندما وصل هذا بالليل ودخل الغرفة وجد بنتا مغطي عليها واضعةً رأسها بين فخذيها وتبكي ، فاحتار واستغرب ولم يدر ما يفعل ، ثم توجه إليها وقال لها : إنه لم يجبرها ولم يستكرهها ، وإنما أتى إليها بعد رضاها وموافقتها فلم تبكي ؟ ولكن زاد بكاؤها أكثر وصارت تجهش بالبكاء ، فتورط المسكين ولم يدر ما يفعلّ ، وبعد مدة من الزمن أخبرته المرأة الملفوفة في نفسها وهي تبكي وقالت : أنا مظلومة وبائسة ومنكوبة ، اصابني الجوع منذ ايام طويلة وأنا دائرة هائمة على وجهي هنا وهناك أبحث عن زوجي الضائع ، الذي تركني وغادر البيت منذ شهور لا أدري أين هو ؟ تقول هذا وهي تكاد تصرخ من البكاء المرير ، فسألها عن اسم زوجها وبلده ، وعندما بينت اتضح أن الزوج الضائع كان : هو هذا التلميذ نفسه ، وعندئذ بكى هذا ايضاً ، وقال لها : ارفعي رأسك وأريني وجهك ، فرفعت رأسها وعرف كل منهما الآخر ، إنه كان قد اشتاق للعلم وهرب من البيت في حب العلم ، وأقام معها تلك الليلة في ذاك المكان ، وفي الصباح حضر إلى حضرة الشيخ وقال : سيدي إن الشعر صدق وحق .

وقد سمعت قصصا اخرى ايضاً مثل هذه عن أكابري ، ولكن الشرط الأول على كل حال : ان يكون الآمر حقاً : «شيخاً كاملاً» ، ويكون جامعاً بين الشريعة والطريقة ، وعالماً برموز الأسرار الإلهية ، متفانياً في طاعة الله وطاعة رسوله ، وليس هو شأن كل من ادعى المشيخة .

وذات مرة كان الإمام الشيخ الكنكوهي رحمه الله متحمساً وذكرت مسألة «تصور الشيخ» فقال : أ اقول ؟ فقيل : نعم قل ، فقال : أ اقول ؟ فقيل : نعم قل يا سيدي ، فقال ثالثاً : أ اقول ؟ فقيل : نعم قل يا سيدي ، فقال : ثلاث سنوات كاملة كان وجه الشيخ إمداد في قلبي ، ولم أعمل اي شيء بدون ان اساله ، ثم زاد حماسه وقال : أ اقول ؟ فقيل : نعم يا سيدي قل ، فقال : كذا سنة (لم يذكر الناقل عدد السنوات التي ذكرها الشيخ خان الراوي للقصة) ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم في قلبي ، ولم أعمل شيئاً في هذه المدة بدون ان اساله صلى الله عليه وسلم ، وبعد هذه المقولة زاد حماسه أكثر وقال : أ اقول أيضاً ؟ فقيل : نعم يا سيدي قل ، ولكنه سكت فأصر الناس ، فقال : لا اتركوه ، وفي اليوم الثاني وبعد إصرار كثير قال : يا إخواني ثم كانت مرتبة الإحسان .

يقول حكيم الأمة الشيخ التهانوي رحمه الله في حاشيته على هذه القصة .

معاودة الإستفسار بقوله : «أ أقول» : ربما كان لاشتياق المخاطب وأهليته ، لأن تحمل أمثال هذه الرموز لا يكون كل شخص أهلاً له ، وفي المرة الثانية لم يعاود هذا السؤال ، فالظاهر : لأنه لم تبق حاجة إليه ، والسؤال مرة واحدة : لأن الحصول بعد الطلب يكون أوقع في النفس ، وحضور الصورة واستشارتها غالباً يكون من قوة التخيل وأحياناً خرقاً للعادة يكون تمثل الروح بشكل الجسد ، وظاهر أنه في الحالتين ليس هناك سعة لاعتقاد أن يكون حاضراً وناظراً باللزوم والدوام ، وكذا اعتقاد الإستعانة والإستغاثة ، وقوله في المرتبة التي بعدها : «لا اتركوه» ، ثم في اليوم الثاني بعد الإصرار ذكره : أنه مرتبة «الإحسان» ، فإن كان ذاك تفسير لذاك المسكوت عنه : فعدم إظهاره بها في نفس ذاك اليوم : لأن أهل الظاهر في نظرهم هذه مرتبة أدنى وأقل من تلك المرتبتين المذكورتين ، فلو بينها في نفس

الوقت لما كان له وقع في نفوسهم ، وبيانه بعد إصرارهم وفي اليوم الثاني فيه تعليم عملي : بأن هذه المرتبة هي أعظم من تلكما المذكورتين ، لأن هذا : مقصود ومقام ، وتلك المرتبتين : غير مقصودة وحال ، وشتان ما بينهما ، وإن كان هذا ليس هو تفسير لذاك المسكوت عنه : فقد أخفى تلك المرتبة ، فيمكن لأن أفهام العامة لم تكن لتتحمل المعنى المقصود ، فربما كان تجليا من التجليات الربانية ، وبيان كيفيتها بورد إشكالات علمية كما يحدث عامة عند بيان الصوفية هذه الأسرار : أن ترد لأهل الظاهر إشكالات علمية فيها ، والله أعلم ، انتهى .

كشف الصدور وكشف القبور

إن مشايخ السلوك يكشف لهم كثيراً جداً ، وهذا يكون أحياناً متفرعاً على المجاهدات ، وأحياناً يكون وهبياً .

وهذا الذي يكون موقوفاً على المجاهدات فإنه ليس خاصة بالتصوف ، بل إنه كل من اجتهد و ارتاض حصل له هذا الكشف ، لذا فلا أهمية البتة للكشف عند المشايخ عامة ، بل إنه لا يلتفت إليه ، بل وإن المشايخ بعض الأحيان إذا حصل الكشف لبعض مريديهم منعوهم من المجاهدات والرياضات .

أظن أنني ذكرت في «مذكرات حياتي» : أن صديقي المخلص الشيخ عبدالرحمن الكنكوهي وكان في كنكوه من خاصة تلاميذ والدي رحمه الله ، وفي عام ١٣٢٨هـ عندما انتقل والدي بالكلية إلى (جامعة) مظاهر العلوم بسهارنفور انتقل معه هؤلاء الطلبة المخصوصون أيضاً ، وقد درس كل كتب دورة الحديث الشريف في مظاهر العلوم ، وفي السلوك بايع على يد مرشدي وسيدي الشيخ خليل احمد ، وكان يهتم جداً بوصاياه والوظائف السلوكية ، واشتغل إماماً في مسجد قرية كسولي قريباً من مدينة شمله ، وهناك كان يدرِّس الطلبة ، وبما أني كنت أكتب رسائل سيدي الشيخ في ذلك العهد وتمر عليَّ جميع الرسائل الواردة ، وكنت أقرأ في رسائله أحواله وكيفياته العالية جداً ، وفي رسالة : ذكر المرحوم مكاشفات وعجائب عديدة ، وكنت أظن أن سيدي الشيخ سيمنحه الإجازة بالبيعة والخلافة في رده على هذه الرسالة ، ولكنه أملى في رده عليها : اترك جميع الأذكار والأشغال ما عدا الفرائض والسنن المؤكدة .

كان أكابري نور الله مراقدهم يرون : أن المكاشفات ـ وإن كانت وهبية ـ مانعةٌ عن الطريق ، وكان سيدي الشيخ يقول : بأن هذه مثالها مثال الشخص الماشي يرى عن يمين الطريق وشماله الحدائق والبساتين والأزهار وغيرها ، فلو أن هذا الشخص أخذ يتمتع ويتلذذ

بهذه الأشياء ، فإن الطريق لن ينقطع أي أنه يتأخر في الوصول إلى المقصود ، لذا كان أكابري بالعموم لا يحبون هذه الكشوف ، وقد مر في أكابري أيضاً النوعان : فسيدي الشيخ كان لا يحصل له الكشف إلا نادراً جداً ، وأما سيدنا الشيخ عبدالرحيم الراي بوري فكان يحصل له الكشف بكثرة جداً .

وكم سمعت من حكيم الأمة رحمه الله هذه المقولة ، كان يقول نور الله مرقده : (لو أجلس في حضن شيخ الهند والشيخ خليل احمد فإني لا أخشى شيئاً ، وأما الشيخ عبدالرحيم فأخاف حتى من الجلوس في مجلسه فلا أدري ما يكشف له) .

وهكذا بلغنا عن خدام الإمام القطب الكنكوهي قدس الله سره أيضاً بأن كان فيهم النوعان : فكان سيدنا الشيخ صديق احمد الأنبهيتوي يكشف له كثيراً جداً ، وسيدي الشيخ بخلاف ذاك ، كما يظهر ذلك من رسائلهم المتعددة وهي مذكورة بالتفصيل في «المكاتيب الرشيدية» ، ولكن بما أنه غالباً تحصل هذه الأشياء بواسطة المجاهدات مثل الخلوة المستمرة وحبس النفس وغيرها ، وعلى كل فعند أكابر السلوك ليس عليها مدار السلوك ، وكذلك ليست بمخالفة للشريعة المطهرة :

فسماعه صلى الله عليه وسلم للشخصين وهما يعذبان في قبورهما لسبب البول والنميمة عند مروره صلى الله عليه وسلم بجانبهما معلوم عند أهل العلم ، وقد ورد الحديث عنه في أكثر كتب الحديث ، وقد ورد أيضاً عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : «بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة ، فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ قال رجل : أنا ، قال : فمتى ماتوا ؟ قال : في الشرك ، فقال : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه» الحديث . رواه مسلم ، كذا في «المشكاة» . وفي قصة دفن سعد بن معاذ رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم : «لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله عنه» ، رواه أحمد .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة تبارك الذي بيده الملك حتى ختمها ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هي المانعة هي المنجية ، تنجيه من عذاب الله» . رواه الترمذي ، كذا في «المشكاة» .

وفي «حياة الصحابة» جـ ٣ ص ٥٩٤ : أخرج الحاكم عن يحيى بن أيوب الخزاعي قال : «سمعت من يذكر أنه كان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاب متعبد قد لزم المسجد وكان عمر به معجباً ، وكان له أب شيخ كبير ، فكان إذا صلى العتمة انصرف إلى أبيه ، وكان طريقه على باب امرأة فافتتنت به ، فكانت تنصب نفسها له على طريقه ، فمر بها ذات ليلة فما زالت تغويه حتى تبعها ، فلما أتى الباب دخلت وذهب يدخل فذكر الله وجلي عنه ، ومثلت هذه الآية على لسانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ فخر الفتى مغشيا عليه ، فدعت المرأة جارية لها فتعاونتا عليه ، فحملتاه إلى بابه وأجلس ، ودق على أبيه فخرج أبوه يطلبه فإذا به على الباب مغشيا عليه ، فدعا بعض أهله فحملوه فادخلوه ، فما أفاق حتى ذهب من الليل ما شاء الله ، فقال له أبوه : يا بنّي مالك ؟ قال : خير ، قال : فإني أسألك بالله ، فأخبره بالأمر ، قال : أي بنّي مالك وأي آية قرات ؟ فقرأ الآية التي كان قرأ ، فخر مغشيا عليه فحركوه فإذا هو ميت ، فغسلوه فأخرجوه ودفنوه ليلاً ، فلما أصبحوا رفع ذلك إلى عمر ، فجاء إلى أبيه فعزاه به وقال : ألا آذنتني ؟ قال : يا أمير المؤمنين كان ليلاً ، قال عمر : فاذهبوا بنا على قبره ، فأتى عمر ومن معه القبر ، فقال عمر : يا فلان ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فأجابه الفتى من داخل القبر : يا عمر قد أعطانيهما ربي في الجنة ، مرتين» وأخرجه ابن عساكر في ترجمة عمرو بن جامع في تاريخه فذكر نحوه كما في التفسير لابن كثير جـ ٢ ص ٢٧٩ ، وأخرجه البيهقي عن الحسن مختصراً .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن السمعاني عن محمد بن حمير : «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر ببقيع الغرقد فقال : السلام عليكم يا أهل القبور ، أخبار ما عندنا : أن نساءكم قد تزوجت ، ودوركم قد سكنت ، وأموالكم قد فرقت ، فأجابه هاتف : أخبار ما عندنا : أن ما قدمناه وجدناه ، وما أنفقناه ربحناه ، وما خلفناه فقد خسرناه» . كذا في «الكنز» جـ ٨ ص ١٢٣ .

والأحاديث والآثار في سماعهم الأصوات من القبور كثيرة ومعلومة عند أهل العلم ، لذا فمن أنكر هذه المكاشفات والخوارق فهو جاهل بالحديث والأثر .

وقد ذكر الحافظ ابن قيم الجوزية في «كتاب الروح» روايات وقصصاً عن رؤيتهم وسماعهم لأهل القبور ، من جلتها :

عن أبي عثمان النهدي أن ابن ماس خرج في جنازة في يوم وعليه ثياب خفاف ، فانتهى إلى قبر ، قال : فصليت ركعتين ، ثم اتكأت عليه ، فو الله إن قلبي ليقظان ، إذ سمعت صوتاً من القبر : إليك عني ، لا تؤذني ، فإنكم اليوم تعملون ولا تعلمون ، ونحن اليوم نعلم ولا نعمل ، ولأن يكون لي مثل ركعتيك أحب إليَّ من كذا وكذا ، فهذا قد علم باتكاء الرجل على قبره .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني إسماعيل بن عياش عن ثابت بن سليم ، حدثنا أبو قلابة قال : أقبلت من الشام إلى البصرة ، فنزلت منزلا ، فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ، ثم انتبهت ، فإذا صاحب القبر يشتكيني : قد آذيتني منذ الليلة ، ثم قال : إنكم تعملون ولا تعلمون ، ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ، ثم قال : الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال : جزى الله أهل الدنيا خيراً ، أقرئهم منا السلام ، فإنه يدخل علينا من دعائهم نور مثل الجبال .

وذكر [ابن أبي الدنيا] من حديث أبي سفيان حدثنا داود بن شابور عن أبي قزعة قال : مررنا في بعض المياه التي بيننا وبين البصرة ، فسمعنا نهيق حمار ، فقلنا لهم : ما هذا

النهيق ؟ قالوا : هذا رجل كان عندنا كانت امه تكلمه بالشيء فيقول لها : انهقي نهيقك ، فلما مات : سمع منه هذا النهيق من قبره كل ليلة .

وذكر أيضاً عن عمرو بن دينار قال : كان رجل من أهل المدينة ، وكانت له أخت في ناحية المدينة ، فاشتكت ، وكان يأتيها ويعودها ، ثم ماتت فدفنها ، فلما رجع ذكر أنه نسي شيئاً في القبر كان معه ، فاستعان برجل من أصحابه قال : فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع ، فقال للرجل : تنح حتى أنظر على أي حال أختي ؟ فرفع بعض ما على اللحد فإذا القبر مشتعل ناراً فرده وسوى القبر ، فرجع إلى أمه فقال : ما كان حال أختي ؟ فقالت : ما تسأل عنها وقد هلكت ؟ فقال : لتخبريني ، قالت : كانت تؤخر الصلاة ولا تصلي فيما اظن بوضوء ، وتأتي أبواب الجيران فتلقم اذنها أبوابهم وتخرج حديثهم .

وذكر ابن أبي الدنيا أن رجلاً سأل أبا إسحق الفزاري عن النباش هل له توبة ؟ فقال : نعم إن صحت نيته وعلم الله منه الصدق ، فقال له الرجل : كنت أنبش القبور ، وكنت اجد قوماً وجوههم لغير القبله ، فلم يكن عند الفزاري في ذلك شيء ، فكتب إلى الأوزاعي يخبره بذلك ، فكتب إليه الأوزاعي : تقبل توبته إذا صحت نيته ، وعلم الله الصدق من قلبه ، وأما قوله له : إنه كان يجد قوماً وجوههم لغير القبلة ، فأولئك قوم ماتوا على غير السنة ، انتهى .

قلت : يعني أهل البدع .

وبعد ذكر هذه الآثار والقصص يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله :

(وهذه الأخبار وأضعافها وأضعاف أضعافها مما لا يتسع لها الكتاب مما أراه الله سبحانه لبعض عباده من عذاب القبر ونعيمه عياناً .... وليس عند الملاحدة والزنادقة إلا التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه) ، انتهى .

وما ذكر بأعلاه كان عن كشف القبور، وأما بالنسبة لكشف الصدور : فيقول الحافظ ابن القيم في (كتاب الروح) أيضاً :

(وأما الفراسة فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : أي للمتفرسين .. فالفراسة الصادقة بقلب قد تطهر وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه .

وفي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ، الحديث .

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله ، فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه ، وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه ، وأضاء له النور بقدر قربه فرأى في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب ، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال : «ما تقرب إليَّ عبدي بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي» .

فأخبر سبحانه : أن تقرب عبده منه يفيده محبته له ، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله ، فسمع به وأبصر به وبطش به ومشى به ، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هي عليه ، فلا تكاد تخطئ له فراسة ، فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه ، فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه ، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق في قلب قريب مستبشر بنوره غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التي تمنعه من حصول صور الحقائق فيه ، وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين : فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أصحابه في الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه ، ورأي بيت المقدس عياناً وهو بمكة ، ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء

ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ، ورأى أمراءه بمؤتة وقد أصيبوا وهو بالمدينة ، ورأى النجاشي بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج إلى المصلى فصلى عليه .

ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم فناداه : يا سارية الجبل ، ودخل عليه نفر من مدحج فيهم الأشتر النخعي فصعد فيه البصر وصوبه وقال : أيهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث ، فقال : ماله قاتله الله إني لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً .

وقيل : إن الشافعي ومحمد بن الحسن جلسا في المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد : أتفرس أنه نجار ، فقال الشافعي : أتفرس أنه حداد ، فسألاه ؟ فقال : كنت حداداً وأنا اليوم أنجر .

وكان بين أبي زكريا النخشبي وبين امرأة سبب قبل توبته ، فكان يوماً واقفاً على رأس أبي عثمان الحيري فتفكر في شأنها ، فرفع أبو عثمان إليه رأسه وقال : ألا تستحي ؟ وكان شاه الكرماني جيد الفراسة لا تخطئ فراسته ، وكان يقول : من عف بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بداوم المراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال : لم تخطئ فراسته .

وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد فقال : إيش هذا الذي ذكر لي عنك ؟ فقال له : اعتقد شيئاً ، فقال له الجنيد : اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدتَ كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، فقال : اعتقد ثانياً ، قال : اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، قال : اعتقد ثالثاً ، قال : اعتقدت ، قال الشاب : هو كذا وكذا ، قال : لا ، فقال الشاب : هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبي ، فقال الجنيد : صدقت في الأولى والثانية والثالثة ، لكن أردت أن امتحنك هل يتغير قلبك .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً ، فقلت في نفسي : مثل هذا كَلٌّ على الناس ، فنظر إليَّ وقال : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا

﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾، قال : فاستغفرت في سري ، فناداني وقال : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ ..

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة في طريقه فتأمل محاسنها ، فقال له عثمان : يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينه ، فقال : أوَحيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة .

فهذا شأن الفراسة وهي نور يقذفه الله في القلب ، فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له ، فنفذ إلى العين فيرى ما لا يراه غيره ، انتهى .

هذا كله نقلناه من «كتاب الروح» لابن القيم ، وقد بسط في كتابه هذا في الموضوع أكثر مما ذكر ، وإنما أتينا بالمجمل النافع إن شاء الله ، هدانا الله جميعاً للحق وسواء السبيل .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في فتاواه جـ ١١ ص ٢٠٤ في تأييد المكاشفات : «وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة ، وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه أنها تتجلى للمطيعين : هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم ، فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات» ، انتهى .

ومعلوم أن الإمام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله له قولان في الماء المستعمل في الوضوء ، فكان أولاً يقول بنجاسته عندما كان يرى سواد الماء لغسله الذنوب ، فدعا الله سبحانه وتعالى أن يزيل عنه هذه الحالة ، وأنه لا يرغب في الإطلاع على عيوب الناس ، فتقبل الله دعاءه ورفع عنه ذاك الحال وزال الكشف ، فرجع من القول بنجاسته إلى القول بطهارته .

الشطحيات

تصدر من بعض أصحاب الحال أثناء غلبة الحال عليهم كلمات لا تنطبق على الشريعة ، «التكشف ٥١٩» . التفوه بكلام يكون مخالفاً للقواعد الشرعية الظاهرة في حالة عدم الصحوة بسبب غلبة الوارد يكون شطحاً ، وهذا الشخص لا إثم عليه ولا يجوز تقليده البتة ، «تعليم الدين» .

يكون في كلام الأكابر عبارات يفتي فيها أهل الظاهر أحياناً حتى بالكفر ، فمثل هذه العبارات والألفاظ إذا نطق بها في حال غلبة الشوق أو السكر : فلا تكون سبباً للتكفير ، ولا يجوز تقليدهم فيها أبداً ، فقد ورد في الحديث الشريف : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لله اشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح» رواه مسلم .

وقد وردت هذه الرواية في صحيح البخاري ومسلم عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما بألفاظ مختلفة ، ويقول العارف التهانوي في «التشرف» ص ١٠٨ بذيله : وتبين من هذا الحديث ان خطأ المغلوب معفو عنه ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينكر على خطأ الشخص بعد نقله مع أنه كان بسبب شدة الفرح ، وهي حالة ناشئة عن الدنيا ، إذن فما بالك بالذي يكون مغلوباً بمحبة الله عز وجل والشوق إليه سبحانه ، فهي من الكيفيات الناشئة عن الدين ، انتهى قوله .

ثم في قصة السيدة عائشة رضي الله عنها حينما اتهمت في الإفك ، ثم نزلت براءتها في القرآن من عند الله عز وجل ، فأمرتها والدتها أن تقوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكانت رضي الله عنها في حالة تحمس) فقالت كما ورد في صحيح البخاري ومسلم

وغيرهما : والله لا أقوم إليه ، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل .. الحديث .

يقول العارف التهانوي رحمه الله : لقد نقلت عن بعض الصالحين نظماً أو نثراً كلمات يوهم ظاهرها إلى إساءة الأدب ، فإن كانت هذه في حالة غلبة الحال فيقال لها : «الشطح» أو «الإدلال» ، وقول الصديقة رضي الله عنها هذا أيضاً من هذا القبيل ، ومنشاه شدة الهم لسبب خاص ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم نفسه باقتضاء بشريته وعدم علمه للغيب كان متشوشا ومترددا في أمرها ، وكانت الصديقة رضي الله عنها قد اطلعت على هذا التردد ، فكانت قلقة وحزينة بأن وا أسفاه حتى الرسول صلى الله عليه وسلم قد اشتبه في أمرها ، فعند نزول الوحي الإلهي ببراءتها تحمست وصدر منها هذا الجواب ، وبما أنه صلى الله عليه وسلم لم ينكر عليها : فثبت من الحديث الشريف كون أهل الشطح والإدلال معذورين ، «التكشف ص ٥٠٦» .

و ورد أيضاً عن السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها بأن قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم : «إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى ، قالت : فقلت : وكيف ذلك فقال : أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين : لا ورب محمد ، وإذا كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم ، قالت : أجل والله ما أهجر إلا اسمك» .

هذه قصص الحب والدلال يعلمها أهل المحبة والوداد ، فالرسول صلى الله عليه وسلم أحس وشعر بذلك من أسلوب قسمها ، وبما ان ذلك أيضاً كان من دلال الحبيبة رضي الله عنها لذا لم ينكر عليها .

وقد مرت قصة الشيخ الخواجه أحمد جام وقوله : «ما مي كنيم» أي «نحن نفعل» بأنه بسبب مسحه على عين الأعمى زال عنه العمى وصار يقول : «ما مي كنيم ، ما مي كنيم» . أي نحن نشفي «نحن نفعل» وكان ذلك بسبب تلذذه بالعبارة الإلهامية كما مر .

وذكر في كتاب «الأرواح الثلاثة» ص ٣٤٩ أن الشيخ محمد يعقوب النانوتوي كان جالساً في فصله حزيناً كثيباً فأتى إليه حينئذ الشيخ أمير شاه خان ورجال آخرون غيره ، فقال الشيخ : لقد أخطأت خطأً فاحشا، لقد قلت لله عز وجل قولاً فرد عليَّ ، فقلت له

ثانياً (وكان ظاهره سوء ادب) فقيل لي في جوابه : بس اسكت ولا تتسفه (هكذا) فسكتُّ بعدها واستغفرت واعتذرت كثيراً فعفي عني ، وعندما بلغت هذه القصة الشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي اضطرب وقام من مجلسه وقال : أف أهكذا قال الشيخ يعقوب ...أستغفر الله أستغفر الله ، يا أخي هذه معاملته هو لأنه مجذوب ، أما نحن فلو صدرت منا مثل هذه الإساءة لدكت رقابنا ، وقال العارف التهانوي في حاشيته : في بعض مراتب المجذوبية يعفى عن مثل هذه الأقوال بدخولها في الإدلال ، وهناك بعض المجاذيب يكون عليهم أثر الجذب بعض الأحيان فقط .

إن درج الجامع الكبير بدلهي ما زالت منذ البداية مستقراً لمجذوب ما ، وقد اشتهرت قصص كثيرة عن أولئك المجاذيب ، ولا نعلم منذ متى هذه الدرج كانت مستقراً لهم ، ذكر عن الشيخ العارف مرزا مظهر جان جانان رحمة الله عليه : أنه عند ما كان يذهب لصلاة الجمعة في الجامع الكبير يدخل من البوابة الجنوبية ، وعند فراغه من الصلاة يخرج من البوابة الشرقية ، وكان يجلس رجل صالح في الدكة الشمالية الموجودة في البوابة الشرقية بعد الجمعة على سجادة يفرشها هناك ويضع أمامه إبريقاً من الطين وعليه طوبة عادية قديمة ، وكان الشيخ مرزا عندما يأتي بعد الجمعة : يقدم إلى هذا الرجل الصالح ويرفسه بأقدامه ويسبه ويشتمه ، ثم يسحب السجادة من تحته ويقذفها بعيداً ويأخذ الإبريق ويكسره والطوبة يرميها بعيداً ، يفعل كل ذلك ثم ينصرف والناس يرون هذه الأفعال وهي لا تليق وشأن الشيخ الجليل بأي حال فيتعجبون ، ولكن لا يجرؤ أحد على الإستعلام عن هذا الشخص ومعاملته الغريبة معه ، وذات مرة تجرأ أحد المقربين وسأله ؟ فقال الشيخ مرزا مظهر رحمه الله : قصة هذا الشخص : أنني عند ما كنت صبياً كان هذا من المحبين لي وكنت حينئذ أعمل معه مثل هذه المعاملة ، ثم كبرت وهداني الله سبحانه وتعالى ، فتوجهت إلى السلوك وبفضله سبحانه تشرفت بالإجازة بالتلقين ، ففكرت يوماً أن هذا الشخص من المحبين المخلصين يجب أن أتوجه إليه ، وعندما توجهت إليه انكبست في عكسه وظهر لي : أنه أعلى مني بكثير ، فاضطربت لذلك فعاملته بالإكرام وتركت له مقامي ، وقلت له إنني

لست أهلاً لهذا المقام وتفضل أنت فإنك أهله ، فلم يرض ، فألححت عليه فلم يرض أيضاً ، بل قال : بأنه يجب عليك أن تعاملني بنفس المعاملة التي كنت تعاملني بها في السابق ، وهذا لم أرض به أنا ، وحينئذ سلب مني جميع الكيفيات وأصبحت فارغاً ، فحزنت لذلك وقلت له : أعد إليَّ كيفياتي ، فقال لي : نعم أعيدها بشرط أن تعاهدني بأن تعاملني بنفس المعاملة التي كنت تعاملني بها دائماً في السابق ، وليس هنا بل في الجامع الكبير أمام كل الناس ، فوافقت مضطراً وبسبب ذاك ترون كل هذا .

يقول العارف التهانوي في حاشيته : قوله : سلب الكيفيات : أقول : حقيقة هذا السلب كما سمعته من مولانا الشيخ الكنكوهي قدس روحه هي : التصرف في قوى المعمول الإداركية والعملية بحيث تأتي فيها الغباوة ، وأما الكمال والقرب فلا يمكن أن يزيله أحد ، يقول الأحقر (العارف التهانوي نفسه) : مثل هذه الغباوة يمكن أن توجد بسبب غلبة مرض أو دواء ونحوهما أيضاً ، وليس هناك بسببه أي ضرر في ذاته إلا أن يحدث حزن بسبب النقص في اللذة ، وإنما بالواسطة أحياناً يكون مضراً ، وذلك أنه يكون سبباً للنقص في النشاط ويفضي ذلك إلى التقليل في الأعمال . لذلك فحيث احتمل ذلك : يكون هناك هذا التصرف حراماً ، وحيثما كانت غلبة الكيفيات النفسانية مخلة للضروريات الواجبة الدنيوية أو الدينية : كان هناك هذا التصرف طاعة ، وحيثما كانت المصلحة مباحة محضاً : يكون مباحاً كما حدث في هذه القصة ، «الأرواح الثلاثة ص ٢١» .

إن هذا المقصر استمر لعدة سنوات في السابق عضواً لمجلس الشورى لدار العلوم «بديوبند» وكانت معاملة سيدنا شيخ الإسلام السيد حسين أحمد المدني نور الله مرقده مع الحكيم إسحاق الكتهوري أشد من هذا بكثير ، وكنت في البداية أتعجب لذاك وأتحير وأخيراً فهمت .

يخرج من الكلام كلام ، والقصة التي كنت أريد أمليها هي : أنه كان يوجد على درج الجامع الكبير بدلهي (هذه التي مر ذكرها) مجذوباً وكان صالحاً ومتمسكا بالشرع ، وفي يوم من الأيام أخذ يقول : «لستُ عبدك ولستَ ربي» ، وصار يكرر هذه الجملة

ويصيح بها ، فمسك به الناس وأخذوه إلى القاضي ، والقاضي كان رجلاً ذكياً صالحاً ، توجه للمجذوب وسأله عما يقول ؟ فأجاب : إن الشيطان متسلط عليّ منذ ساعتين ويصر عليّ أن أقول له « اللعين » : « إنك ربي وأنا عبدك » ، وأنا أغضب عليه وأصيح في وجهه بأني : « لستُ عبدك ولستَ ربي » .

والمقصود من هذه القصص هو : أنه لا ينكر على الشطحيات بدون فهمها ، أما تقليد أصحابها وإتباعهم : فلا يجوز مطلقاً أبداً ، والله المستعان .

السكر والغشي

السكر والغشي يكونان أحياناً سبباً للشطحيات ، وقد حملت كثير من أقوال وأحوال مشايخ السلوك على حالة السكر ، والسكر إن كان من شيء حرام فبطلانه وحرمته ظاهرة ، ولكن أحياناً يكون ذلك بسبب وارد قوي لا يتحمله القلب ، وهذا لا يكون دائماً أثراً لضعف القلب بل وإن قوي القلب جداً أحياناً عندما يكون الوارد أقوى منه يغشى عليه بسبب قوته .

فإن سيدنا موسى عليه السلام مع انه كان من أولي العزم من الرسل وقد طلب بنفسه من الباري عز وجل رؤيته سبحانه ولكن عندما تجلى سبحانه خر عليه السلام مغشيا ، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بما أن قوة تحمله كانت أعظم من موسى عليه السلام ، فإنه حصلت له النسبة الإتحادية مع سيدنا جبريل عليه السلام عند نزول الوحي الأول في الغار ، وبعدها في الثلاثة عشر سنة ترقى إلى تلك المقامات والدرجات العلية التي لا تتصور ، فعندما عرج به تأخر جبريل عليه السلام قائلاً :

﴿إني لو طلعت إلى أعلى مقدار شعرة فإن نور التجلي سيحرق جناحي﴾ .

والنبي صلى الله عليه وسلم في ليلة المعرج هذه لم يطرأ على جسده الأطهر أي تغير أو انكسار أو اضمحلال مما رأى في السماوات من العجائب والغرائب ، ورجع على نفس حالته التي كان قد ذهب عليها .

قال العارف التهانوي نور الله مرقده في ﴿التكشف ص ٥٣٠﴾ : كما يصبح العقل مغلوباً بسبب الأحوال الجسمانية هكذا يكون أحياناً مغلوباً بسبب الأحوال النفسية أيضاً ، وهذا ثابت ومسلم عند الأطباء أيضاً .

ومن جملة الأحوال : النفسية أيضاً التي يحصل بها غلبة السكر ويصبح العقل مغلوباً ، فكما أن المجنون والمعتوه معذوران شرعاً : كذلك صاحب السكر ومغلوب الحال أيضاً في

أقواله الشطحية وأفعاله كترك الواجبات أحياناً ، كما أن المجنون والعته لا يحس به أحياناً أيضاً فيسبب الإشتباه وبارتكابه المحرمات معذور أيضاً ، كذلك هذا السكر لا يحس به الآخرون .

فالسادة الذين يتأول في كلامهم بالعذر تكون فيهم قرينة نقل السكر عنهم وقرينة أقوى هي : نقل فضائلهم وكمالاتهم واتباعهم للسنة في غالب الأحوال ، وهذا يجبرنا على التأويل ، وإلا فالذي يكون غالب أحواله الفسق والمعصية واتباع الباطل فهناك لا حاجة إلى اي تأويل . لأن الإحتمال الغير ناشيء عن دليل لا يعتبر به ، وإلا سد باب الإنكار والإحتساب والسياسة وهو باطل .

وفي «التكشف» أيضاً ص ٥٠٠ : في صلاته صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي وإنكار عمر رضي الله عنه والإصرار عليه قال فيه : إن رفع الإمتياز في الأحكام الظاهرة والباطنة للوارد الغيبي هو السكر ، وعود هذا الإمتياز هو الصحو ، لقد كان ورود البغض في الله على قلب سيدنا عمر رضي الله بقوة لدرجة أنه لم يلتفت إلى أنه كيف يعامله صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً ، وهي صورة مستبعدة عن التأدب ، ففي هذه الحال قد أعذره الشارع عليه الصلاة والسلام ، ثم عندما رجع إلى حالة الصحو فورد في الحديث : أنه تعجب على جرأته وندم .

وفي أكابر الصوفية أيضاً : يكون ظهور الواردات بكثرة جداً ، فإن كان الوارد ضعيفاً والقلب قوياً فلا يتبين أثره ، وإن كان الوارد قوياً والقلب ضعيفاً فيظهر أثره .

أذكر جيداً وبتفصيل قصة العارف الكبير مولانا الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي ولكني لا أذكر الآن مرجعه ، إنما ذكر في «تذكرة الرشيد» الجزء الثاني ص ٣٢١ : أنه ذُكر المشايخ في مجلسه نور الله مرقده ، فسأل بعضهم عن حالة الإمام الشيخ الكنكوهي نور الله مرقده ، فقال الشيخ نور الله مرقده ما لفظه : وما تسألون عن حال مولانا رشيد احمد ؟ إنه قد شرب البحر ولا يتكرع .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاواه ص ٣٩٦ جـ ٢ : «وقد يقع بعض من غلب عليه الحال في نوع من الحلول أو الإتحاد ، فإن الإتحاد فيه حق وباطل ، لكن لما ورد

عليه ما غيب عقله أو أفناه عما سوى محبوبه ، ولم يكن ذلك بذنب منه : كان معذوراً غير معاقب عليه ما دام غير عاقل ، فإن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق ، وإن كان مخطئاً في ذلك كان داخلاً في قوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ وقال : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ وهذا كما يحكى : أن رجلين كان أحدهما يحب الآخر فوقع المحبوب في اليم فألقى الآخر نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فما الذي أوقعك ؟ فقال : غبت بك عني فظننت أنك أني .

فهذه الحال تعتري كثيراً من أهل المحبة والإرادة في جانب الحق وفي غير جانبه ، وإن كان فيها نقص وخطأ فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه وعن نفسه ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن عرفانه ، وبمشهوده عن شهوده ، وبموجوده عن وجوده ، فلا يشعر حينئذ بالتمييز ولا بوجوده ، فقد يقول في هذه الحال : «أنا الحق» ، أو «سبحاني» ، أو «ما في الجبة إلا الله» ، ونحو ذلك ، وهو سكران بوجد المحبة الذي هو لذة وسرور بلا تمييز .

وذلك ، السكران يطوى ولا يروى إذا لم يكن سكره بسبب محظور» ، انتهى .

محمل كلام الصوفية بخلاف الظاهر

إن السادة الصوفية يكون في كلامهم كثيراً جداً معاني بخلاف الظاهر ، وبعض الحمقى الجهلاء عن رموز الفن يعترضون عليهم أيضاً ، وقد أخرج الترمذي في شمائله رواية أنس رضي الله عنه «أن رجلاً استحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني حاملك على ولد ناقة ، فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال : وهل تلد الإبل إلا النوقُ» . وفي «الشمائل» أيضاً رواية أخرى عن الحسن قال : «أتت عجوز النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز ، قال : فولت تبكي ، فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴾ » .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ما معناه : «أنه خرج إلى السوق فقال : أراكم هنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد ؟ فذهبوا إلى المسجد ورجعوا فقالوا : لم نجد شيئاً فسألهم : فما وجدتم ؟ فقالوا : وجدنا قوماً يقرأون القرآن ، فقال رضي الله عنه : ذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم» .

ويقول العارف الشيخ التهانوي في «التكشف» ص ٤٧٦ بذيل هذا الحديث : يوجد في مقالات أكثر المشايخ وكتاباتهم بعض الكلام بخلاف الظاهر ، الذي يثبت بعد الإستماع إلى توجيهه ومراده : أنه صحيح ومطابق للواقع ، هذا أحياناً يكون سببه غلبة الحال ، وأحياناً بغرض الإخفاء عن العامة ، وأحياناً لتشويق الطالب وترغيبه ، فبالإبهام يتولد الشوق للتعيين ، والتعيين الذي يكون بعد الشوق يكون أوقع في النفس . ففي هذا الحديث إثبات هذه العادة ، فإن سيدنا أبا هريرة رضي الله عنه أبهم أولاً لمصلحة التشويق ، فأوهم ذاك إلى معنى غير مقصود لديه حتى أن الناس بعد الرجوع كذبوه أيضاً ، ولكن بعد التفسير علم أن الكلام صدق وحق . لذا لا يجرح ولا يقدح في من بلغ الكمال أو كان

صاحب حال عند سماع العبارات الموهمة منه . فإنه يثمر الحرمان .

ثم قد روي عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قال : «كان رجل من الأنصار لا تكاد تخطئه صلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم كنا نشفق عليه ، فقيل له : لو اشتريت حماراً تركبه في الظلماء وفي الرمضاء ، فقال : والله ما أود أن بيتي إلى جنب المسجد ، قال أبي : فعظم ذلك عليّ ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرته بما كان ، فطلبه الرسول صلى الله عليه وسلم وسأله ؟ فقال : إني لأحتسب ذلك عند الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جمع الله لك ذلك كله» ، رواه غير واحد بألفاظ مختلفة .

يقول العارف التهانوي بذيله : وهذا مثل السابق ، فيه نفس التقرير الذي ذكر في الحديث الذي قبله ، أنظر إلى الصحابي الأنصاري قال مقولته بأسلوب وألفاظ كانت قاسية وموحشة جداً ولذا ثقلت على سيدنا أبي ، ولا عجب أنه إخفاءً لإخلاصه اختار هذا النوع من الأسلوب أو لمصلحة أخرى مثلها ، وأخيراً بعد عرضه على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : اتضح المقصود الأصلي ، فإنه لم تكن حاجة إلى الإخفاء عنه صلى الله عليه وسلم .

وفي حدث قدسي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال الرسول صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل يوم القيامة : «يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ؟ قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ، فيقول الله عز وجل : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما لو عدته لوجدتني عنده» ، وهكذا فيه عن : إني استطعمتك واستقيتك ، إلخ الحديث .

إن هذا الحديث الشريف يشير إلى أن مثل هذه التعبيرات تكون مجازاً ، ولا تحمل على حقيقتها فتفسد العقائد ، وقد وردت في القرآن آيات كثيرة من هذا النوع : ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ ، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ وغيرها ما هو معلوم ، والله أعلم .

أم الأمـراض : الكـــبر

إن هذا العاجز كان يريد أن يكتب كثيراً ، وكان في الخاطر أشياء كثيرة جداً ، ولكن هذه المرة من بعد الوصول إلى المدينة المنورة توالت الأمراض علّي بصورة مستمرة ، بل ساءت الحال في الهند أيضاً ، وساءت كثيراً فاستولى المرض عليَّ كلياً ، وكنت أرجو تحسن الحال والشفاء بعد الوصول إلى المدينة المنورة حسب العادة دائماً ، ولكن هذه السنة حتى بعد الوصول إلى المدينة المنورة والمرض على حاله ، لذلك أردت عدة مرات أن أترك تكملة هذه الرسالة بعد الشروع فيها ، ولكن بسبب إصرار الأحباب لم يحصل ذاك وإنما أوقف العمل فيها عدة مرات لعدة أيام بل لأسابيع أيضاً أحياناً ، والآن وقد ساءت الحالة الصحية جداً ومستمرة في ذلك : لذا عزمت على أن أذكر موضوعين وأنهي الرسالة ، وهذان الموضوعان كانا من البداية في البال أن أختم بهما الرسالة إن شاء الله : أحدهما : «أم الأمراض : الكبر» ، والثاني : «إساءة الأدب مع الأكابر» ، فإن هذين الموضوعين متعلقان بالشريعة والطريقة كلتيهما .

وقد أخذت اسم العنوان : «أم الأمراض» من رسالة أحد أحبابي المخلصين : وهو الصوفي محمد إقبال الذي ألف رسالة مستقلة مفيدة وسماها : «أم الأمراض» (باللغة الأردوية) وقد طبعت الطبعة الأولى منها وانتهت وتعد الآن لطبعتها الثانية ، وبعد ما رأيت هذه الرسالة أردت أن أترك هذا الموضوع فإنه قد كفى ، ولكن الأحباب أصروا علي : بأن لكل مؤلف أسلوبه الخاص ، لذا يجب أن تأتي بهذا الموضوع في رسالتك .

لقد كتبت منذ مدة في بعض مؤلفاتي «الأردوية» بحثاً مفصلاً في : أن المعاصي تكون نوعين : حيوانية وشيطانية ، وقد بسطت فيه : أن المعاصي الحيوانية تغفر بسرعة عند الله سبحانه وتعالى برحمته وكرمه ، ففي الحديث المعروف للجميع : «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، قال : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق» أو كما قال . وقد بينت

ذلك بالحجج والدلائل من القرآن والسنة .

ولكن بما أن عادتي دائماً كانت بأن أعرض تأليفاتي كلها قبل نشرها على أحبابي خاصة : مولانا الشيخ عبدالرحمن الكاملبوري والشيخ المفتي القاري سعيد أحمد رحمهما الله ، ليراجعوا كل حرف منها ، فما شطبوه منها وإن كان ذلك خلافاً لرايي لم أنشره ، ولو كنت أناقشهم وأخاصمهم شفهياً ، وإنما لم يقدم للنشر إلا ما وافقوا عليه .

والآن لا أذكر أن هذا البحث المذكور كان في أية مسودة ، وعلىٰ كلٍ فإن هذين الحبيبين رأوا أن هذا الموضوع لن ينتج منه الإهتمام العظيم بالمعاصي الشيطانية ، وإنما سيزول الإهتمام الموجود بالمعاصي الحيوانية حتما .

لذلك لم ينشر حينئذ ، ولكن بمناسبة هذه الرسالة : من الضروري جداً بيان الكبر ، إذ أنه من ضمن جميع المعاصي ليس عندي فقط بل في ضوء القرآن والحديث من أشد الأمراض وأخطرها ، وأما في الطريقة فمهلك ومميت .

وقد ذكره حجة الإسلام الإمام الغزالي قدس الله سره في «إحياء العلوم» بأهمية بالغة ، فجعل له كتاباً مستقلاً يقول فيه :

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه ، وذم كل جبار متكبر ، فقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ، وذم الكبر في القرآن كثير .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر» الحديث . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : «الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي» . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كان في قلبه

مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه» . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب» . وقال صلى الله عليه وسلم : «يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق ، يقول : وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلها آخر ، وبالمصورين» . وقال صلى الله عليه وسلم : «تحاجت الجنة النار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم» . وقال صلى الله عليه وسلم : «يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر ، تطؤهم الناس» .

وذكر الإمام الغزالي في «الإحياء» آثاراً كثيرةً في ذم الكبر أيضاً لا يمكن أن نحصيها في هذه الرسالة ، وإنما نكتفي بذكر بعضها : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : «لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير» ، وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال : أنت حرام على كل متكبر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً» . وقال صلى الله عليه وسلم : «بينما رجل يتبختر في بردته إذ أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» . ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خز ، فقال : يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله ، فقال له المهلب : «أما تعرفني ؟ فقال : بلى أعرفك : أولك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة» ، فمضى المهلب وترك مشيته تلك .

وقال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته ، وقال : انعش رفعك الله ، وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض وقال : اخسأ خساك الله ، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير . حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير . وقال مالك بن دينار : لو أن منادياً ينادي بباب المسجد : ليخرج شركم رجلاً ، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجل بفضل قوة أو سعي ، قال : فلما بلغ ابن المبارك قوله ، قال : بهذا صار

مالك مالكاً . انتهى .

وقد ذكر العزيز محمد إقبال في رسالته «سلوك الأكابر» ص ٤٠ مقولة للإمام الكبير الشيخ الكنكوهي نور الله مرقده وهي : إن المشايخ الأولين كانوا يأمرون بالمجاهدات الشديدة لإزالة الأخلاق السيئة حتى تسهل هذه العملية ، ولكن المتأخرين وخاصة مشايخ سندنا وسلسلتنا : استحسنوا هذا الطريق ، أي أن يكثر من الذكر لدرجة أن تنكبس هذه الأخلاق تحت الذكر ، ويتغلب الذكر على كل هذه الأشياء . الأخلاق السيئة كثيرة ، ولكن الأكثر حصروها في عشرة ، ثم ذكروا أن خلاصة هذه العشرة : الكبر ، فلو زال هذا زالت العشرة بنفسها . مكث رجل عند الجنيد رحمه الله عشرين سنة ، فقال له يوماً : لقد مضت عليَّ هذه المدة ولم أتحصل منكم على شيء ، وكان سيداً لقومه عظيماً عندهم ، فعلم أن في قلبه كبر ، فقال له : خذ قفة واملأها من الجوز ، ثم اجلس على باب الرباط وأعلن في الناس : بأنه من يضربني بنعاله مرة : أعطيته جوزة ، ومن يضرب ضربتين فله جوزان ، وهكذا فإذا فعلت ذلك وانتهى الجوز كله ارجع إليَّ ، فقال الرجل : لا إله إلا الله محمد رسول الله يا سيدي إن هذا لا أقدر عليه . فقال له الجنيد رحمه الله : إن هذه الكلمة المباركة لو قالها كافر بلغ السبعين من قلبه صدقا لأصبح والله مؤمناً . ولكنك بقولك إياها الآن اصبحت كافراً بالطريقة ـ اخرج عني فإنك لن تحصل مني على شيء ، انتهى .

ثم ذكر شيخاً آخر وقال : مكث عنده رجل مدة طويلة ، ثم اشتكى أنه لم تحسن حالة القلب ، فقال الشيخ : وما تقصد من الحسن . فقال الرجل : يا سيدي النعمة التي أتحصل عليها منكم سأبلغها إلى الآخرين . فقال الشيخ : إن الفساد كله من هذه النية الفاسدة ، فقد نويت من البداية أن تكون شيخاً تأمر وتطاع ، أخرج هذه الفكرة الفاسدة من بالك ، وتذكر أن ما أنعم الله به علينا من النعم المتنوعة العظيمة واجب علينا شكره سبحانه وتعالى وعبادته عليها ، فالذين يشتغلون بالعبادة والذكر بنية أن يحصلوا عليها نفعاً ونحوه : حتى وفي نيتهم فساد وبطلان ، أي نفع وأي أجر ؟ هذا الوجود وهذا الجسم هذه العينان وهذا الأنف وهذان الأذنان وهذا اللسان وهذه الحواس كلها هذه رزقنا إياها الله سبحانه وتعالى ،

فأولاً نتخلص من شكره سبحانه وتعالى عليها ، ثم بعد ذلك نرجو ونتمنى الأجر والنفع ، «تذكرة الرشيد» .

وبما أن هذا «السلوك والمعرفة» طريق السعادة الحقيقية والفوز العظيم ، لذا يحرص الشيطان أيضاً ويبذل جهده لإفساد سعي السالكين بشتى الوسائل ، فيتركهم على الأعمال الظاهرة من الورع والتقوى والعبادة والإكثار منها ، ومن الداخل يجتهد فيهم على إيجاد الكبر وتثبيته في النفس ، فحينئذ تضيع كل تلك الأعمال والعبادات ، «سلوك الأكابر» .

وذكر في «إكمال الشيم» ص ٩٥ : «من أثبت لنفسه التواضع فإنه متكبر بدون ريب ، لأن دعوى التواضع تكون بعد مشاهدة رفعة قدر نفسه ، فعندما ادعى التواضع فكأنه رأى حينئذ علو مرتبة نفسه فأصبح بذلك متكبراً» انتهى .

فالخلاصة : أن حقيقة التواضع هي أن تكون ذلته وحقارته في نظره لدرجة : أن لا ترد حتى الوسوسة برفعة الشأن أو الإستحقاق لأي منصب أو جاه لنفسه ، فيرى نفسه من الرأس إلى القدم ذليلاً حقيراً ، ومن كان هذا حاله لا يدعي أبداً أي شيء لا التواضع ولا أية صفة حميدة ، لأن الدعوى عندما تكون : تكون بمشاهدة رفعة النفس .

في الحقيقة ليس المتواضع من إذا عمل شيئاً من التواضع رأى نفسه أعظم من ذلك وأرفع ، بل إن المتواضع : من إذا أتى بشيء منه ظن أنه أدنى من هذا وأحقر .

إن عامة الناس يظنون : أن من أظهر العجز والإنكسار والتواضع في أعماله وحركاته فإنه متواضع ، كرجل غني خدم فقيراً بنفسه فيقولون عنه : إنه متواضع ، مع أنه أحياناً لا يكون في مثل هذا الشخص مثقال ذرة من تواضع ، لذلك يبين الشيخ رحمه الله حقيقة المتواضع وغير المتواضع ، ففي الحقيقة : ليس المتواضع من إذا عمل شيئاً من أعمال التواضع ظن أنه أعلى من هذا العمل وأرفع . فمثلاً : إنه ترك الكرسي وجلس على الأرض المفروشة ، فيرى أن الجلوس على الأرض المفروشة أدنى من منزلته ، ويرى أن مقامه أعلى من هذا ، ويتخيل أني كنت أهلاً لأن أجلس على الكرسي ولكني تواضعت وعملت حسناً ، فهذا الشخص : متكبر ، فإنه يرى لنفسه في قلبه مقاماً ومنزلة ، وأما المتواضع حقيقة : فإنه

الذي يعمل بعمل التواضع ويرى نفسه أحقر وأذل من ذلك أيضاً ، فمثلاً جلس على الأرض المفروشة فيتخيل : بأني ذليل وحقير لدرجة أني لا أستحق الجلوس على هذه الأرض أيضاً ، وإنما كنت أستحق أن أجلس على الأرض غير المفروشة ، بل وأدنى من ذلك أيضاً، أو مثلاً خدم رجلاً فقيراً فتكون حينئذ كيفية القلب : بأن يرى أن هذا الفقير قد شرفه عندما تقبل منه هذه الخدمة فيفرح بذاك ، ولا يرى نفسه أهلاً لذلك أيضاً » ، انتهى . وفيه كلام مبسوط قد اختصرته . وعلى كل حال فقد كنت أود أن أكتب في هذا الآن بتفصيل ، ولكن لمرضي أختم هنا . إن أمر الكبر في الشريعة شديد جداً ، وفي الطريقة أشد منها .

لقد رأيت دأب الأكابر دائماً وقد رأيت كثيراً : أن من أتى في باله أمر الخلافة والإجازة « أثناء السلوك » : وجدتهم يتمهلون ويحتاطون جداً في منحه الإجازة حتى بعد حصوله على النسبة ، وبعد منحه أيضاً يشددون في التنبيه عليه عن الكبر ، فإن كان فنعم ، وإلا ألغوا الإجازة .

وقد رأيت بعض خلفاء الأكابر ، وقد كانوا يجتهدون جداً في الذكر والشغل : يسقطون من الأعالي بسبب هذا الكبر . وبعد الإجازة يجب الإحتراز منه أكثر ، فإن لم تنسخ الإجازة من قبل الشيخ فلا يتعدى عنه نفع السلسلة ولا يفوز مريدوه إلا قليلاً ، نجاني الله من هذا المرض المهلك ، وحفظ منه أحبابي خاصة وجملة السالكين بمحض لطفه وكرمه وفضله ، فالأمر خطير جداً .

إن أمر « الكبر » عظيم جداً ، وهناك « العجب » وهو أدنى مرتبة من الكبر ، وهو خطير أيضاً ، ويجب الإحتراز منه ، فإن نتائجه أيضاً تكون أحياناً فوق الإحتمال ، فبسبب هذا العجب أصاب ما أصاب من الهم والإضطراب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع وجوده معهم في غزوة حنين ، ففي سورة التوبة ذكرت هذه القصة ، حيث يقول الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وفي حروب المرتدين معلوم قولَ خالد بن الوليد رضي الله عنه : « إن البلاء موكل بالمنطق » ، إذ كان القتال أولاً مع طليحة الكذاب وهزم فيه الكفار وقد هرب منهم كثيرون وقتل آخرون حتى طليحة هرب ، فعلت بذلك همم المسلمين ، ثم كان قتال مسيلمة الكذاب وجماعته ، وقد وقفوا لهم وقاتلوا قتالاً مريراً ، وقتل منهم رجال كثيرون واستشهد من المسلمين أيضاً جماعة كبيرة ، وكان سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه قائد هذه المعارك يقول رضي الله عنه : « عندما انتهينا من طليحة الكذاب ولم يكن قوياً في قتاله فقلت كلمة ، وإن البلاء موكل بالمنطق ، فقلت : وما بنو حنيفة وهل هم إلا كالذين انتهينا منهم ؟ « يعني طليحة وجماعته » ، ولكننا عندما تقابلنا رأينا أنهم لم يشبهوا أحداً ، وقفوا لنا من طلوع الشمس إلى العصر » . فهذا سيدنا خالد رضي الله عنه يعترف بنفسه : أنه قد نطق بكلمة سببت كل هذا القتال ، لذلك كان السادة الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم إذا هنأوا جيشاً ونحوه بالفتح : كانوا يحرصون على أن لا ينتج منه عجب ونحوه ، وقد ذكر التفصيل في مقامه .

وبمقابل ذلك : فإن العجز والتواضع يحبه الله سبحانه جداً وهو شعار الأنبياء والصالحين دائماً ، ففي فتح مكة عندما دخل سيد الكونين صلى الله عليه وسلم مكة كان خافضاً رأسه وكله تواضع وتذلل لله عز وجل ، يظهر التواضع والعفو من كل حركة مع أنه كان أعظم فتح وأعظم غلبة على أعظم عدو ، وكان من ثمرة هذا التواضع : أن لانت قلوب الأعداء المعاندين والمتعصبين فانقادوا له صلى الله عليه وسلم وأطاعوه ، وتيقنوا أنه صلى الله عليه وسلم كله رحمة وشفقة ، ويمنحنا ثروة ونعمة عظيمة غالية وهي الإيمان . وأن القتال لم يكن للمال أو البلاد .

وذكر في «أسير مالطا» ص ١٥٩ : «إن حضرة شيخ الهند محمود الحسن كان ذوقه الطبعي : أن يكون مع الفقراء وعامة الناس ، وكان يحب أن يكون حاله ولباسه وهيئته ومعاملاته كلها على منوالهم ، وكان يستوحش من أهل الدنيا والأغنياء وأصحاب الهيئات ، يستأنس بطلبة علم الدين ، وكان يحب أن يسافر في القطار بالدرجة الثالثة ، كل هذا مع أنه كان طبعاً يحب النظافة جداً ، وكان ذكي الحس لطيف الذوق ، كان يحمل عادة في السفر الكافور معه لأنه كان يتأذى من ألبسة الناس الوسخة ، يرغب في الطيب ولا سيما طيب الورد ، ويحب جداً البساطة ومجالسة البسطاء ومخالطتهم ، يبغض طبعاً التزائي في الهيئة والملبس وأصحابها . وينقل كثيراً جداً مقولة الإمام الكبير الشيخ محمد قاسم النانوتوي : «إن مرحاض عامة الناس أيضاً فيه بركة» أي أن تلك المراحيض التي تصنع للأغنياء والأمراء ويهتم فيها بالنظافة والذوق ولكن فيها نحوسة وفساد خلقي بخلاف مراحيض العامة ، وحقيقة ذلك : أن النفس ترغب التعلي فهي تشتاق إلى رفعة نفسها وعظمتها ، وهذا أصل المعاصي كلها وخسارة الدنيا والآخرة ، لذا فإن أهل الله والسادة الكاملين عندما يرون في شيء ما ولو مقداراً بسيطاً جداً من أمور التعلي أو الرفعة للنفس فإنهم ينظرون إليه نظرة سخط وبغض ، والذي فيه تذليل للنفس وتحقير ظاهري لها يحبونه ، فإن الكثافة المادية والروائح الكريهة الظاهرية لا تعادل شيئاً مقابل الروائح الكريهة المعنوية والكثافة الروحانية .

فمراحيض الأغنياء تولّد في النفس : العجب والرعونة ، ومراحيض العامة : لا تولد هذه الأشياء بل إنها بخلافه تُري حقارة النفس ودناءتها وتذكر الناس بنجاستهم وحالتهم الحقيقية ، فإذا كان هذا حال المرحاض فما بالك ببقية الأوضاع والأطوار والمساكن والملابس وغيرها ، فقِسْها عليه .

وكان يقول أيضاً : إن الفقهاء ذكروا أن التوضؤ من الحوض أفضل ، ويقول الشراح : سببه العمل بخلاف المعتزلة ، ففيه إنكار ورد عليهم ، ولكن لم ينقل عن المعتزلة في أي مكان أنهم أنكروا على التوضيء من الأحواض ، والذي أراه : أن في هذا العمل إصلاح عظيم للنفس ، فإنه يصعب عليها جداً ، فشخص يغسل رجليه في نفس الحوض ،

وآخر يغسل يديه منه ، والثالث يغسل وجهه منه أيضاً ، وآخر يستنشق ويتمضمض منه وهكذا ، لذا فإن أصحاب النفس الأمارة وأصحاب الأموال من أهل الدنيا يرون فيه : تذليلاً وتحقيراً لهم ، فالغالب ان تكون أفضلية الوضوء من الحوض بسبب ذلك .

وفي الواقع : إن هذان «الأستاذ وتلميذه» أعني حجة الإسلام الإمام الشيخ محمد قاسم النانوتوي وشيخ الهند الشيخ محمود الحسن رحمهما الله تعالى كانا دائماً يبحثان عن كل ما يؤدي إلى الخمول والتواضع وتحقير النفس وتذليلها فيختارونه ويتمسكون به ، وما رأوه يؤدي إلى الكبر وحب الجاه والشهرة بين الناس والتعاظم والتعلي ابتعدوا عنه وهربوا منه .

ثم لم يكونوا على الطريقة الشائعة يجتهدون في أساليب التواضع الظاهرة باللسان والقلم فقط ، فإن أكثرنا يكتب ويقول عن نفسه : إنه أفقر الخلق ، وأحقر العباد ، وأدنى الخلائق ، وإنه لا يساوي شيئاً ، وإنه كذا وكذا ، ولكن كل هذه عامة تكون رياء ونفاقاً ، فالقلب يكون بريئاً من كل هذه الأقاويل وبعيداً عن هذه الأحاسيس ، إنما نفكر في قلوبنا بأننا : نحن ما نحن ، لذلك تكون الغيبة واتهام الآخرين وتنقيصهم وهتك أعراضهم ولا يكتفى في ذلك بالمعاصرين ، وإنما لو بلغنا عن السابقين محاسنهم ومعاليهم فإن ذلك أيضاً يوقد نيران الحسد في قلوبنا ، ثم نجتهد في كل من تكون له منزلة بين الناس أن نذله ونخطط ونجتهد للإحباط به ، وإن وصفنا أحد بالجهل أو الحمق أو سبنا بأسماء أحد الحيوانات كحمار أو كلب أو نحوه فلا تسأل عن غضبنا ومن يملك زمامنا حينذاك ، مع أننا أدنى الخلائق ، فإن كنا صادقين في القول : فلماذا الغضب على تسميتنا بالحمار أو الكلب ؟ فإنها أيضاً من الخلائق التي نحن أدناها وأصغرها ، فقط .

أما أنا فقد جربت هذا مئات المرات بأنه : ما من مرة يخطر بالبال فقط (وليس على اللسان) شيء فيه كبر أو عجب إلا وظهرت نتيجته السيئة .

إن إضراب عام ١٣٨٢هـ بمظاهر العلوم جعل هذا الحقير غير راغب إلى التعليم والتدريس ، بل وكأني تركت التدريس بعده . في هذا الإضراب واجهنا من قبل المفسدين

واهل الفتنة الكذب والغدر والحلف الكاذب وأشياء كثيرة جداً ، ولكن حسب عادتي الدائمة ما زلت افكر بمقتضى قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ وامحص الأحوال ، ومهما كانت الأسباب الظاهرة لهذا الإضراب ولكن على قول سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه : ﴿إن البلاء موكل بالمنطق﴾ ظهرت عدة أشياء بعد الملاحظة :

١ - قبل أسبوع تقريباً من بداية الإضراب ذكر في درس أحد مدرسينا إضراب بعض المدارس الأخرى ، فتحمس هذا المدرس وقال مفتخراً : ﴿إن مظاهر العلوم لا تكون فيها إضرابات﴾ .

٢ - بداية هذا الحادث كان من العمارة الفرعية للمدرسة ، حيث أن احد الكفار أشار على طالب مبعد من المدرسة : إنكم لو تعاونتم واتفقتم على أمر فلا يمكن لإدارة المدرسة ان تعمل أي شيء ضدكم ، فجاء هذا الطالب ليلاً بعد قفل البوابة وجمع الطلبة وخطب فيهم وأظهر لهم مظلوميته وعجزه ، وفي الصباح بلغني خبره ، فطلبت المسئول بالعمارة الفرعية وأخبرته بما حصل ، فقال هذا المسؤول : يا سيدي لا تخشى شيئاً إنه لا يستطيع عمل أي شيء ، وأنا الآن أذهب وأدبر حاله ، وقد أردت ان افهمه وأؤكد عليه ولكنه كان متحمساً جداً لرايه ومطمئناً .

٣ - عندما استمر هذا الحادث وطالت مدته وانتقلت عدواه إلى مظاهر العلوم ﴿الأم﴾ ، وجلس أهل الشورى للتشاور ، عندئذ قال هذا العاجز لهم بقوة وجزم : لم يشترك في هذا الإضراب أحد من طلبة الدورة أي ﴿دورة الحديث الشريف﴾ ، فقال نائب مدير التعليم بالمدرسة المرحوم الشيخ عبدالمجيد بصوت خفي : بلى يا سيدي يوجد بعض الطلبة من الدورة أيضاً ، فرد عليه هذا الأحمق بشدة : ـ إنه لا يمكن ابداً ان يكون أحد من أهل الدورة اشترك معهم .

ولكن ثبت بعد التحقيق : أنه لم يبق من أهل الدورة أحد إلا نادراً ، ومما زاد الحيرة والأسف أن احد المخلصين إليّ وكان يظهر مودته وإخلاصه لي دائماً ، وكان من أخلص خدام سماحة الناظم في الظاهر وكان معنا في كل شيء ، وفي الخفاء : كان مع المفسدين .

وكان سبب قولي بقوة : «إن أهل الدورة لم يشتركوا» هو : أني كنت دائماً أذكّر أهل الدورة في أثناء درس الحديث الشريف عن مقامهم العالي وأنهم نواب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيكونون في المستقبل اسوة للقوم ، وفي هذه السنة بالذات كنت أزيد لهم من هذه المواعظ والنصائح ، فكنت اظن لحمقي أن هذه الكلمات تكون قد أثرت فيهم فلا يمكن ان يشتركوا في مثل هذا الفساد ، ولكن عندما رأيت ما ذهبوا إليه أخذت أردد قول الشاعر «بالأردوية» ما ترجمته :

«لماذا لا يبكي ذاك المحروم ويرفع طرفه إلى السماء : الذي يرى في كل مقام أن جهده قد ضاع هباء منثوراً» .

حتى الآن عندما اتصور ذاك المنظر : يتضح لي عجزي وقصوري ، فإنني لو كنت متزيناً بالإخلاص لأثر فيهم كلامي .

قبل هذا الحادث «الإضراب» : كنت عندما اسمع عن إضرابات بعض المدارس الأخرى وتبلغني من أفواه الطلبة مظالم الإدارة عليهم : كنت دائماً في جهة الطلبة ، ولكن المناظر التي رأيتها بأم عيني في هذه السنة ، جعلتني بعدها كلما بلغني عن إضراب مدرسة ما تكون عواطفي مع أهل المدرسة ، وأرى أن الظلم والعدوان أصلا من الطلبة ، فإلى الله المشتكى وهو المستعان .

وثبت هذا المنظر في جذر القلب ـ نجاني الله والجميع منه ـ أن الكبر : أم الأمراض ، ويُسقط الكبراء من العلو ، وقد رأينا كثيراً من مشايخ السلوك يسقطون بسبب هذا المرض .

وقصة الشيخ أبي عبدالله الأندلسي من القصص التي رسخت في قلبي وثبتت بحيث أنها تأتي دائماً على رأس القلم بدون قصد مني ، وأود لو أنها هكذا تكون راسخة في قلب كل من له أدنى علاقة بالسلوك والتصوف .

والقصة ملخصها : أن أحد المشايخ الكبار في عهد الشبلي رحمه الله خرج في مريديه وتحيط بهم الخيرات والرحمات ، ومروا في أثناء رحلتهم على قرية يسكنها النصارى ، وحان وقت الصلاة ولم يجدوا في القرية ماء حتى وصلوا إلى مشارف القرية ، ورأوا هناك بئراً وقفت عليه بعض الفتيات ، و وقع بصر الشيخ أبي عبد الله على إحدى الفتيات ، وبدأ وجهه يتغير ، ثم جلس في مكانه وجلس المريدون كلهم من حوله ، ومكثوا كذلك ثلاثة أيام والشيخ لا يذوق طعاماً ولا شراباً ولا يكلم أحداً ، وفي اليوم الثالث سأله الشبلي عن حاله ؟ فأجاب الشيخ وكله حسرة وألم : يا أعزائي إلى متى أخفي عليكم أمري ، إن الفتاة التي رأيتها قبل ثلاثة أيام قد تسلط عليّ حبها حتى أني لا أستطيع الحراك من مقامي هذا ، فاذهبوا أنتم واتركوني هنا .

قال الشبلي : فحاولنا أن نأخذه معنا ولكنه أبي ، وبكى مريدوه ورجعنا جميعاً إلى بغداد ، وحينما وصلنا إليها وأخبرنا الناس بحكاية الشيخ لم يكد يصدقنا أحد .

يقول الشبلي : وبعد سنة كاملة خرجت مع بعض رفاقي إلى تلك القرية لنستعلم أحوال الشيخ ، وسألنا أهل القرية ؟ وأخبرونا أنه هناك في البرية يرعى الخنازير ، فصعقنا للخبر ، وسألنا عن السبب ؟ فقالوا : إنه خطب ابنة سيد القرية ، فاشترط أن يرعى الخنازير ، فقبل الشيخ الشرط .. فذهبنا إلى حيث كان الشيخ ، و وجدناه وعلى رأسه قلنسوة النصارى وعليه الزنار متكئاً على عصاه التي كان يتكئ عليها عند الخطبة وأمامه الخنازير ، وعندما انتبه لنا أرخى بصره ، وعندما اقتربنا منه سلمنا عليه فقال بصوت منخفض : وعليكم السلام . فقلت له : أيها الشيخ الكريم ما هذا الذي نراه مع العلم والفضل ومعارف التفسير والحديث التي تتحلى بها ؟ فأجاب : يا إخواني فعل الله بي ما أراد ، يبعد من يشاء ويقرب من رحمته من يشاء فلا رادَّ لقضائه ، يا أحبابي اتقوا الله من غضبه وعذابه ولا تغتروا بعلومكم ومعارفكم ، فإن الأمر بيده وحده . ثم رفع بصره إلى السماء وقال : يا مولاي لم أكن أظن بك أن تذلني وتبعدني هكذا عن بابك . ثم صار يستغيث بالله ويدعوه

ويبكي بحرارة . ثم قال : يا شبلي اعتبر بغيرك . فبكيت وقلت : اللهم إنا نستغيث بك ونستعينك ونتوكل عليك نسألك ان تذهب عنا هذه المصيبة .

قال : ثم تركنا الشيخ مكانه واخذنا في الرجوع إلى بغداد .. وفي الطريق في مقام وجدنا الشيخ أمامنا يخرج من عين ماء جارية مغتسلاً ورافعاً صوته بالشهادتين يقول : أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً رسول الله ، فلا يقدر فرحنا من لم يعلم بمصابنا . ثم سألنا الشيخ عما حدث فقال : إننا عندما مررنا بتلك القرية و وجدنا كنائس النصارى ومعابدهم كبرت نفسي وقلت : إني مؤمن وموحد ، وأما هؤلاء فإنهم حمقى لا يعرفون الله عز وجل ولا دينه الحق ، فسمعت حينئذ هاتفاً غيبياً يقول : إن هذا الإيمان ليس منك ، إنما هو بفضلنا وإرادتنا وتوفيقنا ، وإن أردت فسنريك قدرك» ، انتهى مختصراً .

وكان مقصودي من القصة هذا الجزء الأخير وإلا فالقصة بتفاصيلها قد ذكرتها في (مذكراتي الشخصية) ، ونقل عنها العزيز محمد إقبال في رسالته (سلوك الأكابر) ، وكان الحكيم محمد إلياس السهارنبوري قد أفردها بالطبع والنشر في رسالة مستقلة .

فهذا «الكبر» ما ادهاه وما أخطره ؟ من أين رفع شيخ المشايخ وأين أوصله ، فما نحن ؟ أعاذني الله والجميع بمحض فضله وكرمه من هذا المرض الخبيث والداء المميت ، والله سبحانه المستعان ، وعليه التكلان وحده .

إساءة الأدب مع الأكابر

الموضوع الأخير وهو أهم الأمور وأخطرها وأفظعها ، ألا وهو «إساءة الأدب مع الأكابر» ، سواء كانوا من السادة العلماء أو المحدثين الأفاضل أو الفقهاء الكرام أو الصوفية العظام ، وقد قال الله تعالى جل شأنه : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

ونقل صاحب «الدر المنثور» عدة روايات وآثار في تفسير هذه الآية ، وفيها أيضاً عن الإمام الأوزاعي أنه أخبره يحيى بن كثير والقاسم ومكحول وعبدة بن أبي لبابة وحسان ابن عطية أنهم سمعوا جماعة كبيرة من الصحابة رضي الله عنهم قالوا لما نزلت هذه الآية : قال صلى الله عليه وسلم : إنها لأمتي .

فهذه الآية تشمل السادة الصوفية أيضاً الذين هم : «مصداق الإحسان في الحديث كما سبق» وقد مر الكلام على هذا بالتفصيل في رسالتي «الإعتدال» ومنه أنقل هنا مختصراً : «إن هؤلاء الحمقى الذين جعلوا نصب أعينهم احتقار العلماء وتذليلهم ويفتخرون بإيذائهم والنيل منهم : هؤلاء يجب عليهم أن يعلموا أنهم وعلى كل حال سيخسرون في هذه الصفقة أكثر من العلماء ، إذ أن أكثر ما سيضروا العلماء به هو : أن ينقصوا شيئاً من دنياهم أو يقللوا من عزتهم وجاههم الزائل ، وهذا أيضاً بشرط أن يكون في يدهم من تغيير القدر شيئاً ، ولكنهم المساكين يهلكون أنفسهم ويتضررون بسبب عملهم من حيث الدنيا والآخرة كليهما .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا ولم يعرف لعالمنا» وبعد هذا القرار النبوي إن ادعى الذين يسبون العلماء على العموم أنهم

من الأمة المحمدية فليذعوا ، ولكن صاحب الأمة يرفضهم ولا يرضى بشمولهم .

ويقول صلى الله عليه وسلم : «حملة القرآن أولياء الله ، من عاداهم فقد عادى الله ، ومن والاهم فقد والى الله» .

وقد بسط الإمام النووي في «شرح المهذب» في هذا البحث ونقل عنه صلى الله عليه وسلم قوله ، كما رواه البخاري : «يقول الله عز وجل : من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» ، وذكر أن الخطيب البغدادي نقل عن الإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي رضي الله عنهما : إن لم يكن الفقهاء (العلماء) من أولياء الله فليس هناك ولي لِله ، ويقول حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : «من آذى فقيها (عالما) فقد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد آذى الله» .

يقول الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله : «يا أخي اعلم وفقني الله وإياك لأسباب مرضاته ، وجعلنا ممن يخافه ويتقيه كما ينبغي : إن لحوم العلماء مسمومة ، وسنة الله معلومة في هتك اعراض من اساء إليهم ، ومن أهانهم أذله الله ومن أعابهم أمات الله قلبه» .

ويقول الشيخ عبد الحي اللكنوي في فتاواه : «إذا كان المقصود سبهم وتنقيصهم للعلم والعلماء بسبب العلم : فإن الفقهاء يفتون بكفرهم ، وإن كان بسبب آخر فأيضاً لا أقل من الفسق والفجور ، ولا شك في غضب الله عليهم واستحقاقهم العذاب في الآخرة» ، انتهى .

وقد بسطت في «الإعتدال» الكلام على هذا ، وأيدته بكلام السادة العلماء بعد تأييده بالآيات القرآنية والروايات الحديثية ، فمن وجد فراغاً من الشواغل الدنيوية ولم يظن أن هذه الأشياء عبث : فأرجو أن يلاحظها بإمعان .

كان أحد خدام الإمام الكبير الشيخ الكنكوهي قدس سره يحصل له كشف القبور كثيراً فعندما توفي والدي أتاني لتعزيتي وذهب إلى المقبرة وجلس هناك مدة طويلة ، ثم أتاني وبلغني عن والدي ثلاث رسائل :

١ – لم أطالب من ناحية الدَّين بشيء فلا تهتم . وذلك أن والدي رحمه الله عندما توفي كان مديناً عليه بحوالي ثمانية آلاف روبية ، وكنت مهموماً جداً لذلك فكتبت في اليوم

الثاني من الوفاة بعد الإستشارة مع عمي الشيخ محمد إلياس رسائل إلى جميع الدائنين : بأن والدي قد توفي ، فما كان لكم من دين عليه حولوه عليَّ ، فإني أصبحت من الآن مدين لكم به .

وكان سيدي الشيخ خليل أحمد حينئذ عند رجوعه من الحجاز في سجن الإنجليز ، لأن سفرته هذه كانت مع شيخ الهند مولانا محمود الحسن ، وقد أقاما سوياً بالحجاز لمدة سنة ، فعندما خرج من السجن لم يستحسن هذا الرأي وقال : بل كان المفروض أن تكتب إليهم : إنه ترك هذه الكتب في المكتبة فتعالوا وخذوا منها مقدار قرضكم .

٢ – بلّغني : أن لا تهتم من ناحية فلان .. فإن ما عمله لم يؤثر عليَّ ، وإنما أساء هو إلى نفسه ، وهذا الشخص كان يبغض والدي ويعانده وينتقده في كل شيء ، وأنا بعد وفاة والدي كنت أهتم كثيراً بشكاويه وعداوته لي أيضاً ، وقد رأيت أثر هذه الرسالة الثانية بنفسي : أن هذا الشخص عوتب من قبل شيخنا وأبعد عن المدرسة .

٣ – والرسالة الثالثة كانت : إنه يجب أن تخشى دائماً أهل الله وتخافهم ، فإن هؤلاء حتى عِوَجهم يكون عدلا . وكنت حينئذ صغير السن وأطلب العلم ، فلم أستطع فهم هذه العبارة ولم تقبله فطرتي ، فإن المعوج على كل حال : معوج ، سواء كان من قبل رجل من أهل الله أو رجل من أهل الدنيا .

وقد تفكرت كثيراً لأفهم المراد من هذه الرسالة فلم أستطع ، وبعد عشر سنوات عام ١٣٤٥هـ كانت إقامتي بالمدينة المنورة بسبب « بذل المجهود » في رحاب شيخنا ، وكان بعضهم يكتب إلى سيدي شكاوي ، منها صادقة ومنها كاذبة عن ناظم المدرسة ، وبما أني كنت أعرف هذا الرجل شخصياً ، لأنه كان يراسلني مباشرة أيضاً ، وكنت عند الكتابة لسيدي أرد على شكاوي هذا الشخص وأدافع عن الشيخ الناظم ، وأحياناً أتجرأ أكثر فأرد عليه بشدة ، وعند ما كان الرجوع في ذي القعدة عام ١٣٤٥هـ من الحجاز وكان معي الإمام الشيخ عبدالقادر الراي بوري أيضاً في هذا الرجوع ، فأرسل سيدي رسالة شفوية إلى الشيخ الناظم بواسطة مولانا الشيخ عبدالقادر بأن يبلغه : إن معاملتك مع فلان ليست

بحسنة فعامله بأسلوب حسن .

ومولانا الشيخ عبدالقادر بلغ هذه الرسالة أمامي إلى الشيخ الناظم عند وصولنا لسهارنبور ، فقال الشيخ الناظم : إنه يكتب إلى سيدنا الشيخ أنباء كاذبة ، وقال أيضاً فيه أشياء بدون مبالاة ، فرأيت أن وجه الشيخ عبدالقادر قد تغير لذلك . ثم سألت الشيخ الجليل في انفراد : بأنه قبل إحدى عشر سنة بلغتني رسالة والدي فمكثت أتفكر فيها ، والآن عندما رأيت تغير وجهك تذكرت نفس الأمر ، إذ أن الشيخ الناظم قد صدق في قوله : إن ذاك الشخص يتقول الأكاذيب ، ولكن تأثرك ذكّرني بتلك القضية القديمة ؟ فقال الشيخ الكريم مولانا عبدالقادر الرايبوري : «إن إشكالك صحيح ، فالباطل باطل على كل حال ، ولكن أولياء الله هؤلاء إن تكدرت قلوبهم ولو بسبب الشكاوي الكاذبة : فإن هذا التكدر لا بد وأن يأتي بنتيجة» .

وبعدها كم مرت عليّ تجارب من ذاك النوع ، فحقاً إن تأثر هؤلاء الأولياء المتقين وتكدر قلوبهم نحو شخص ما يوقعه في مصائب ودواهي عظيمة ، فصرت أخاف في الأمر وأنصح أحبابي بأن لا تغتروا أنكم على الحق ، وإنما مع ذلك احرصوا على إرضاء هؤلاء المتفانين في رضاء الله ومحبته أيضاً ، فحاولوا بقدر الإستطاعة دائماً أن تكون قلوبهم صافية نقية من قبلكم .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية حديث : من عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وقال : إنه أحسن حديث في الباب ، وذكر روايات أخرى أيضاً في نفس المعنى ، ثم قال : «وذلك لأن هؤلاء الأولياء آمنوا بالله ووالوه . ويحبون ما أحبه الله ويبغضون ما أبغضه الله ، ورضوا عمن رضي الله عنه وسخطوا على من سخط الله عليه ، وأمروا بما أمر الله به ونهوا عما نهى عنه» ، انتهى .

ويقول الإمام الكنكوهي نور الله مرقده : إن الذين يهينون العلماء ويطعنون فيهم ويسيئون إليهم هؤلاء تحول وجوههم عن القبلة في القبور ، ومن شاء فليتحقق ، «الأرواح الثلاثة» ص ٢٦٠ .

وقد بسطت الكلام في «الإعتدال» في هذا المقام أيضاً ، وفيه : إن قوله تعالى : «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» قد ذكره البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا ، ثم قد روي أيضاً عن عائشة وميمونة ومعاذ وأنس وأبي أمامة رضي الله عنهم بألفاظ مختلفة .

وروي عن وهب بن منبه : أنه رأى في زبور داود عليه السلام : «يقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة» ، كذا في «الدر المنثور» .

وهناك روايات كثيرة صُرح فيها أن من آذى أو عادى أو أهان أحداً من أولياء الله فإنه قد بارز الله بالمحاربة ، وأن الله يغضب لهم وينتقم من أصحابها . فانظر يا أخي هداني الله وإياك كم هي خطيرة هذه القضية ؟ فأي أرض تقله من يبارز الله رب العالمين ، ثم وفي جزاء ذلك لو كسرت يد أو رجل أو ذهب سمع وبصر ونحوه من المصائب الدنيوية لكان هيناً وسهلاً ، لأن الدنيا على كل حال فانية ، ويمكن أن يوفق للتوبة ، ولكن إذا ابتلي بسبب ذلك في مصيبة دينية عقائدية لا قدر الله فهي الطامة الكبرى .

قالت الأئمة الأعلام : ليس هناك ذنب عبر عنه المولى سبحانه بالمحاربة إلا : هذا الذنب ، وأكل الربا .

فعلم أن إثمهما عظيم جدا ، ويخشى على أصحابها من سوء الختام ، نسأل الله سبحانه العافية والسلامة من سخطه وعذابه ، وقد نقل العلامة علي القاري في «المرقاة» نحو ذلك عن العلماء .

وقد ذكر صاحب «مظاهر الحق» أيضاً : أن محاربة الله تعالى لعبده تدل على سوء خاتمته ، إن حسن الختام بالنسبة للمؤمن أمر عظيم ونعمة لا تضاهى ، فالشيء الذي يخشى منه : أن يؤثر في سوء الختام ، فما أكبر خطره وما أعظم شأنه وما أحرانا أن نتحاشاه ونجتنب عنه ؟ .

وقال الشيخ أحمد في «جامع الأصول» : «إن الإنكار على السادة الصوفية الذين يتبعون السنة ويقمعون البدعة وخصوصاً المتحلين منهم بالعلم النافع والعمل الصالح

والحاملين للمعارف والأسرار الربانية الإنكار عليهم : سم قاتل ومهلكة ، ورد الوعيد الشديد في النهي عنه ، وهو أمر خطير ودليل على أن في القلب إعراض عن ذات الله عز وجل ، وأنه مليء بالأمراض ، يخشى عليه من سوء الختام ، والعياذ بالله .

وذكر العلامة الشعراني في «الطبقات الكبرى» عن الإمام أبي تراب النخشبي وهو من كبار مشايخ الصوفية وغيره : إذا استأنس قلب المرء بالإعراض عن الله ابتلي بالإعتراض على أهل الله .

وقد بسط فيه المشايخ في مقامه ، ومحبة أهل الله وخاصته هو الإكسير الأعظم ، وعداوتهم سم قاتل ، وفقني الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه وجميع المسلمين لما يحبه ويرضاه ورزقنا حبه وحب رسوله صلى الله عليه وسلم وحب من يحبه . آمين .

وقد بسطت الكلام في «الإعتدال» فارجع إليه فإنه مهم ومفيد جداً .

ولي نصيحة أنصح بها أحبابي جميعاً ، وأحاول العمل بمقتضاها دائماً ، وهي : أن شعب الدين كثيرة ويصعب على كل أحد العمل بها جميعها ، فمثلاً : يكون محدثاً وفقيها ومجاهداً وصاحب تقوى وورع وصاحب عبادة كثيرة وصاحب صيام وصدقة ونسك إلخ .. ومن الصعب جداً أن يتمكن شخص من كل تلك الشعب حق التمكن ، ولكن لو بحث المرء عن الكاملين والمتمكنين في كل شعبة من هذه الشعب وأحبهم محبة خاصة ، فعلى قاعدة : «المرء مع من أحب» يرجى إن شاء الله أن يحصل له حظ وافر من شعبهم كلها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين .

قبيل المغرب يوم الجمعة إحدى عشر جمادي الأولى سنة ١٣٩٧هـ في مسجد النبي الكريم صلى الله تعالى على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم .

محمد زكريا (عفي عنه)

فهرس كتاب «تلازم الشريعة والطريقة»